

الدكتور احسان النص

الخطابات السجعية
في
عصربني أمينة



المقدمة

كان العصر الأموي هو العصر الذي تألقت فيه الخطابة العربية عامة ، والسياسية خاصة ، وبلغت فيه غاية بعيدة من الرقي والازدهار ، وتألق فيه نجم طائفة من أبرز خطباء العرب المفوّهين أمثال زيد وعتبة بن أبي سفيان والحجاج .

وهذا الكتاب يشتمل على المحاضرات التي ألقاها كلية الآداب في موضوع الخطابة السياسية في عصربني أمية . والقسم الأول منه يتناول المؤثرات التي كان لها صداها في الخطابة السياسية وازدهارها في ذلك العصر ، ويتناول القسم الثاني منه الخطابة السياسية من حيث أنواعها وخصائصها الفكرية وسماتها الأسلوبية . والقسم الأخير منه يتناول دراسة خطيب من ألمع خطباء السياسة عصرئذ وهو زيد ابن أبي سفيان .

وأمل أن يكون هذا الكتاب حافزاً للباحثين على استيفاء دراسة الخطابة العربية في شقى عصورها وامتدحلاً، خصائصها وميزاتها ، إذ أنها - على رغم الدور الخطير الذي لعبته في حياة الأمة العربية في عصورها المختلفة والمترفة الرفيعة التي قوأتها في أدبنا العربي - لم تحظ حتى اليوم بما هي خلقة به من عناية الدارسين .

دمشق ١ / ٣ / ٦٥

إحسان النص

القسم الأول

العوامل المؤثرة في الخطابة السياسية

في العصر الأموي

١

الأحداث السياسية وأثرها

في الخطابة الأموية

كانت الأحداث السياسية التي حفل بها العصر الأموي أبرز العوامل التي تأثرت بها حياة الفن الخطابي في ذلك العصر ، وتاريخ مصر الأموي يسجل صراعاً منتصلاً بين الفرق والأحزاب المختلفة ، ومدار هذا الصراع على الخلافة ، وفي سبيل الظفر بها اضطررت الأحزاب والفرق صراعاً حرياً ولسانياً لم تهدأ تأثيراته طوال هذا العصر ، وكان النزاع القبلي صورة من صور هذا النزاع السياسي . فقد شهد هذا العصر تجدد الخصومات القبلية التي استطاع الإسلام إخماد جذورها فترة قصيرة ، وانضمت إلى العصبية القبلية عصبية أخرى جديدة تحضرت عنها الفتوح الإسلامية ، هي عصبية الأمم التي غلبت على أمرها وأظلها لواء الحكم الإسلامي . بيد أن الصراع بين العرب والأعاجم لم يتهد في هذا العصر صورة واضحة لقلبة التزعنة العربية عند بني أمية وبطشهم بالموالي واضطهادهم أيامهم . وثمة لون آخر من الصراع شهدته هذا العصر هو الصراع الحربي من أجل توسيع رقعة البلاد الإسلامية . وكان من شأن هذه الأحداث كلها أن ازدهرت الخطابة السياسية في هذا العصر ازدهاراً لم تلحظ به في أي عصر آخر ، إذ أنها كانت أحد الأسلحة الماضية التي استخدمت إبان هذا الصراع السياسي العنيف . وسأوجز القول فيما يأتي في أبرز الأحداث السياسية والفنون والفتحات الحربية التي تحضر عنها هذا العصر وكان لها أثرها في الخطابة الأموية .

بواحد انشقاق المسلمين في سبيل الخلافة وظهور المعارضة لبني أمية

أولاً : كان مصرع عثمان وتولي علي الخلافة (٣٥هـ) إيذاناً بيده اقسام المسلمين على أنفسهم ، وافتراهم إلى أحزاب وشيع تتصارع من أجل الخلافة والحكم ، واتخذ الطامعون في الخلافة مقتل عثمان ذريعة لمناؤة علي ورفض مبايته . وكان أول المنشقين عائشة زوج رسول الله عليه السلام وانضم إليها طلحة بن عبيد الله والزبير ابن العوام وهما من زعماء القرشيين الطامعين في الخلافة ، فاضطر علي إلى قتالهم وكانت وقعة الجمل (٣٦هـ) أول موقعة اقتتل فيها المسلمون .

وما كاد علي يفرغ من أمر أصحاب الجمل حتى وجه همه إلى محاربة معاوية الذي قام بطالب أيضاً بدم عثمان ، والتحتم جموع العراقيين بجموع الشاميين في صفين (٣٧هـ) وكادت الفيلية تم لعله وأنصاره لو لا خدعة المصاحف المشهورة^(١) فاضطر إلى قبول التحكيم نزولاً عند رغبة القراء وهم كثرة أصحابه ، كما اضطر إلى قبول أبي موسى الأشعري حكمهاً عنه ، ولم يكن من المتعمسين لتولي علي الخلافة ، في حين اختار جماعة معاوية الذاهية عمرو بن العاص .

وكان قبول التحكيم نصراً مياميًّا لمعاوية لأنه جعله كفؤاً لعلي في حق المطالبة بالخلافة ، وبسبب التحكيم تعرض المسلمون لانشقاق آخر ، فقد انسليخ عن علي جماعة من أنصاره رأوا أنه كان خطئاً بقبوله التحكيم ونزعه عن حقه الشرعي ، ونادوا إلا حكم إلا لله ، وهم الذين عرفوا بالحرورية أو الخوارج ، ولم يتقه الحكمان إلى قرار يحسم الخلاف وعزم علي على استئناف قتال معاوية ولكنه اضطر أن يبدأ أولاً بالخوارج وكاد أن يستأصلهم في موقعة النهروان (٣٨هـ) . واتهز معاوية

(١) يذكر بعض الباحثين من الغربيين في خبر رفع المصاحف يوم صفين دون ايراد ما يؤيد شكهـم فيه (راجع مثلاً تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكمان العرب) ج ١/١٤٢ .

الفرصة فاستولى على مصر وأخذ يغير على نواحي العراق وأنصاره على يتكلّمون في مهاجمة بلاد الشام . وفي رمضان من عام ٤٠ هـ قتل عبد الرحمن بن ملجم عليهما في مسجد الكوفة فاستقر بمقتله الأمر المعاوية وبابنه الناس أميراً للمؤمنين بإيلياه ، واستطاع إغراء الحسن بن علي بالتنازل عن الخلافة ، ونقل حاضرة الخلافة إلى دمشق حيث انصاره الذين يعتمد عليهم . وكان حكمه فاتحة عهد ملكي أو أتوغرطي يتوارث فيه الحكم الأبناء عن الآباء ، خلافاً لما كان عليه الأمر من قبل ، واستعمال معاوية بلياقته السياسية في اكتساب قلوب رعيته وأغرى الطامحين بالخلافة بما أقدمهم عن منازعاته بانتظار صدوره الأمر إليهم بعد وفاته . فلم تظهر طوال مدة حكمه أية معارضة جادة . وقد ندب للخوارج الذين ثاروا عليه ، ولم تكن شوكتهم قد قويت بعد ، من أمعن فيهم قتلاً وبطشأ ، وكان لزياد وابنه عبد الله اليد الطولى في القضاء على ثورات الشراة في عهده .

وهذا الهدوء النسبي أتاح المعاوية أن ينصرف إلى توسيع رقعة مملكته شرقاً وإلى غزو بلاد الروم والتغلب في ديارهم . وقبيل وفاته وجه همه إلى جعل الحكم ورائحته في الأسرة الأموية ، أسوة بامبراطورية الروم ، فأخذ يستعين زعماء القبائل ويدعوهم إلى تأييده في تولية عهده ابنه يزيد . وتم له ما أراد فلم يختلف عن البيعة إلا خمسة : الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر . وحين دنت منيته أوصى ابنه يزيد وصيحة تدل على بعد نظره السياسي وتبيّن ليزيد الخطة التي ينبغي له أن يتّبعها بعد وفاة أبيه ، وأننا أثبتنا هنا لقيمتها في بيان ما كان عليه معاوية من بعد نظر سياسي وخبرة بذفوس الناس وأساليب معاملتهم قال : « انظر أهل الحجاز فإنهم أصلُك فأكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب . وانظر أهل العراق فإن مألك أن تعزل عنهم كل يوم طملاً فافعل ، فإنْ عزل عامل أحب إليك من أن تُشهر عليك مائة ألف ميف . وانظر أهل الشام فليكونوا بطاشك وعيشك ، فإن نايك شيء من عدوك فاتصر بهم ، فإذا أصبهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم فإن أقاموا بغير بلادهم أخذوا

غير أخلاقهم . وإنني لست أخاف من قريش إلا ثلاثة : حسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير . وأما ابن عمر فرجل قد وقده الدين فليس ملتمساً شيئاً بذلك . وأما الحسين بن علي فإنه خفيف وأرجو أن يكفيكه الله بن قتل أباه وخذل أخيه ، وإن له رحمة ماسة وجهاً عظيماً وقرابة من محمد ﷺ ولا أظن أهل العراق تاركية حتى يخرجوه ، فإن قدرت عليه فاصفح عنه فإني لو أني صاحبه عفت عنه . وأما ابن الزبير فإنه خبصب فإذا شخص لك فالبدل إلا أن يلتئم بذلك صلحاً فإن قبل فافعل واجتنب دماء قومك ما استطعت^(١) .

وقد تحقق ما توقعه معاوية فما كاد يزيد ينهض بالأمر حتى ثار عليه من كانوا يتوقعون صدوره الخلافة إليهم بعد وفاة معاوية : أبي ابن الزبير مبايعة يزيد وعاد بالبيت الحرام والتف حوله من كان هو لهم معه ، وكذلك امتنع الحسين بن علي وتهيا المسير إلى الكوفة تلبية لدعوة أهله ، ولم يلبث الخوارج أن جمعوا شملهم وعادوا إلى منادأة بني أمية . ومنذ ذلك الحين ظهرت حركة معارضة عنيفة لحكم بني أمية استمرت طوال العصر الأموي وكانت مرات متعددة أن تقوض صرح الحكم الأموي واستطاعت آخر الأمر أن تودي بالدولة الأموية لتحمل ملتها دولة بني العباس .

اقترن ظهور حركة المعارضية بحركة خطابية قوية نشطة ، وشارك خطباء كل فريق في نصرة جماعتهم مشاركة فعالة ، ونستشف طابع الحكم الأموي القائم على القوة من خطبة يزيد بن المقنع يوم اجتماع القوم لبيعة يزيد : « أمير المؤمنين هذا - وأشار إلى معاوية .. ، فإن مات فهذا - وأشار إلى يزيد - ، فإن أبي فهذا ، وأشار بيده إلى سيفه . » فقال له معاوية : أنت سيد الخطباء^(٢) .

ثانياً : أبرز الأحداث الداخلية زمن بني أمية وأثرها في الخطابة :

(أ) ثورة ابن الزبير ٦١ - ٧٣ هـ

كان عبد الله بن الزبير أحد الذين امتنعوا عن مبايعة يزيد ، وقد غادر المدينة

(١) تاريخ الطبرى ٤/٤٣٨ . والوصية رواية أخرى ذكرت في نفس الموضوع .

(٢) البيان والتبيان ١/٣٠٠ .

وعاد إلى بيت الحرام وسمى نفسه «العاشر». وكان معاوية قد توقع أن يقف ابن الزبير موقفه هذا من يزيد وأوصى ابنه بأن يأخذ بالعنف والشدة. ولم يكن ابن الزبير ليطمع أن تكون له الخلافة والحسين على قيد الحياة. فكان ، طوال إقامة الحسين بمكة ، يلازم المسجد مظهراً الانصراف إلى الصلاة والعبادة ، وهو في الوقت نفسه يجمع حوله خاصته وأنصاره ويترقب الأحداث متظاهراً الفرصة المواتية . وما إن بلغه مقتل الحسين وخذلان أهل الكوفة إياه حتى بادر إلى خلم يزيد وإعلان خلافه عليه (٦١هـ) ، وخطب في أهل مكة خطبة مشهورة نعى فيها حسيناً وعاب خذليه من أهل العراق ، وقد علم أنه لم يبق أحد ينazuه الخلافة بعد مقتل الحسين ، فدعا إلى نفسه فبأيهه أهل مكة . وأنفذ إليه يزيد جيشاً عليه مسلم بن عقبة فمضى هذا أولاً إلى المدينة ، وكانت قد خلعت طاعة يزيد وباءت عبد الله بن حنظلة الغسيل ، فشكل ابن عقبة باهلاها شر نكال في وقعة الحرة المشهورة (٦٣هـ). ثم توجه إلى مكة وتوفي وهو في طريقه إليها فتولى القيادة حصين بن ذير وحاصر مكة أربعة وستين يوماً ورمي الكعبة بالحجانيق . وقد شارك الخوارج تحت قيادة نجدة بن عامر الحنفي في الدفاع عن بيت الله الحرام إلى جانب ابن الزبير . وأنهى الحصار جاء فني يزيد (٦٤هـ) فانصرف جيش الشام عن مكة . واتهزم ابن الزبير ما وقع من اختلاف القوم في الشام والعراق أثر وفاة يزيد فمد سلطانه على الحجاز والعراق وبأيهه أكثر أهل الشام وكاد مروان بن الحكم يكون رسول أهل الشام لبني أمية لو لا أن شاه عن ذلك عبيد الله بن زياد وأنصار بني أمية من الكلبيين . والحق أن ابن الزبير كان يفتقر إلى الكثير من مؤهلات النجاح السياسي ولم يكن له دماء بني أمية ولا خبرتهم السياسية . وكان من أبرز أخطائه السياسية إخراجه بني أمية من الحجاز إلى الشام فسرعان ما التأم شملهم والتلف حولهم أنصارهم ولا سيما قبيلة كلب اليمانية - أصحاب معاوية - واستطاعوا دحر القيسيين أنصار ابن الزبير في موقعة مرج راهط المشهورة (٦٤هـ) . ومنذ تلك المهزيمة أخذ سلطان ابن الزبير يتقلص شيئاً ، واستطاع عبد الملك السياسي الحنك أن يقضي على حركه ابن الزبير بادئاً بضم بني العراق ، وكان هذا قد فرغ من القضاء على المختار وأنصاره ، فتوجه لقتاله

بنفسه (٧١ هـ) وقتله فدخل أهل العراق في طاعته ثم وجه الحجاج لقتال عبد الله بن الزبير فحاصر مكة وضيق الخناق على ابن الزبير الذي أخذ ينفصل عنه أنصاره، وأخيراً بُرِزَ ابن الزبير فقاتل جيش الحجاج حتى قُتل (٧٣ هـ) وبقتله قضى على الحزب الزبيري الذي لم تقم له قائمة بعد ذلك.

وكان أشهر الخطباء الذين ظهروا إبان هذه الثورة عبد الله بن الزبير نفسه وله خطب جيدة قالها في مناسبات شتى لملأ أجودها خطبته يوم بلغه نعي أخيه وقد ذكر فيها ما تركه في نفسه قُتل مصعب من فرح موته شهيداً وحزن لفارق الجميم حبيبه، وندد بأهل العراق، أهل الفدر والنفاق، ثم وازن بين آل الدين لا يوثون إلا قصماً بالرماح وبين بني أمية الذين لم يقتل رجل منهم يوم زحف^(١).

(ب) ثورات الشيعة

كان الحزب الشيعي يرى أنه أجر الأحزاب بتولي الحكم وأن بني أمية مفترضون قد انتزعوا الخلافة من أصحاب الحق فيها، فلكان من الطبيعي أن يحاول الشيعة استرداد حقهم السليم كلاماً أتيحت لهم الفرصة، وعيناً كانوا يجدون أنفسهم عاجزين عن مناهضة سلطان بني أمية كانوا يجهرون إلى الأخذ بالحقيقة.

وأول الثورات التي قام بها الشيعة في هذا العصر هي ثورة الحسين بن علي.

كان الحسين أقوى المرشحين لتولي الخلافة بعد وفاة معاوية، فلما ولّي يزيد رفض الحسين مبايته وخرج من المدينة إلى مكة فأرسل إليه أهل الكوفة بطلبوه إليه القدوم عليهم، فأوفد إليهم ابن عمّه مسلم بن عقيل ليتحقق من صدق دعوتهم فبايعه أكثر أهل الكوفة ولكنهم كما دعوه سرعان ما اذضوا عنه وخذلوه لما طلبهم عبيد الله بن زياد واتهى أمره بالقتل، وكان قد أرسل في أول الأمر كتاباً إلى الحسين بدعوه إلى القدوم فصح عزمه على المسير إليها، ولم يستمع إلى ناصحيه الذين أشاروا عليه بالعدول عن هذه المغامرة وخوفوه أهل الكوفة إذ خذلوا بالأمس أحدهما

(١) تاريخ الطبرى ١٥/٤ والأغاني ١٦٦/١٧.

وقتلو أباه ، وتوجه إلى الكوفة في قلة من أصحابه فوجه إليه ابن زياد عمر بن سعد بن أبي وقاص ليأتي به فإن أبي فليقاتلها ، وما تحقق الحسين من خذلان أهل الكوفة له أراد الرجوع من حيث أتي ولكن ابن زياد أبي إلا أن يوثق به ، واضطرب الحسين أن يقاتل بن معه واتهى الأمر بصرعه في كربلاء (٦١) وقتل من كان معه من آل بيته وأنصاره .

ومن الحق أن مقتل الحسين كان أبعد أثراً في تكوين حزب الشيعة وأصطباغه بالصبغة الدينية من مقتل أبيه علي . يقول بروكلان : « والحق أن ميّة الشهداء التي ماتها الحسين ، والفي لم يكن لها أي أثر سياسي ، قد عجلت في التطور الديني للشيعة ، حزب علي ، الذي أصبح فيها بعد ملتقى جموع التزاعات المناوئة للعرب » (١) ، ولو كان ليزيد بعد نظر أبيه السياسي لما أقدم على قتل الحسين الذي خلف في قلوب المسلمين الحزن لمصرعه والخذلان على قاتيه ، ولا سيما في قلوب أهل الكوفة الذين اعتبروا أنفسهم مسؤولين عن التغريب به ثم خذلانه ، وأصبحت بيئة الكوفة منذ ذلك الحين الموطن الرئيسي للحزب الشيعي ، ومنها كان أنصاره يخرجون ، كلما منحت الفرصة ، لقتال بني أمية طلباً بثار شهيد كربلاء . وكان مما أعاد على نجاح الدعوة العباسية فيما بعد أنها انخدلت لنفسها صفة المطالب بدم الحسين وزيد ومحبي وساور قتلى البيت العلوي .

وأول الحركات الشيعية التي أعقبت مقتل الحسين حركة التوابين بالكوفة ، فإن الذين خذلوا حسيناً أدر كفهم الندم وتلاوموا ثم اتعدوا الخروج وبابعوا شيخ الشيعة بالكوفة سليمان بن صرد ، وكان ابن زياد قد فر إلى الشام حين ظهر أمر ابن الزبير بالعراق وثارت الفتنة القبلية بالمقدمة . وقد رفض التوابون أن يتضمن لهم جيش ابن الزبير ليقاتلوا معه جيش الشام ، واستطاع المختار أن يستميل طائفة من الشيعة إلى صفه وتوجه سائرهم مع ابن صرد لقتال أهل الشام ، وكان هؤلاء بفوقهم عدداً وعليهم الحسين بن غير . وفي معركة عين الوردة انتصر جيش بني أمية وقتل

(١) بروكلان ، تاريخ الشعوب الإسلامية (المغرب) ١٥٤/١ .

ابن حميد وأكثر أصحابه (٦٥هـ) ، وكان فيهم نخبة من القراء والنساك ، ورجع كل التوابين فانضم إلى المختار .

كان المختار بن أبي عبيد الثقفي يتمتع بذكاء ودهاء ومهارة حربية جديرة بالإعجاب ، وكان اتهازياً ذا طموح بعيد ، فلما رأى اختلاف القوم على الخلافة وما ساد الأنصار من الاضطراب بعد موت يزيد حدثه نفسه بأن يجعل من الطلب بدم الحسين وسيلة لتحقيق مطامعه البعيدة . وكان ابن زياد قد سجنه لانصاره لأن عقيل وظل في السجن حتى شفع له صهره عبد الله بن عمر عند يزيد فأمر ابن زياد بإطلاق سراحه فأطلقه وتوعده إن لم يرحل عن الكوفة ، فتوجه إلى الحجاز وأظهر الولاء لابن الزبير وقاتل معه يسالة عظيمة جيش أهل الشام . ولما لم يجد عبد ابن الزبير ما يرضي طموحه عاد إلى الكوفة وأخذ يدعوه لنفسه زاعماً أنه موافق من قبل محمد بن الحنفية . فمات إليه طائفة كبيرة من الشيعة ، فما استغفل أمره سجنه والي الكوفة من قبل ابن الزبير ، عبد الله بن يزيد ، ثم شفع له ابن عمر ثانية . فأطلق من سجنه بعد أن ضنه جماعة من أصحابه . وما لبث أن عاد يبعث دعوته وتكلّر أنصاره ولا سيما بعد إخفاق حركة التوابين إذ انضم إليه ماء الشيعة واستطاع أن يستميل إليه كذلك الموالي والعيدي ، ثم استعان بالخديعة في اجتذاب إبراهيم بن الأشتر القائد البارع إلى دعوته فاشتدت شوكته . ولكي يؤثر في أنصاره ولا سيما الموالي منهم كان يلجمأ إلى ضروب من الكهانة والكلام المسجع ، ثم اتخذ بعدئذ كرميئاً نسب إليه القدسية وإثبات المجازات . وقد استطاع أن يغلب على الكوفة ، وكاد أن يستولي على المدينة لو لا يقظة ابن الزبير ، ثم وجه جيشاً بقيادة ابن الأشتر لقتال عبد الله بن زياد وأمسك بموقة خازر عن مقتل ابن زياد وهزيمة جيش الشام (٦٧هـ) .

ولما قدم مصعب بن الزبير البصرة واليها عليها وجه همه للقضاء على المختار وانضم إليه الناقون على المختار من الكوفيين ، وكان سبب تقوتهم أنه أثار عليهم عبيدهم وجعل لهؤلاء حظاً من القيمة فساواهم بالعرب ، وبمد قتال شديد اضطر المختار أن

بلغًا إلى قلعة الكوفة وما طال عليه الحصار وأصحابه الجهد برب لقتال جيش مصعب في قلة من أصحابه وقتل (٦٧ هـ) ، وأعمل مصعب السيف في شقيقه ، ولا سيما الموالى والمعبد ، فقتل منهم خلقاً كثيراً ، ودخل ابن الأشتر ، وهو يومئذ على الموصل ، في طاعة ابن الزبير .

ويرى بعض المستشرقين أن المختار كان مخلصاً في دعوته وفي انتشاره للشيعة ، على الرغم من موقفه الشائن من الحسن يوم بجاء إلى المدائن كما يرون أن حركة المختار وما انطوت عليه من مساواة الموالى بالعرب قد أتاحت الإسلام أن ينتشر فيها بعد بين الشعوب غير العربية ، وأن يتحول من حركة عربية خاصة إلى مدينة عالمية^(١) . ويبدو لي أن هؤلاء المستشرقين قد غلوا في تقدير إخلاص المختار وأثر دعوته في الإسلام وانتشاره . ولم يكن المختار في الواقع مخلصاً إلا لنفسه . وفي تاريخ الطبرى كلام على لسان المختار أجاب به أحد أنصاره حين أيقن بأنه هالك لا محالة ، وهو يصور لنا حقيقة نفسية المختار وتجده عن الإخلاص الذي ينسبه إليه هؤلاء المستشرقون فهو يقول مخاطباً السائب بن مالك : « ويحك ، أحمق أنت ، إنما أنا رجل من العرب رأيت ابن الزبير انتزى على الحجاز ، ورأيت نجدة انتزى على اليمامة ، ومردان على الشام فلم أكن دون أحد من رجال العرب ، فأخذت هذه البلاد فكفت كأحدهم ، إلا أنني قد طلبت بثأر أهل بيت النبي ﷺ إذ نامت عنه العرب ... »^(٢) ، إلا أن من المستشرقين من شك في صحة هذا الخبر الذي رواه الطبرى واستبعد صدور هذا الكلام عن المختار^(٣) .

وقد تلت حركة المختار فترة هدوء غير قصيرة ، إذ آثر جل الشيعة الأخذ بالتقية خوفاً من بطش أمية فلم يجنحوا إلى المعارضة الحربية حتى كانت ثورة زيد ابن علي بن الحسين (١٤١ هـ) . وكان زيد يجمع إلى الفقه بالدين الفصاحة

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية ج ٣/٧٦٥ من الطبعة الفرنسية .

(٢) تاريخ الطبرى ٤/٧٥٠ .

(٣) ولهوزن : الخوارج والشيعة . ترجمة عبد الرحمن بدوي ص ٢٣٧ .

والمسن والشجاعية ، وقد شهد له هشام بن عبد الملك بقوة الحجة ورأى فيه « رجلاً جَدِلاً لَسِنَا خلِيقاً لِتَمْوِيهِ الْكَلَامَ وصَوْغَهُ واجْتِرَارُ الرِّجَالِ بِحَلَاوةِ لسانِهِ وبِكُثْرَةِ مُخَارِجِهِ في حِجَّجِهِ »^(١) . وقد تلمذ زيد لواصل بن عطاء شيخ المعتزلة ، وتأثر بتعاليمه فكان معتقداً في تشبيهه ، فلما دعا إلى نفسه لم يرض به غلة الإمامية وقالوا إن إمامهم جعفر الصادق — ابن محمد الباقر أخي زيد ، وكان زيد لا يرى التقية ويشرط في الإمام الخروج مخالفًا بذلك جهور الإمامية . ويبدو أن زيداً كان أبرز شخصية في الشيعة في عصره حتى إن جعفرًا الصادق قد حدث أتباعه على مبادئه ، إذا صع مارواه الطبرى^(٢) . وذكر أبو الفرج في مقاتل الطالبين أن المرجئة وأهل النسك كانوا لا يهدلون بزيد أحداً وأن جعفر بن محمد كان يسمى بركاب زيد ويسمى ثيابه على السرج وكذلك كان يفعل عبد الله بن الحسن على الرغم من اختلافها في شأن صدقات علي^(٣) . ويظهر أن زيداً كان يحدث نفسه بطلب الخلافة قبل مجاهرته بالخلع ، فقد رروا أن زيداً لما وفد على هشام قال له « لقد بلغني يا زيد أنك تذكر الخلافة وتتهاها ، ولست هناك وأنت ابن أمّة (كانت أمّه أمّ ولد سندية هدية من المختار) فقام زيد : « فقد كان إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ابن أمّة واسحق عليه السلام ابن حرّة ، فأنخرج الله من صلب إسماعيل خير ولد آدم محمد عليه السلام ». فقال له : قم . قال : إذن لا تزافي إلا حيث تكره »^(٤) .

فقد كان زيد إذن يحدث نفسه بالثورة ، وسُنحت الفرصة حين أرمى هشام إلى يوسف بن عمر ، والي العراق ، للنظر فيما ادّعاه خالد القسري من أنه أودع زيداً وجماعة آخرين أموالاً كان ابن عمر يطالبه بأدائها . فلما تحقق ابن عمر من كذب خالد أطلقهم . وسواء أصحت هذه القصة أم لا فإن زيداً قدم الكوفة وأقام بها ولم يعد إلى المدينة ، فكتب ابن عمر ، وهو يومئذ بالخيروة ، إلى عامله

(١) تاريخ الطبرى ٤٨٩/٤ .

(٢) المصدر السابق ٤٩٨/٥ .

(٣) مقاتل الطالبين ص ١٢٨ .

(٤) الطبرى ٤٨٦/٥ ، والبيان والتبيين ٣١٠/١ .

على الكوفة يأمره بإذ عاج زيد عنها ، وكانت الشيعة قد أخذت تختلف إياه وقبابنه حتى صع عزمه على الخروج ولم يصبح إلى تحذير من حذر أهل الكوفة ، وقد غدروا من قبل بعلي والحسن والحسين . وما علم ابن عمر بعزمهم وهم بالقبض عليه اضطر إلى التحجيل بالخروج قبل الموعد المتفق عليه ووقع ما كان متظراً فقد خذله أهل الكوفة ولم ينصره إلا نفر دون الثلاثمائة ، وما كان إلا قتال يسير بالكتامة حتى أصيب زيد بسهم وتوفي (١٢٢ هـ) واستخرج ابن عمر جثته وصلبه . وقد نجا ابنه يحيى من القتل ولجأ إلى خراسان ، ثم خرج في زمان الوليد بن زيد واتهى الأمر بقتله أيضاً (١٢٥ هـ) .

وقد كان لثورة زيد بن علي على الرغم من سرعة إخراجه ، ثم لم ينته وصلبه وهو عريان ، ثم مقتل ابنه يحيى بعده ، أثر بالغ في تفاقم السخط على بني أمية وتکاثر الشيعة ، وكافت هذه النقطة من الأسباب التي عجلت بهنهاي الحکم الأموي فقد ظهر أبو مسلم الخراصي بظهور المطالب بدم زيد وابنه .

وفي زمن مروان بن محمد تکثر الاختارات وتسود الفوضى وكان من ثاروا عليه عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب المعروف بالهاشمي وقد دعا إلى نفسه بالکوفة أيضاً (١٢٧ هـ) وتابعه عدد من الشيعة إلا أن والي العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز استطاع أن يهزمه ويزعجه عن العراق فلتجأ إلى فارس فوجه إليه ابن عمر معن بن زائدة وهزمها فلحق بخراسان وكان أبو مسلم قد ظهر بها نفسه ومات في سجنه مقتولاً على الأرجح .

* * *

(٢) ثورات الخوارج :

لم تؤد معركة المروان إلى استئصال الخوارج والقضاء على حركتهم ، بل على الأقل أدى إلى كثرة أتباعهم وانتشار دعوتهم . ذلك أن انتشاراً لهم على هذا النحو أثار إعجاب الناس بهم وعطفهم عليهم ، فضلاً عن أن مبدأهم الذي يسوبي بين الخطابة السياسية م - ٢

جميع المسلمين في حق تولي الخلافة كان خليقاً باستهالة جمهور كبير من الأنصار . وكان كثير من القبائل القوية الطامحة في الخلافة كنعمان والأزد ، تنفس على قريش استئثارها بالأمر ولا تقر بمبدأ حصر الخلافة في قريش أو في أسرة منها . فقد تضافرت إذن العوامل السياسية والقبلية والدينية في دعم الحركة الخارجية وتوسيع نطاقها . وكانت النبروان فاتحة م الواقع عديدة استشهد فيها الخوارج دفاعاً عن عقيدتهم وكان مقتل علي أول رد فعل لهذه المعركة ، ثم هدأت حركة الخوارج فترة من الزمن استقرت فيها عقيدتهم واطمأنوا فيها إلى صواب دعوتهم وضلال مخالفهم . وكان معاوية قد ولـى المغيرة بن شعبـة على الكوفـة فنشطـت دعـوة الخوارـج في عهـده لأنـه كان يـؤثـر العـافية وـلا يـأخذـهم بالـشـدة ، وـلـما أـحس بـتـزاـيد خـطـارـهم سـجنـ من أـدرـ كـه مـنـهـم وـخـرجـ عـلـيـهـ مـسـأـرـهـم وـقـدـ بـاـيـعـواـ الـمـسـتـورـدـ بـنـ عـلـفـةـ . فـنـدـبـ المـغـيرـةـ الـقـومـ لـقتـالـهـ فـإـذـاـ بـالـشـيـةـ يـكـوـنـونـ أـشـدـ النـاسـ حـمـاسـةـ لـقـتـالـهـمـ ، وـتـولـيـ قـيـادـهـمـ مـعـقلـ بـنـ قـيسـ وـبـعـدـ مـوـاقـعـ عـدـيـدةـ هـزـمتـ الـخـوارـجـ وـقـتـلـ زـعـيمـهـ الـمـسـتـورـدـ كـاـ قـتـلـ قـائـدـ الـكـوـفـيـنـ مـعـقلـ بـنـ قـيسـ (٤٣٥) .

ولما ولی زيد البصرة والكوفة اشتقد على الخوارج وأخمد حركاتهم . وكان زيد يتوعد الناس إن لم يكفوه أمر الخوارج فكانوا يمادرون إلى القضاء عليهم خوفاً منه ، ومات زيد عام ٥٣ هـ وقد استتب الأمر لبني أمية في العراق .

وفي عام ٥٨ هـ اجتمع الخوارج واتفقوا على الخروج وباءوا حيyan بن ظبيان ، ولكن حركتهم فُعِّلت بسهولة لقلة عددهم وقضى عليهم جيش عبد الرحمن بن أم الحكيم والي الكوفة ، ثم وجه عبيد الله بن زياد والي البصرة همه إلى القضاء على من بصره من الخوارج فقتل كثيراً منهم إما صبراً وإما حرباً ، ومن قتلوا صبراً عروة بن أذية ، وخرج أخوه أبو بلال مرداس بن أذية بالأهواز في قلة من أصحابه واستطاع أول الأمر أن يهزم جيشاً وجهه إليه ابن زياد ولكنه مات قبل وسائل أصحابه في معركة لاحقة .

ولائز وفاة معاوية ساد الاختطاب أكثر الأوصياء فافتهر الخوارج الفرصة وتهيئوا

للرثوب على بني أمية . وكانت لهم أول الأمر مشاركة مجده في الدفاع عن البيت الحرام مع ابن الزبير ، يوم حاصره جيش يزيد بحكة ، ثم فارقوا ابن الزبير حين أخفقوها في استئصاله إلى ميدانهم فصارت طائفه منهم إلى البامة وقد أجمع هؤلاء بعد على نجدة بن عامر الحنفي ، وصارت طائفه أخرى إلى البصرة .

ولم يحفظ الخوارج بوحدة كلمتهم طويلا فسرعان ما وقع الاختلاف بينهم حول بعض الأمور التي أصبحت فيها بعد نواة للفقه الخارجي ، ويدرك الطبرى أن اختلاف الخوارج كان عام ٦٤ هـ بعد مفارقتهم لابن الزبير . ولكن ثمة أخباراً تدل على أن اختلافهم سابق لهذا التاريخ (١) ، وربما تحددت فرقهم تحديداً واضحاً منذ هذا العام ، فقد وقع الاختلاف بين نافع بن الأزرق وبين عبد الله بن إياض وعبد الله بن صفار في حكمهم على الخالفين لرأي الخوارج ، ونطوف نافع فعدهم كالشركين في دين الله وأباح استعراضهم (٢) وقتل أطعاليهم وأنسائهم . وخالفه في رأيه هذا ابن إياض وابن صفار ، وتلا هذا انتقادات أخرى كان لها أثرها في إضاف شوكة الخوارج وأثارت للأمويين أن يقضوا على ثوراتهم ، ولو لا انتقاداتهم لكان لهم شأن آخر .

وقد قام الأزرقة المتطارفون بأعنف الثورات وأجرأوا الهجمات ، ولا سيما أنهم كانوا لا يحيزون القعود عن القتال ، كما أنهم كانوا لا يتورعون عن قتل الأطفال وبقر بطون الحبالي . وقد بدأت مواجهتهم يوم « دولاب » وكان النصر لهم فيه

(١) يظهر مما ذكره البرد في الكامل (١٠٥/٢) أن أصول مذاهب الخوارج واحتلافهم في بعض الأمور ترجع إلى أول عهدهم ، فهو يذكر أن الصفرية قد بايعت عبد الله بن وهب الراسبي وخلعت معدان الإيادى لأن هذا تبراً من القعد في قوله :

سلام على من بايم الله شارباً وليس على الحزب المقيم سلام
وهذا يرجع أنهم سموا بالصفرية لصفة ألوانهم ، لا نسبة لابن صفار ، وربما أريده بهم عامة الخوارج أول الأمر ثم افترقوا بعد . وما يدل على قدم اختلافهم أن قریب بن سرة وزحافا الطائي لما خرجا في أيام زياد وأخذنا يستعرضان الناس أنكرا أبو بلل عملهما وتبراً منها .
(الكامن للبرد ١٠٣/٢)

(٢) يراد بالاستعراض قتل كل من كان يعرض لهم من مخالفتهم .

ولكن قتل يومئذ زعيمهم نافع بن الأزرق (٦٥هـ) ، فاتدبه لهم القائد الماهر المهلب بن أبي صفرة واستطاع أن يرد جموعهم عن البصرة وتجبره لقتالهم فلم يعرف الأزارقة خصاًً أعنف منه قتالاً ولا أربع تدبيرًا ومكيدة . وكانت طريقة الخوارج في الهجوم أن يغروا غارات مفاجئة سرية ويشزوا غرة القوم ثم ينصرفوا مولين ، فلم يتع لهم المهلب أن يصيروا غرة منه واستطاع أن يهزهم هزيمة منكرة بسللي وسلبي وانهزمت فلوطهم إلى كرمان وأصبهان . ولما ولـي المهلب الموصـل جمعوا صفوفهم ووـلـوا عليهم الزبير بن المحـوز واتجهوا نحو الكوفـة فـصـدهـمـ عنـهاـ جـيشـ منـ أـهـلـهاـ ثـمـ قـتـلـ زـعـيمـهـ فـيـ وـقـةـ بـأـصـبـهـانـ فـيـابـعـواـ قـطـريـ بـنـ الفـجـاءـ ، وـهـوـ أـشـهـرـ زـعـيمـ الأـزارـقةـ . ولـما تـفاـقـمـ خـطـرـهـمـ نـدـبـهـمـ مـصـبـ بـنـ الزـبـيرـ المـهـلـبـ ، خـصـمـهـمـ العـيـدـ ، فـتـوجـهـ نـحـوـهـمـ فـيـ جـيشـ منـ أـهـلـ الـبـصـرـةـ وـجـرتـ بـيـنـ الـجـانـبـيـنـ وـقـائـعـ عـنـيفـةـ وـخـاصـةـ بـسـوـلـافـ ثـمـ جـاءـ نـعـيـ مـصـبـ وـالـمـهـلـبـ بـقـاتـلـ الـأـزارـقةـ فـيـابـعـ النـاسـ لـعـبـدـ الـلـكـ ، وـلـمـ يـحـلـهـمـ مـقـتـلـ مـصـبـ عـلـىـ مـحـالـفـ الـأـزارـقةـ عـلـىـ بـنـيـ أـمـيـةـ لـأـنـ تـنـاطـرـ فـدـهـمـ كـانـ خـلـيقـاـ بـصـرـفـ جـهـورـ الـمـسـلـمـيـنـ عـنـهـمـ وـإـشـارـهـمـ مـذـهـبـ الـجـمـاعـةـ .

وفي الوقت نفسه علب على البحرين الخارجـيـ أبو فـدـيكـ وـقـتـلـ نـجـدةـ بـنـ عـامـرـ واستطاع أول الأمر أن يهزم جـيشـاـ منـ أـهـلـ الـبـصـرـةـ ثـمـ هـزـمـهـ جـيشـ الـعـراـقـيـنـ فـقـتـلـ (٧٣هـ) .

وقدم الحجاج العراق واليـاـ عـلـيـهاـ وـأـهـلـهاـ مشـغـولـونـ بـقـاتـلـ الـأـزارـقةـ تـحـتـ لـوـاءـ المـهـلـبـ . وفي عـهـدـهـ جـرتـ أـعـنـفـ الـوـقـائـعـ معـ الـخـوارـجـ ، وـظـهـرـ أـشـهـرـ زـعـمـائـهـمـ وـاجـتـمـعـ عـلـىـ قـاتـلـ الـحـجـاجـ الـأـزارـقةـ وـالـصـفـرـيـةـ . أما الـأـزارـقةـ فقدـ عـجـلـ بـالـقـضـاءـ عـلـىـ ثـورـاتـهـمـ ماـ وـقـعـ بـيـنـهـمـ مـنـ اـخـتـلـافـ (٧٧هـ) وـانـحـيـازـ عـامـتـهـمـ عـنـ قـطـريـ وـمـبـاـعـتـهـمـ عـبـدـ رـبـهـ ، وـهـوـ مـنـ الـمـوـالـيـ . وـبـعـدـ أـنـ اـقـتـلـواـ وـأـوـهـنـ بـعـضـهـمـ بـعـضـاـ عـادـ المـهـلـبـ إـلـىـ قـاتـلـهـمـ وـتـغلـبـ عـلـىـ عـبـدـ رـبـهـ وـقـتـلـهـ وـجـلـ أـصـحـابـهـ . وـأـنـفـذـ الـحـجـاجـ جـيشـاـ منـ أـهـلـ الشـامـ وـالـكـوـفـةـ عـلـيـهـ سـفـيـانـ بـنـ الـأـبـرـدـ ، وـكـانـ قدـ فـرـغـ مـنـ أـمـرـ شـبـيـبـ ، فـلـحـقـ بـقـطـريـ فـيـ طـبـرـيـانـ وـدارـتـ الدـائـرـةـ عـلـىـ الـأـزارـقةـ وـقـتـلـ زـعـيمـهـ قـطـريـ (٧٧هـ) ، ثـمـ قـضـىـ جـيشـ اـبـنـ

الأبرد على آخر جيش الأزارقة وقتل قائدتهم عبيدة بن هلال وبذلك انتهى أمر هذه الفرقة . وكان عنفهم ونطافهم ونحرهم القعود عن القتال سبباً في سرعة القضاء عليهم واستئصالهم جميعاً .

أما الصفرية فقد تحركت في زمن الحجاج أيضاً تحت زعامة صالح بن مسرح الشيعي وكان جمل أصحابه من النساء والزهاد ، وما قدموا من الجزيرة إلى العراق وجه إليهم الحجاج جيشاً من أهل الكوفة وإنجلت الموقعة عن مقتل ابن مسرح (٧٦ هـ) فما يسع الصفرية شبيب بن يزيد . وقد استطاع شبيب أن يلتقي الذعر في قلوب أهل العراق ، على قلة أنصاره ، وتحدى هو وزوجه غزالة الحجاج في معقله فدخل الكوفة والحجاج فيها لا يجرؤ على الخروج إليه . وفي حين شغل أهل البصرة بقتال الأزارقة انصرف أهل الكوفة إلى قتال شبيب وكان الحجاج لا يوجه إليه جيشاً إلا هزمه وارتدى قلوه مذعورة هلة . وإن من يقرأ أخبار شبيب ليدرك كم العجب من انتصاره المتصل ، وهو في قلة من العدد ، على جيوش أهل الكوفة المكثفة الماجبة ، ومرد ذلك كله إلى قوة عقيدة الخوارج التي جعلتهم يستهينون بالكتائب والجحافل ، ويستمدبون لقاء الموت ويمدون الاستشهاد في ساح الوغى غاية ما يصبوون إليه . وقد خاطط الذعر قلوب أهل الكوفة في وفائهم مع شبيب فكانوا إذا ندبوا لقتاله أيقنوا بمقاتلته . وقد وصف أحد قواد الحجاج جماعة شبيب لابن الأشعث حين وجهه الحجاج لقتاله بقوله : « يا بن عم ، إنك تسير إلى فرمان العرب ، وأبناء الحرب ، وأحلاس الخيل والله لكم لهم خلقوا من ضلوعها ، ثم بُنوا على ظهورها ، ثم هم أسد الأجياد الفارس منهم أشد من مائة .. »^(١) . وقد قتل شبيب في مواجهة نخبة من قواد الحجاج وزعماء العراقيين منهم : زائدة بن قدامة وعثمان بن قطن وعتاب بن ورقان وزهرة بن حوية وفر عبد الرحمن ابن الأشعث في إحدى المواقع وقد كان يقتل . واضطرب الحجاج آخر الأمر أن يستعين بأهل الشام فتبتوأ لشبيب يوم هاجم الكوفة المرة الثانية وقتلت يومئذ غزالة

زوجه وأخوه مصاد ، واتهى أمر شبيب أخيراً بفرقه في دجبل يوم الحسر (٧٧) أو ٧٨ هـ) بعد أن أشاع الوعب في أرجاء العراق ، وكانت شجاعته الخارقة سبباً في أن نسبت حوله طائفية من الأساطير روتها كتب التاريخ (١) . وهكذا وفق الحجاج في القضاء على أعنف الثورات التي قام بها الأزرقة والصفرية وكانت شوكة في جانب الدولة الأموية .

ولم تقم للخوارج بعد ذلك قائمة حتى أواخر العصر الأموي ، بامتنانه بعض ثورات أخمدت كلها كثورة شوذب الخارجي في اليمن زمن عمر بن عبد العزيز ، وثورة عباد الرعيني باليمن في عهد هشام ، وثورة بهلول بن بشر في العراق على خالد بن عبد الله القسري في خلافة هشام أيضاً (١١٩ هـ) ، وقد استطاع هذا الخارجي أن يهزم جيوشاً عديدة وجهت إليه من الشام والعراق ، وروي لنا أنه قاتل في أصحابه السبعين جيشاً عدته عشرون ألفاً وظل يقاتل حتى قتل ومن معه . ولما آنس الخوارج ما ألم بالدولة الأموية من الضعف في أواخر أيامها تجددت حركاتهم وثوراتهم وظهر من الصفرية زعيم خارجي قوي الجانب هو الضحاك بن قيس (١٢٧ هـ) وقد استطاع أن يهزم جيوش أهل الشام والعراق ويستولي على الكوفة واجتمع له من الأنصار ما لم يجتمع خارجي قبله . وبعد موافق عنيفة استطاع مروان بن محمد التغلب عليه وقتلها (١٢٨ هـ) .

ولم يكدر مروان يفرغ من الضحاك حتى ظهر خارجي آخر هو أبو حمزة موفداً من قبل عبد الله بن يحيى طالب الحق ، وقد توجه إلى الحجاز واستطاع أن يدخل مكة دون قتال ثم هزم أهل المدينة في موقعة « قديد » ودخل المدينة وخطب فيها خطبة طويلة مشهورة ، واضطر مروان أن يوجه إليه جيشاً من أهل الشام فلقيه أبو حمزة بوادي القرى وقاتل حتى قتل (١٣٠ هـ) ، وأخيراً قتل عبد الله ابن يحيى باليمن وانتهت بذلك صفحات الثورات الخارجية في عهد بنى أمية ولكن لم ينقض إلا قليل من الوقت حتى انهارت دولة بنى أمية وكانت ثورات الخوارج من أبرز الأسباب التي أدت إلى سرعة انهيارها .

(١) اقرأ مثلاً جانباً منها في الجزء الخامس من تاريخ الطبراني ص ١٠٤ - ١٠٥ .

وبظهور من استعراضنا الموجز لثورات الخوارج أن الذين قاموا بأعنف التورات هم الأزرقة والصفرية ولذلك كادوا يستأصلون في هذا العصر ولم يبق أحد من أتباعهم فيها بعد أما الإباضية فلم يكن لهم شأن يذكر إلا في أواخر عصر بني أمية لأن مذهبهم معتدل لا يدعوا إلى الثورة ولا يكفر القعد، وكان هذا سبب بقائهم وعدم استئصالهم، ولم يزل مذهبهم قائماً حتى اليوم في عمان وطرابلس والجزائر وقد وجد في العصر العباسي كثير من أتباع نجدة بن عامر فيما يروي المبرد^(١).

(د) ثورة ابن الأشعث (٨١ - ٨٥ هـ)

لم يتعرض سلطان الحجاج بالعراق خطراً أشد من خطر الفتنة التي أشعلها عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث (٨١ هـ) وقد استطاع أن يضم تحت لوائه عدداً ضخماً من الأنصار لم يجتمع لأئمي من ثاروا على بني أمية طوال مدة حكمهم. وكان الحجاج قد فرغ من إخماد ثورات الأزرقة والصفرية ودان له العراق وأخذ يهدى العدة لتجهيزه حملة إلى «رتبيل» (أو زنبيل حسب تحقيق ولهوزن) صاحب سجستان الذي كان قد أوقع بجيشه أنفذه إليه الحجاج بقيادة عبدالله بن أبي بكرة. وأعد الحجاج لقتال رتبيل جيشاً ضخماً من أهل الكوفة والبصرة بلغ عدده، فيما يروي الطبرى، أربعمائة ألفاً من المقاتلة وقد أحسن تسلیحهم وتجهيزهم. واختار لقيادة هذا الجيش العظيم الشرييف الكوفي عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي. والقارىء لنرى هذه الحملة يدركه العجب من اختيار الحجاج ابن الأشعث قائداً لهذا الجيش مع ما يكتنه له من شديد البغض حتى إن الطبرى يروي على لسان الحجاج قوله في ابن الأشعث: «ما رأيته قط إلا أردت قتله»^(٢)، وكأنما كان يسخطه عليه شدة غروره واعتداده بنفسه ونسبه. ويبدو أن الحجاج لم يكن يتوقع خلاف ابن الأشعث له فقد حذرته عم عبد الرحمن من ابن أخيه فلم يحفل بتحذيره ورأه أجهن من أن يخرج عليه. وكان الحجاج مخطئاً في تقديره فإن الأشعث لم يكن

(١) الكامل ١١٨/٢.

(٢) تاريخ الطبرى ١٤٠/٥.

أهلاً لائل هذه الثقة ولم يكن مخلصاً لولاته لبني أمية ، فضلاً عما فيه من غرور واعتداد وحب المرياسة ، بل إنه لم يكن من أهل الثبات في المعارك والإقدام يوم الرؤوف ، وقد أظهر في قتال شبيب من الجبن والمواعدة ما حمل الحجاج على عزله من القيادة . ومهما يكن من أمر فقد تولى ابن الأشعث قيادة هذا الجيش الضخم ومضى إلى سجستان فاستولى ، دون قتال ، على جزء كبير من بلاد رتيل ورفض مصالحته . وأثر بعده أن يترى في الوغول في البلاد خشية أن يحمل به ما حل بجيش أبي بكره من قبل ، ولكن الحجاج لم يرض عن خطته هذه ، وكان سريع الاتهام لقواده سيء النظر بولائهم ، فأرسل إلى ابن الأشعث يأمره بالتوغل في أرض الأعداء ويهدده بأن لم يفعل بتواطئة أخيه إسحاق مكانه . وشق الأمر على ابن الأشعث فاستشار أصحابه في خلع الحجاج فأجابوه إلى ذلك مسرعين ، وأحب أن ابن الأشعث كان خليقاً بأن يقوم بهذا الأمر حتى لو لم يصله كتاب الحجاج هذا . وما يلفت النظر سرعة استجابة العراقيين وأهل فارس لدعوة ابن الأشعث فما لبثوا أن خلعوا طاعة عبد الملك وأجمعوا على مبايعة عبد الرحمن بن محمد ، ومرد ذلك إلى تأصل كره العراقيين لبني أمية ونقمتهم على سياسة الحجاج خاصة ، فالتف حول ابن الأشعث جميع الناقدين على بني أمية ، ومنهم طائفـة كبيرة من القراء ، ولم يصبح ابن الأشعث إلى تحذير ابن المطلب ، وهو يومئذ على خراسان ، بل وادع رتيل وعاد بجيشه الضخم لاحتلال العراق وطرد الحجاج ، وانضم الموالى إلى ابن الأشعث لنقمتهم على الحجاج الذي فرض عليهم الجزية ، ولما بلغ الحجاج بما الفتنة أصابه الذعر وأسرع بسلامة بعد الملك وأهل الشام وسرعان ما وافته النجدات فوجها إلى ابن الأشعث . وفي أول الأمر هزم ابن الأشعث جيش أهل الشام ولكنه ما لبث أن خافت به الهزائم ولا سيما يوم الزاوية ويوم دير الجاجم ، وأخذ أنصاره ينفضون عنه . وكان الحجاج يقود جيش الشاميين بنفسه وبستعين بفصاحته في حد جنوده على الاستبسال في القتال . وأنيراً اضطر ابن الأشعث أن يلتجأ إلى رتيل ، حليفه ، الذي ما لبث أن غدر به وأسلمه لقائد جيش الحجاج فائز ابن الأشعث الاتحار بأن ألق نفسه من فوق سطح فرات (٨٥هـ) . ولا شك أن إخفاق ثورة ابن الأشعث

يرجع أول ما يرجع إلى صحف شخصية قائلها وجئنه ، ولم تكن مواده لتهلهل اقياده مثل هذه الثورة الضخمة . وقد ذهب ضحية هذه الثورة عدد كبير من أهل العراق ومنهم نخبة من القراء والزهاد والشعراء ، قتل بعضهم أثناء المعارك وقتل بعضهم الحجاج بعد المهزيمة ، ومنهم جبلة بن زهير رئيس كتيبة القراء وأبو البختري الطائي وابن أبي لميلى ، ومن قاتلهم الحجاج ابن القرية وأعى همدان ، ثم قتل بعد حين سعيد بن حمير لما ظفر به .

(٥) ثورة ابن المطلب (١٠١ - ١٠٣)

منذ أن فرغ الحجاج من فتنة ابن الأشمت لم يكن له هم إلا يزيد بن المهلب وبني المهلب . وكان يزيد والياً على خراسان، فما زال الحجاج بعد الملك يخوفه غدرهم ويتهمهم بالزبيرية حتى أباح له عزل يزيد فعزله وأمره بالقدوم عليه (٨٥هـ). وكان من تدبيره ودهائه أن ولى مكانه أول الأمر أخاه المفضل ليوقع بين بني المهلب ثم مالت أن عزل المفضل وولى خراسان قتيبة بن مسلم الباهلي ، ولم يكن الحجاج يطمئن إلا إلى ولاء من كانوا من قبيلته قيس ، وكان يتخوف أن يقوى أمر بني المهلب بخراسان فيكون منهم ما كان من ابن الأشمنت . ولم يشفع لآل المهلب حسن بلاشمهم في نصرة بني أمية فما أن قدم عليه يزيد حتى جسده وعزل إخوته عن عملهم ولحق في تعذيبهم ليؤدوا إليه ما أغرهم به من أموال .

وَحِينَ تَوَجَّهَ الْمُجَاجُ لِقَتْالِ الْأَكْرَادِ حَمَلَ مَعَهُ بَنِي الْمُهَبَّ وَلَكِنَّهُمْ أَسْتَطَاعُوا
الْفَرَارَ مِنْ حَبْسِهِمْ وَلَحِقُوا بِالشَّامِ، وَلَجَأُ يَزِيدُ إِلَى سَلِيْمَانَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ بِفَلَسْطِينِ فَأَجَارَهُ
وَأَخْذَ لَهُ الْإِمَانَ مِنْ أَخِيهِ الْوَلِيدَ. وَظَلَّ بَنُو الْمُهَبَّ فِي كَنْفِ سَلِيْمَانَ وَحْمَاهِتَهُ حَتَّى
وَفَاتَ الْوَلِيدُ (٩٦ھ)، فَلَمَّا أَفْضَى الْأَمْرُ إِلَى سَلِيْمَانَ وَلَى يَزِيدَ الْعَرَاقَ وَأَمْرَهُ باسْتَئْصَالِ
آلِ بَنِي عَقِيلٍ، لَنْقَمَتْهُ عَلَى الْمُجَاجِ الَّذِي وَافَقَ الْوَلِيدَ فِي نَزْعِ وَلَايَةِ الْعَهْدِ مِنْهُ،
وَبَعْدَ مَقْتَلِ قَتِيْبَةِ بْنِ مُسْلِمٍ بِخَرَاسَانَ وَلَى عَلَيْهَا ابْنُ الْمُهَبَّ وَظَلَّ فِيهَا حَتَّى خَلَافَةِ عُمَرِ بْنِ
عَبْدِ الْعَزِيزِ (٩٩ھ). وَكَانَ عُمَرُ يَكْرُهُ يَزِيدَ وَآلَ الْمُهَبَّ لَا فِيهِمْ مِنَ الْجِرَوْتِ
وَلَا حَتِيمَازَهُمُ الْأَمْوَالُ، فَعُزِلَ يَزِيدُ عَنِ الْخَرَاسَانَ وَحَبْسَهُ فَلَمْ يَزُلْ فِي حَبْسِ عُمَرِ حَتَّى

بلغه مرضه وخشي أن يقع في يد يزيد بن عبد الملك ، وكانت بينه وبين آل أبي عقيل مصاهرة ، ففر من محبسه ولحق بالبصرة فغلب عليها ، وحبس واليها عدي بن أرطاة ، فوجه إليه يزيد أخيه القائد الراهنية مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه العباس ابن الوليد في جيوش أهل الشام . واتي مسلمة يزيد بالعمر ولم يكن إلا قتال بسيط حتى فر أهل البصرة عن يزيد وثبت في قلة من أنصاره حتى قتل وقتله بعض إخوته (١٠٢هـ) ، وكذلك انهزم إخوه عبد الملك بن المطلب قرب الكوفة . وما زال يزيد يطارد آل المطلب حتى استأصلهم وقضى بذلك على الأسرة التي أنجحت أربع القادة وأشجع المقاتلين في العصر الاموي .

(و) الصراع بين بني أمية على الخلافة

استطاع معاوية الراهنية أن يجعل الخلافة وقفاً على بني أمية وأقام لهم ملكاً بتوارثه بعده . ولكن بني أمية أنفسهم ما لبثوا بعد وفاة معاوية الثاني أن ظهر التنازع بينهم على الخلافة ، نشب الصراع أول الأمر بين الفرع السفياني وكان يزيد مبادعة خالد بن يزيد ، والفرع المرواني وكان يجتمع إلى مبادعة مروان بن الحكم ، وتم الأمر لمروان وظلت الخلافة بعده في أبنائه حتى نهاية العصر الاموي .

ييد أن التزاع بين بني أمية لم يتوقف بذلك ، وكانت من أسبابه تملك السنة التي ابتدعها مروان بن الحكم في جعل ولابة العهد لأكثر من واحد حين أخذ البيعة بعده لابنه عبد الملك ثم لابنه الثاني عبد العزيز . وجري الخلاف بعد ذلك على هذه الخطة ولكن الخليفة كان لا يكاد يلي الخلافة حتى يوجه همه إلى انتزاع ولابة العهد من أخيه وجعلها في أبنائه . وكان بعض الطامعين في الخلافة من الأسرة الاموية ينتهزون الفرص لمنازعة الخليفة سلطانه ، وظل هذا الصراع على الخلافة مستمراً طوال العصر الاموي ، وكان من الأسباب القوية التي أدت إلى ضعف الدولة الاموية وانهيارها .

في زمن عبد الملك طمع في انتزاع الخلافة منه عمرو بن سعيد بن العاص المعروف بالأشدق ، وهو ينتمي إلى أحد فروع البيت الاموي . فاغتنم فرصة

خروج عبد الملك لقتال مصعب وغلب على دمشق فاضطر عبد الملك أن يقفل إلى دمشق وأن يقاتل الأشدق ، وكان كلها يعتمد على تأييد قبيلة كلب اليمنية ، وأخيراً اصطلاحاً وأمن عبد الملك عمراً ثمما لبث أن غدر به وقتله بيده فيها يذكرون (٦٩٥) .

وفي أواخر أيام عبد الملك هم يخلع أخيه عبد العزيز عن ولادة عهده إلا أنه مات قبل ذلك فسار عبد الملك على سنة أبيه وبائع لابنه الوليد ثم سليمان من بعده . وأراد الوليد أن ينزع ولادة العهد من أخيه سليمان ويجعلها في ابنه عبد العزيز فأبى سليمان عليه ذلك ، ولم يحب الوليد في مبايعة ابنه وخلع سليمان إلا الحجاج وقبيبة بن مسلم . فلما ولّى سليمان انتقام من آل أبي عقيل ، وكان الحجاج قد توفي قبل عام من خلافته ، وخشي قبيبة بطش سليمان فثار عليه وخلمه ولكن القبائل التي كانت بخراصان خالفته وولوا أمرهم وكيع بن أبي سود التميمي الذي أحاط بقبيبة وقتلها وجل أهل بيته (٦٩٦) .

وقد شد سليمان عن سنة أملاكه بحمل الخلافة بعده لغير بنيه ، بل إنه أخرجها عن أولاد عبد الملك حين جعلها لابن عمه عمر بن عبد العزيز . ولكنها جعلها بعده لأخيه يزيد بن عبد الملك إرضاء لآل بيته . ومع ذلك فقد غضب هشام بن عبد الملك ولم يباع عمر إلا مكرهاً . وهناك رواية في موت عمر تذهب إلى أنه هم يخلع يزيد عن ولادة العهد بعده حين ناظره الخارجيان المزان أرسليها إليه شوذب ، فدس له بنو أمية السم خشية خروج الأمر من يدهم .

وتولى يزيد بن عبد الملك الخلافة واضطر أن يجعل ولادة العهد لهشام أخيه لأنه وجد ابنه الوليد أصغر من أن يقوم بشأن الخلافة . ومع ذلك حدثنا أنه كان يقول إذا رأه : « الله بيبي وبين من جعل هشاماً بيبي وبينك » (١) . وجعل الخلافة الوليد ابنه بعد هشام .

ولما ولی هشام أراد أن يستخلف ابنه مسلمة فاشتد على الوليد وأصر به كي يحمله على التنازل عن حقه ولكنه رفض ، فعمل هشام مراً في البيعة لابنه ، ولكنه لم يوفق في مسعاه إذ أن ملوك بي أمية كانوا يحرسون علىأخذ البيعة من الناس لمن يستخلفونهم بعدهم ، فكره الناس أن يتخلوا عن الوليد للبيعة التي كانت في أعقاهم له منذ زمن أبيه يزيد بن عبد الملك .

ولما صار الأمر إلى الوليد بدأ عهده بالانتقام من آل هشام وولده ، ومصادرة أموالهم . ثم عقد الولاية لولديه الحكم وعثمان . وفي عهده اشتدت الخصومة بين بي أمية ، فقد اشتد على بي عميه هشام ونالهم الكثير من أذاء وأسخط بي عميه الوليد بتوليه عهده ولديه وهم حدثان ، وزعموا أنه اتخذ مائة جامدة وكتب على كل منها اسم رجل من بي أمية ليقتلها بها ، وكان أكثر بي الوليد نفحة عليه يزيد ابن الوليد المعروف بالنافق ، وكان يظهر النسك والعبادة فما الناس إليه وهو الذي حرضهم على الفتن بالوليد . ولا ريب أن ما عرف به الوليد من المجون والفسق والعبث بالدين قد أثار سخط الناس عليه ، ولكن من المحقق أيضاً أن خصومه من بي أمية قد بالغوا كثيراً في أخبار مجنونه ليوغرروا صدور الناس عليه . وكذلك كانت اليهانية ساخطة عليه لما فعله آل هشام وبخالد القسري . وأتهم أمره بأن أحاطت به جموعهم في حصن البخاراء وقتلوه (١٢٦ هـ) . وكانت هذه الفتنة مؤذنة بقرب هلاك بي أمية ، وقيل إن العباس بن الوليد بن عبد الملك تنبأ بقرب هلاك بي أمية لما رأى من اختلافهم وتمثل بأبيات منها :

إني أعيذكم بالله من فتن
إن البرية قد ملت سياسةكم
فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لَا تقرنْ بآيديكم بطونكم

ومنذ مقتل الوليد انقض أمر بي أمية واشتد الصراع بين بي مروان على الخلافة ، فما كاد يزهد النافق يستقر على كرسي الخلافة حتى ثارت الفتنة واضطربت الأمور ، فثار أهل حمص وأظهروا الطلب بدم الوليد ، ثم ثار أهل فلسطين

والأردن وبابوا يزيد بن سليمان بن عبد الملك . وما كاد يزيد يحمد هذه الفتن حتى أظهر مروان بن محمد خلافه وطلب بدم الوليد المقتول فأرضاه يزيد بتوليه الجزيرة وإرمينية والموصل .

ولم تطل خلافة يزيد أكثر من ستة أشهر ، وكان قد استخلف أخاه إبراهيم ، ولكن مروان بن محمد خلع إبراهيم واستطاع أن يتزعزع الخلافة منه . وفي عصر مروان كثرت الثورات والفتنة وشلت الأضطرابات جميع أرجاء الدولة ، وفاز به سليمان ابن هشام واستطاع مروان أن يغسل عليه بعد قتال عنيف . وقد أدى الخلاف بين بني مروان وتنازعهم على الخلافة إلى ضعف الدولة وأطعم فيهم خصومهم ، ولا سيما أنصار بني العباس ، وأدى آخر الأمر إلى انهيار الحكم الاموي .

(ف) الدعوة العباسية وإنهاي الحكم الاموي

منذ مقتل الحسين اختلفت الشيعة في أمر الإمامة ومن يتولاها من أبناء علي ، وكان أكثرهم يرون حصرها في أبناء فاطمة فلا يرون محمد بن علي المعروف بابن الحنفية حقاً في تولي الأمر ، وكان إمامهم بعد الحسين ابنه علياً زين العابدين ، وقد آثر هذا الأخذ بالتقية فيما يباع بني إمية بالخلافة وكذلك فعل أبناؤه من بعده ، وهم الذين عرفو بالإمامية الثانية عشرية ، وقام المختار يدعو لابن الحنفية وظاهراته طائفة من الشيعة ، وهم الذين عرفو بالكيسانية ، ولكن ابن الحنفية أيضاً آثر المافية ولم يطلب الخلافة لنفسه مع أنه رفض مبايعة ابن الزبير . وكان بنو العباس ، أبناء عم علي يرقبون الأمور عن كثب واقفين في صف العلوين ، ولم تراودهم في مبدأ الأمر فكرة الدعوة لأنفسهم لشتمهم أن الناس ما كانوا ليقاوموهم ويتحلوا عن أبناء علي . ولكن منذ حمل الوليد بن عبد الملك علي بن عبد الله بن العباس على الإقامة في الجماعة ، إبعاداً له عن الحجاز موطن المهاشين ، بدأت فكرة الدعوة لآل بيته تراوده ، وصح عزمه عليها حين توفي بالجمعة أبو هاشم - ابن محمد بن الحنفية - ويزعم العباسيون أنه حين حانت منيته أدل بحقه في الخلافة إلى علي بن عبد الله ، فلذلك وقفت الشيعة الكيسانية في جانب بني العباس .

وقد استفاد بنو العباس من الأخطاء التي وقع فيها الملويون في ثوراتهم على بني أمية فلم يتسرعوا مثلهم بإعلان دعوتهم ، وإنما آذوا أن يهدوا لها تميضاً بطريقاً واختاروا خراسان مركزاً رئيسياً للدعوة وأظهروا أنهم إنما يدعون المرضا من آل البيت ليستهيلوا إليهم الشيعة وأنصارهم ، ثم أظهروا بعد مقتل زيد وابنه يحيى أنهم يطالبون بدم زيد وابنه وسائر قتلى الطالبيين .

بحدد الطبرى مبدأ الدعوة يطلع القرن الثاني للهجرة ، ويدرك أن محمد بن علي وجده في هذه السنة ميسرة إلى العراق ووجه طائفه من الدعاة إلى خراسان وأمرهم بالدعوة لا هل بيته ، واختار أبو عكرمة السراج اثنتي عشر تقريباً وسبعين من الدعاة ، وكتب لهم محمد بن علي كتاباً يوجّههم فيه إلى الخطبة التي ينبغي لهم السير عليها . ويبدو أن هذه مراحل تمييزية سبقت هذه الخطوات .

واختيار خراسان مقرًا للدعوة العباسية يدل على بدء نظر سياسي ، وذلك لبعدها عن حاضرة الدولة ومسؤولية أسمالة أهلها إلى آل البيت ، ولأن هناك العدد الكبير ، والجلد الظاهر ، وهناك صدور سليمة ، وقلوب فارغة لم تقسمها الأهواء ، ولم يتوزعها الدغل السخ . . . حسناً جاء في كتاب محمد بن علي إلى دعاته .

وقد اتخذت الدعوة طابعاً سرياً مدة تزيد على ربع قرن ، وكان ولاة خراسان كلها غنىًّا أمر جماعة من الدعاة بطشوا بهم ، وكان أسد بن عبد الله القسري أشد هؤلاء الولاة بطشاً بداعية بني العباس ، وكان الدعاة يتخدون من مواسم الحج مناسبة للاتصال ببني العباس وحمل الأموال إليهم . وقد اشتعلت الدعوة العباسية وقوى أمرها باضمام أبي مسلم إليها (١٢٤ هـ) . وبعد وفاة محمد بن علي (١٢٥ هـ) تولى الامر ابنه إبراهيم ، ولما رأى هذا الشقاق البيت الأموي زمن مروان بن محمد وقيام الفتن القبلية في خراسان رأى أن الوقت قد حان للجهر بالدعوة . فبعث أبا مسلم إلى خراسان وولاه أمر الدعوة وأوصاه بالاعتماد على القبائل اليمنية التي كانت آنذاك مساختة على مروان لاعتماده على القيسية . وأبرز ما لاحظه في وصيحة

لإبراهيم لأنبي مسلم في قوله له : « وإن استطعت ألا تدع بخراسان لساناً هريراً فافعل ، فأيما غلام بلغ خمسة أشبار تهمه فاقتله »^(١) . فقد رأى بنو العباس أن يعتمدوا على المنصر الفارسي في دعوتهم لأن هؤلاء لا مطعم لهم في الخلافة . ورأى الأئمَّاجم والموالي الفرصة سانحة للانتقام من العرب الذين قوضوا ملوكهم وأذلوهم وعاملوهم معاملة السادة للعبيد فقبلوا دعوة بنى العباس مسرعين .

وفي عام ١٢٩ هـ أظهر أبو مسلم الدعوة واتخذ مسكنه أولاً بسفیدنج، قرية سليمان ابن كثير الخزاعي ، وكان مروان مشغولاً آنذاك بقتال الثنرين عليه في الشام والعراق ، وكان عرب خراسان مشغولين بالفتنة القبلية التي كان يتزعمها الكرمانى من جهة ، وهو على رأس اليمنية ، ونصر بن سيار عامل مروان ورئيس مصر من جهة أخرى . ولما استيقن أبو مسلم من ضعف الفريقين بدأ حملته واستطاع أن يستولي على خراسان بسهولة ، واتصلت انتصاراته وانتصارات قواده . وكان ابن سيار لا يفتئ يرسل إلى ابن هبيرة بالعراق وإلى مروان يذكرها بالخطر الداهم ويحثها بالشعر على تدارك الأمر قبل استفحاله ، كقوله من أبيات :

فقلتُ من التمجُّب ليت شعري أُيقظْ أُميَّة أم نِيَام^(٢)

أو يخاطب العرب المختصين بقوله :

فليغضبوا قبل أن لا يفعَّ الفضُّبُ حرّاً يُحرَّقُ في حفافتها الحطبُ كأنَّ أهلَ الحِجَاجَ عنْ فِعلِكمَ غَيَّبُ مَا تأشَّبُ لَا دِينَ وَلَا حَسْبُ عنِ الرَّسُولِ وَلَمْ تَنْزِلْ بِهِ الْكِتَبُ فَلَمَّا دِينُهُمْ أَنْ تُقْتَلَ الْعَرَبُ ^(٣)	أَبْلَغَ رِيمَةً فِي مَرَوْ وَإِخْوَتِهِمْ وَلِيُنْصُبُوا الْحَرْبَ إِنَّ الْقَوْمَ قَدْ نَصَبُوا مَا بِالْكَمْ تُلْكَةً حَوْنَ الْحَرْبَ يَدِنُكُمْ وَتَرْكُونَ عَدُوًّا قَدْ أَظْلَمُكُمْ قِدَمًا يَدِينُونَ دِينًا مَا سَعَتْ بِهِ فَمَنْ يَكْنِ مَاءِلًا عَنْ أَصْلِ دِينِهِمْ
------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------	---------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------

(١) الطبرى ٦/٣٧ .

(٢) العقد الفريد ٤/٤٧٨ .

(٣) العقد الفريد ٤/٤٧٨ .

ولكن صبحاته جاءت بعد فوات الوقت ، وعلى الرغم من أن مروان استطاع أن يظفر بابراهيم بن محمد ويستجنه ثم يقتله آخر الأمر فإن جيوش العباسين كانت قد اكتسحت خراسان ، واستقر أبو العباس السفاح ، وقد آل الأمر إليه بالكوفة ورمه بنو العباس ، وما لبث يزيد بن عمر بن هبيرة أن هزم ولجا إلى واسط ، وغابت المسودة على العراق ، ثم كانت أخيراً هزيمة مروان في موقعة الزاب الفاصلة (١٣٢هـ) وما لبث أن قتل في نفس العام في بوصير ، وقضى بذلك على دولة بي أمية بالشرق .

(ح) الحروب القبلية

كانت المصيبة القبلية في مصر الجاهلي سبب حروب ووقائع متصلة بين القبائل العربية ، وجاء الإسلام فأوجد رابطة روحية بين القبائل تسمو على الخصومات القبلية . ولكن القضاء على التزعع القبلية كان يتطلب وقتاً طويلاً ، يتم فيه اندماج القبائل بعضها البعض واحتلال العرب بالأئم الأُخري . ولذلك ما كاد الرسول عليه الصلاة والسلام يلقى وجه ربه حتى عادت المصيبة القبلية إلى الظهور فاختلف المهاجرون والأنصار على الخلافة ، وكانت حركة الرادة صورة من صور المصيبة القبلية إذ أن القبائل القوية أبت أن تعنو سلطان قريش .

وفي العصر الأموي عادت الخصومات القبلية إلى الظهور بصورة أقوى وأعنف ، وارتبط النزاع القبلي في هذا العصر بالأحداث السياسية تارة والدينية تارة أخرى . ولما استوطن العرب الأقطار المفتوحة كخراسان والأندلس حملوا معهم عصبياتهم وخصوصياتهم ولم يستطعوا تناسي أحقادهم القبلية حتى في أشد الأوقات حرجاً ، وذلك حين كان عليهم أن يقفوا صفاً موحداً أمام أعدائهم من الأمم الأخرى التي كانت تربص بهم شرعاً . ولا ريب أن هذه الخصومات كانت عائقاً عظيم الشأن في الحد من انتصارات العرب وفتح حاتم في الشرق والغرب ، وكانت أخيراً من أسباب سقوط الدولة الأموية .

وقد وقف الخلفاء الأمويون من النزاع القبلي موقف الرضا والتشجيع أحياناً .

حين كانت المصالحة تمضي بذلك ، شأنهم في أول أمرهم في الشام حين ثارت العصبية بين كلب وقيس ، وبين قيس وتغلب ، وذلك ليشغلوا القبائل عن منازعة بني أمية سلطانهم . وكانوا ربما انحازوا إلى أحد الطرفين المتنازعين : مصر واليعن ، فيؤدي انحيازهم إلى مخطط الجانب الآخر ، وأحياناً إلى ثورته على الخليفة . كان يزيد بن معاوية مقرباً للهادئة أسماؤه ، وقد عاملهم معاملة ممتازة أثارت عليه القيسية فانحاز هؤلاء إلى صف ابن الزبير . وفي زمن الوليد الأول كانت الكلمة الأولى لقيس ولما استخلف سليمان مال إلى اليهانية وبطش بالقيسية . وأما يزيد الثاني والوليد الثاني فقد ملا إلى القيسية . وجاء يزيد الثالث فقرب اليهانية الذين ظاهروه على الوليد بن يزيد فلم يكن في حاشيته قسي واحد . وجاء مروان بن محمد أخيراً فاستظهر بالقيسية وأدى هذا إلى ثورة اليهانية عليه .

وكذلك لم يستطع أمراء بني أمية وعماهم أن يتجرروا من أثر هذه العصبية فكان الوالي المصري يقرب إليه المصريه ويتعصب لها فتشور اليهانية ، ويأتي الوالي اليهاني ويقرب اليهانية فيسخنط عليه المصريه ، ويشب النزاع وتقوم الفتن بسبب هذه العصبيات التي فتت في عضد العرب وأوهنت قوامهم . والواли الوحيد الذي وقف محايداً من جميع القبائل هو زياد لأنه لم تكن له قبيلة ينتصر بها .

وكذلك كان الشعراء المنصوبون لقبائلهم يعملون بشعرهم على تأجيج نار العداوة القبلية وإغراء القبائل بعضها ببعض .

وبسبب هذه العداوة القبلية المناصلة كانت أتفه الحوادث كافية لاشتمال نار فتنه قبلية تودي بالمئات والآلاف ، ولا تكاد الفتنة تذر بقرنها حتى يصبح الشغل الشاغل لكل من الجانين المقتلين الأخذ بنار القتل فتوالي الوقائع وتتصاعد الحروب . وقد أثار رجل مصرى فتنه بين المصريه واليهنية دامت سنتين ، فيها يذكرون ، لأنه انتزع بطيخة من حائط رجل يهانى^(١) .

(١) تاريخ أبي الفداء ١٤/٢ .

وستحدث هنا عن أبرز الفتن القبلية التي كان لها اثر في الأحداث السياسية أو كانت ناتجة عنها ، أما اثر العصبية القبلية في المجتمع العربي فموضعه في الفصل الخاص بالمؤثرات الاجتماعية .

ظهرت بوادر الفتن القبلية في الشام اثر وفاة يزيد . فإن قبيلة قيس التي أحذقها قریب يزيد لأصحابه الكلبيين مالت إلى ابن الزبير ، وانتصر اليهانية لمروان بن الحكم ، وكانت موقعة مرج راهط انتصاراً للبيهنية على القيسية . وارتدىت قيس بعد هذه الهزيمة إلى ديارها في قنسرين وقرقيسية وأراضي الجزيرة ، ولكنها أخذت تتحين الفرص للثأر لقتلى المرج تحت زعامة رئيسها زفر بن الحارث .

وقد بدأ زفر غاراته على الكلبيين ، بعد اختيارة قرقيسية مقرًا له ، وتوالت الواقع بين الجانبيين . وما لم يثبت أن انضم إلى زفر زعيم قيسى آخر هو عمير بن الحباب . وقد ظاهر عمير أول الأمر بالولاء لبني أمية وبایع مرwan بن الحكم ، ولكنه في موقعة خازر انحاز إلى جيش ابن الأشتر بن معه من قيس وهو ينادي : يا ثوار المرج ، فدارت الدوائر على ابن زياد وقتل ، وانضم عمير بعدئذ إلى زفر خوفاً من بطش عبد الملك وأخذوا بغيران على كلب .

وعقب إحدى الغارات عاد عمير فنزل بن معه من قيس على الخابور ، محاوراً لبني تغلب المسيحيين . وكانت منازل هؤلاء بين الخابور والفرات ودجلة . وكانت تغلب في أول أمرها عوناً لقيس في قتال كلب ، عدوها المشترك ، فلما زاحتهم قيس على أراضيهم واغتصبت عيراً لهم وقع الشر بيهنها ، فقتل عمير يوم ما كسين جمماً كبيراً من تغلب ومنهم زعيمها شعيب بن ملبيك ، واستطاعت تغلب أن تثار لنفسها يوم الثغر ، ثم التقوا مرة أخرى بالثغر ، وقد شارك زفر في هذه الغارة التي انهزمت فيها تغلب . واتصلت الواقع بين الفريقين وتدولاً النصر وفي يوم الحشاك انهزمت قيس وقتل عمير بن الحباب وارتدى زفر إلى قرقيسية ، ثم ثأر لقيس يوم الكحيل وفتح بيته تغلب وبقر بطون نسائهم .

وما أراد عبد الملك المسير إلى مصب سار إلى قرقيسية أولاً فصر زُفر فيها

طويلاً ولكنه لم يقدر على فتحها فصالح زفر وأمنه، وهذا النزاع مؤقتاً بين قيس وخصومها ثم عاد النزاع بين كلب وقيس ثانية حين توجه حميد بن حرث ، ميبد كلب ، إلى قبيلة فزاروة القديسية ، وكان مقرها البادية في شرق المدينة ، ومه عهد من عبد الملك بجباية الصدقات . ولتكن اتهم الفرصة لانتقام من قيس وفتنه يعني فزاروة . وثار الفزاريون لأنفسهم في موقعة « بنيات قين » ، وتدخل عبد الملك لحقن الدماء .

وثارت الخصومة بين قيس وتغلب مرة أخرى حين توجه الجحاف بن حكيم السلمي إلى قبائل الجزيرة ، ومه عهد مفتعل باسم عبد الملك يخوله جباية الصدقات . وكان الأخطل التغلي قد أحفظه في مجلس عبد الملك ، فأراد أن يشار لعمير فأغار على تغلب يوم البشر وفتنه بهم فتكا ذريما وأسر الأخطل في الموقعة ثم أطلق سراحه وقد حسبوه عبداً ، واضطرب الجحاف أن يلجموا إلى بلاد الروم خوفاً من انتقام عبد الملك ثم شفع له أشراف قيس ومنهم الحجاج ، فهذا عنه عبد الملك .

وفي الوقت الذي ثار فيه النزاع القبلي في الجزيرة وبلاد الشام ، ثار نزاع قبلي آخر في العراق ، وفي البصرة خاصة .

وخبر هذه الفتنة مضطرب في المصادر التاريخية ، وتدكر إحدى الروايات المرجحة أن أهل البصرة ثاروا بعبد الله بن زياد عقب وفاة يزيد وهو به فاسبحار مسعود بن عمرو ، سيد الأزد ، فأجاره ثم لحق بالشام واستختلف مسعوداً على البصرة فلم ترض به تميم وقيس وسائر مضر واستطاع بني تميم قتل مسعود وهو قائم يخطب في مسجد البصرة فثارت الفتنة بسببه بين الأزد ومعها حليفتها ربيعة وبين تميم وسائر مضر وكان بينهم قتال عنيف ثم اصطلحوا واتفقوا على تولية عبد الله بن الحارث بن عبد المطلب الهاشمي أمرهم ، وصنع أهل الكوفة صنيعهم فخلموا عمرو بن حرب بحليفته ابن زياد ولووا أمرهم فرشياً هو عامر بن مسعود ، للجلولة دون قيام الفتن القبلية .

وقد في الوقت نفسه فتنة مخالفة في خراسان ، وقد ذكرنا أن العرب حين نزلوا الأقطار الفتوحة حملوا معهم خصوماتهم القبلية ، فحين اضطربت الأحوال

بعد موت بزید خلع القوم مسلم بن زیاد فقارهم واستعمل على خراسان المهلب بن أبي صفرة ، ثم اضطر أن يقسم خراسان بين المهلب وبعض زعماء بکر بن وائل فلم يرض عبد الله بن خازم زعيم مصر خراسان عن صنيعه وانتزع منه عهداً بولاية خراسان كلها وأصبح لزاماً عليه أن يقاتل من ولام ابن زیاد . أما المهلب فتخلّ عن عمله دون قتال ، وأما بکر بن وائل فقاتلت ابن خازم فلحقت بها المهزيمة وقتل أشرافها وما لبث ابن خازم أن غلب على خراسان كلها . وقد ظهرت قبيلة تمیم ابن خازم - وهو من قيس - على قتال ربيعة في أول الأمر ، ثم وقع الجفاء بين ابن خازم وتمیم ونشب القتال بينهما واستمر سنتين حسب رواية الطبری . ثم ملّ بنو تمیم القتال وتفرقوا . ولما فرغ عبد الملك من قتال مصعب وجه إلى ابن خازم يدعوه إلى طاعته على أن يطمه خراسان سبع سنوات فأبى ، فولى عبد الملك بکير بن وشاح التمیمي خراسان ، وكان خليفة ابن خازم على مرو ، خلع بکير طاعة ابن الزبیر ودعا إلى عبد الملك ، واجتمع على قتال ابن خازم بکير بن وشاح وبحیر بن ورقاء التمیمیان ، وظفر به بحیر فقتله . وما لبث الخلاف أن دب بين بکير وبحیر وانقسمت تمیم على نفسها ، وخاف عبد الملك أن تؤدي الفتنة إلى ضياع خراسان فاختار لهم ولیاً قرشیئاً هو أمیة بن عبد الله . فكذلك نجح القوم يلحوذون إبان الفتنة القبلية إلى اختيار ولاة من قریش إطفاء الفتنة .

ولم تنتهِ فتنة ابن خازم بقتله ، فإن ابنه موسى قد لجأ إلى مدينة الترمذ ، فاجتمع على قتاله الصعد والترك من جانب ، والعرب من جانب آخر ، وظل ينماجز القوم اثنتي عشر عاماً بعد مقتل أبيه ، على رغم قلة أنصاره ، « وكان يقاتل العرب أول النهار ، والمجم آخر النهار » ، حتى قتل آخر الأمر في عهد ولاية المفضل بن المهلب على خراسان .

وقد وقعت بعد ذلك طائفة من الفتن القبلية بخراسان ، وحين خلع قتيبة بن مسلم سليمان بن عبد الملك اتحدت جميع قبائل خراسان ضده ، ولم تستطع قبيلة باهلة المستضفنة أن تنصره فقتل . وكان أسد بن عبد الله شدید التحصب للباھلیة ، فلما ولي خراسان اشتد على مصر وأهان أشرافها حتى أفسد الناس بعض بيته مما دعا هشاماً إلى عزله .

وكان آخر هذه الفتن تلك التي ثارت بين اليهانية ويتزعمها جديع بن علي الكرماني ، والمصرية وعلى رأسها نصر بن سبار ، واستطاع الكرماني أن ينحي نصرًا عن مرو بمعونة الحارث بن سريج ، ثم وقع الخلاف بينه وبين الحارث واتهى الأمر بقتل الحارث . وكان أبو مسلم الخراساني يراقب عن كثب القتال الدائر بين اليمن ومصر ، حتى إذا أدهنها القتال وكثير أنصاره أظهر للكرماني أنه في صفة ، وخاف نصر أن يجتمع عليه أبو مسلم والكرماني فدعاه إلى الموادعة ثم أنس منه غرة فوجده ماليه من قتله . ولم يلبث أبو مسلم أن دخل مرو ، عاصمة خراسان ، وانضم إليه علي وعثمان ، ولدا الكرماني ، في قتال نصر . ولعب أبو مسلم دوره ببراعة في الإيقاع بين مصر واليهانية والخليولة دون تحالف العرب ضده . ثم لما أيقن من اشتراك كلة العرب وضعفهم أخذ يمطش بزعمائهم واحداً تلو الآخر وكان ولدا الكرماني في طليعة من ذلك بهم .

وفي الشام قامت فتنة قبلية أيضاً في عهد مروان بن محمد لأنه استظهر بالقيسية فثار عليه الكلبيون وسائر اليمن في حمص ودمشق وتدمير وغيرها ، ولم يستطع أن يقضي على ثوراتهم إلا بعد قتال شديد .

كان من أثر هذه الخصومات القبلية أنها أوهنت العرب وحدت من فتوحاتهم وأدت إلى ضعف الدولة الأموية ثم إلى انهيارها ، وما يلاحظ أن الخصومات القبلية في عصر بني أمية كانت أعنف منها في العصر الجاهلي وتحلت فيها من مظاهر القسوة والوحشية ما لم يكن معروفاً من قبل كبقر بطاون النساء . وقد ذكر ولهوزن أن هذه العادة الوحشية لم تعرف في جزيرة العرب وإنما كانت مألوفة في سورة (١) .

ثالثاً : الفتوح الخارجية زمن بني أمية وأثرها في الخطابة :

استطاع العرب أن يتحققوا من الفتوحات المظيمة خلال قرن واحد ما لم تتحققه الإمبراطورية الرومانية في أوج قوتها ، وقد تمت الفتوحات العربية بسرعة لاظهير لها

(١) ولهوزن ص : ١٧١ .

في تاريخ الفتوح ، فإذا سلطانهم يمتد شرقاً حتى نهاية بلاد السند ، ويرتقي في الشمال الشرقي متخطياً نهر جيحون حتى يستقر على ضفاف نهر سيحون ، ويتوغل في بلاد الروم حتى تصك حوافر خيول الغزاة العرب أسوار مدينة قسطنطين المنيعة ، وينطلق غرباً طاوياً البلاد حتى آخر حدود البر الإفريقي وبلاط المغرب ، ثم يضيق به البر الرجيب فيجوز البحر إلى الأندلس ، وبقريع الفاتحون العرب أبواب بلاد القال ، ولو لا ما نشب بين العرب من مجازعات قبلية ، ولو لا العتن الداخلية وثورات البربر لبلغت الفتوحات الإسلامية في مصر الأموي شاؤماً أبعد كثيراً منها بلغته ولما ت في سجل التاريخ صفحات أخرى تزيد في تألق تاج الفخار والعزة على هامة الأمة العربية .

(أ) الفتوح في الشرق

لم يتجاوز المسلمون زمن الخلفاء الراشدين ، في فتوحاتهم شرقاً ، بلاد الفرس . وانصرف همهم إلى تثبيت أقدامهم في الأقاليم الإيرانية وإخضاع النائرین عليهم فيها . وكانت السنوات الست الأولى من عهد عثمان حافلة بالغزوات والحملات التي انتهت بالسيطرة على جميع بلاد الفرس وقتل يزدجرد آخر ملوك الأسرة الساسانية .

وفي عهد الأسرة الأموية سار المسلمون شوطاً آخر في فتوحاتهم فقطعوا نهر جيحون في الشمال الشرقي وتوغلوا شرقاً في سجستان وببلاد السند . وقد بدأت حملات ماوراء النهر منذ عهد معاوية فقد أمر زياد عامـ له على خراسان الحكم بن عمرو الفاري فغزا أهل جبل الأشـل وعاد بغنائم وافرة ومنذ ذلك الحين أصبح من المأثور أن يقوم والي خراسان بغزو ماوراء النهر وإنما اعتبر غير أهل لتولي هذا المنصب . فقام الريـس بن زيـاد الحارـي وسلـم بن زيـاد بـطاقةـة من الغـزـوات فـسـبـها وـرـاءـ النـهـرـ ، ثم شـغـلـ ولاـةـ خـراسـانـ بـعـدـ ذـذـ بالـحـصـومـاتـ فـتـوقـفتـ هذهـ الغـزـواتـ حـقـ قـولـيـ المـلـهـ بـنـ أـبـيـ صـفـرـةـ خـراسـانـ فـامـسـأـلـهـمـاـ وـغـزـاـ اـلـخـنـيلـ وـكـشـ ، وـنـابـعـ اـبـنـهـ يـزـيدـ الغـزوـ فـفـتـحـ قـلـعـةـ نـيزـكـ بـيـانـدـغـيسـ .

ولم تنشط الفتوح ، سواء في الشرق أو في الغرب ، إلا زمن الوليد بن عبد الملك ، ففي عهده ولـى الحجاج قتيبة بن مسلم خراسان (٨٦هـ) فقام بحملات عديدة غزا فيها السند والترك وقتل من لم يهدن له من ملوك ماوراء النهر وأقر العرب بسم رقـنـدـ عاصيـةـ السـعـدـ ، وأخـلـاـهـاـ منـ أـهـلـهـاـ وـحـرـقـ ماـ فـيـهاـ مـنـ الأـصـنـامـ . وـذـكـرـ البـلاـذـريـ أنـ قـتـيـبةـ لـاـ أـحـرـقـ الأـصـنـامـ وـلـمـ يـهـلـكـ أـسـلـمـ مـنـ السـعـدـ خـلـقـ كـثـيرـ . وـفـيـهـ أـشـارـ كـعبـ الأـشـقـرـيـ إـلـىـ هـذـاـ الـفـتـوحـ بـأـبـيـاتـ مـنـهـ :

كل يوم يحيى قتيبة نهـما
ويزيد الأموال مـا جـدـيدـاـ
باـهـيلـيـ قد أـبـسـ المـاجـ حـتـىـ
شاـبـ مـنـهـ مـغـارـقـ كـبـيـرـ سـوـداـ
دوـخـ السـعـدـ بالـكـتـائبـ حـتـىـ
ترـكـ السـعـدـ بـالـعـرـاءـ قـوـداـ (١)

وامتدت غزوات قتيبة فيها وراء النهر حتى بلاد الشاش وفرغانة شمالاً، وحين غزا فرغانة أراد غزو كاشغر ، وهي أدنى مداńن الصين ، فـأـتـاهـ مـوـتـ الـوـلـيدـ فـقـفـلـ ، وفي الطبرـيـ قـصـةـ طـوـيـلـةـ تـدـورـ حـوـلـ مـحاـوـلـةـ قـتـيـبةـ غـزوـ مـلـكـ الصـينـ وـقـدـ لـمـ اـمـ لـمـ خـيـالـ الروـاـةـ فـيـهاـ دـوـرـاـ ظـاهـرـاـ (٢) .

واستمرت غزوات ما وراء النهر في زمن ولاية يزيد بن المهلب الثانية على خراسان ، وكان يزيد يستعمل غالباً القسوة والعنف مع أهالي البلاد المفتوحة ، فيقال إنه لما فتح دهستان قـتـلـ منـ التـرـكـ أـرـبـعـةـ عـشـرـ أـلـفـ صـبـراـ ، وـلـاـ ثـارـتـ بهـ جـرـجانـ بعد فتحها أـقـسـمـ الـأـرـفـعـ عنـ أـهـلـهـ السـيفـ حـتـىـ يـطـحـنـ بـدـمـاـهـمـ وـيـخـتـيزـ مـنـ ذـلـكـ الطـاحـينـ وـيـأـكـلـ ، فـبـرـ بـقـسـمهـ وـقـتـلـ مـنـ أـهـلـ جـرـجانـ أـرـبـعـينـ أـلـفـاـ .

ولم تقع بعد ذلك غزوات ذات شأن فيها وراء النهر حتى كانت ولاية أسد بن عبد الله القسري فقام بحملة من الغزوات الموقعة وقتل خاقان الترك ، ولما آلت ولاية خراسان إلى نصر بن سيار غزاماً وراء النهر ثلاثة مرات في سنة واحدة

(١) الطبرـيـ ٢٥٥/٥ .

(٢) يرى مؤلفـوـ كتابـ «ـتـارـيـخـ الـعـرـبـ»ـ أنـ فـتـوحـ كـاشـغـرـ وـغـزوـ الصـينـ قدـ نـسـبـ خطـأـ إـلـىـ قـتـيـبةـ وـانـ الذـيـ قـامـ بـذـلـكـ هـوـ نـصـرـ بـنـ سـيـارـ (جـ ٢٧٠/٢) .

(١٢١)) وقتل في النهاية كورصو ملك الترك ، ثم شغل بالغتن القبلية . وقد كان من نتيجة هذه المزارات أن دخل كثير من أقوام ماوراء النهر في الإسلام وأصبحت هذه البلاد جزءاً من الإمبراطورية الإسلامية .

أما في الشرق فقد وجه الحجاج ، بعد فراغه من أمر شبيب والأزارقة ، عبد الله بن أبي بكرة لغزو رقيب صاحب سجستان ولكن الترك أوقعوا بجيشه بعد أن أوغل في بلادهم ، فوجه إليهم الحجاج عبد الرحمن بن الأشعث فاحتل جانباً من بلاد رقيب ثم صالحه حين وقعت الحرب بينه وبين الحجاج .

واستطاع المسلمون بعد انتهاء ثورة ابن الأشعث إخضاع بلاد سجستان كلها ثم وجه الحجاج صهره محمد بن القاسم الثقي (٩٤هـ) في جيش من أهل الشام فأخضع مكران ودخل بلاد الهند فاستولى على السند ودلتا نهر الهندوس والنيلون (حيدر آباد) ثم يتجه شمالاً فيفتح ملتان في جنوب البنغال . ولم يتم فتح الهند نهائياً إلا فيما بعد على يد الدولة الغزوية .

(ب) الفتوح في الغرب

حين ثبت العرب أقدامهم في مصر وجووا أنظارهم قبل إفريقيا والمغرب واستطاع عقبة بن نافع ، في عهد معاوية ، أن يفتح برقة ثم ابني مدينة القيروان وجعلها قاعدة لخلافته وفتحاته التي لم يوقفها إلا بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) . وفي زمن يزيد بن معاوية استشهد عقبة في معركة ضد البربر قرب تهودا ، وكادت البلاد تخرج من يد العرب في عهد خلفه ، حتى كانت إمارة حسان بن النعمني الغساني الذي استطاع إخضاع البربر وطرد البيزنطيين من قرطاجنة .

وحين ولـي موسى بن نصير إفريقيـة أصبحـت هذه الـولاية مستقلـة عن مصر ومرتبـطة مباشرة بالـ الخليفة في دمشق . وقد استطاع هذا القـائد المـاهر أن يخـضع شـمالـيـاً إـفـريـقيـة كـله للـحكـم الإـسلامـي ثم بـعـث مـولاـه طـارـق بـن زـيـاد فـازـ الـبحـر إـلـى اـسـيـانـياـ (٩٢هـ) في عـهد الـولـيد بـن عـبد الـمـالـك ، عـلى رـأس جـيشـ من الـعربـ والـبرـبرـ خـارـبـ

القوط وهزمهم وقتل في الموقعة الخامسة لذرريق آخر ملوك القوط . ثم لحق موسى بحوله وتوغل في البلاد وتم لها فتح إسبانيا كلها .

وتبع المسلمين فتوحاتهم في عهد هشام تحت قيادة عبد الرحمن الفاسي واستطاع هذا القائد أن يخضع زعيم البربر الناشر منازه كأخضاع دون إسبانيا وتقديم في اتجاه نهر الوار فالتفى بين نور وبواتيه بالفرنجة (١٤٦) وعلى رأسهم شارل مارتل الذي استنجد به يوديس ، ودارت رحى موقعة استشهد فيها القائد عبد الرحمن الفاسي . ويقول المؤرخ جيبون Gibbon إن العرب لو كسبوا المعركة في بواتيه لكان القرآن يفسر في أكسفورد ولأنه شر الدين الإسلامي في أرجاء أوروبا^(١) ، ولم يستطع العرب بعد ذلك أن يتowلوا في بلاد الغال إلى أبعد من هذا الحد بسبب الفتن الداخلية التي ثارت إذ ذاك ، واضطر عقبة بن الحجاج أن يقفل راجحاً إلى إفريقيا ليقضي على الثورة التي أشعلاها البربر ، وقد أوهنت هذه الثورة من قوة الجيش العربي وأوقفت فتوحاته . وكان الدافع إلى هذه الثورة سوء معاملة العرب للبربر على الرغم من انصواء هؤلاء تحت راية الإسلام ومشاركتهم المجدية في فتوح إسبانيا . ولم يحاول هشام بن عبد الملك أن يتألفهم واستطاع الخوارج الصفرية أن يثروا حفيظتهم على الدولة التي لا ترعى حقوقهم فثاروا عليها وهزموا جيوشاً عديدة وجهت إليهم ثم اضطروا إلى الخضوع آخر الأمر .

★ ★ ★

تلك هي أبرز الأحداث السياسية التي جرت في عهد بنى أمية والتي كان لها أثرها البين في خطابة ذلك العصر ، ومنها يتضح أن الطابع السياسي كان هو الغالب على الخطابة الأموية .

وقد لعبت الخطابة دوراً بارزاً إبان هذه الأحداث ، سواء في استهالة الانصار أو في الحض على القتال والرغبة في الجهاد . ومن أشهر الخطب السياسية التي

اتهت إلينا خطبة زياد البتراء^(١) ، وخطبة مصعب بن الزبير يوم ولاه أخوه البهرة^(٢) . وقد جعلها كلها آيات قرآنية ، وخطبة الحجاج يوم قدم الكوفة واليأ علمها^(٣) . وخطبة قتيبة بن مسلم حين خلص سليمان بن عبد الملك^(٤) .

(١) البيان والتبيين ١٧٤/١ .

(٢) تاريخ الطبرى ٥٥٨/٤ .

(٣) العقد الفريد ١١٩/٤ . الكامل للهبرد ٢٢٣/١ .

(٤) تفاصي جرير والفرزدق ٣٥٤/١ . تاريخ الطبرى ٢٧٥/٥ .

المؤثرات الدينية

على الرغم من غلبة الطابع السياسي على الخطابة في مصر الأموي فإن الأحداث السياسية لم تنفرد بالتأثير في حياة الفن الخطابي في هذا العصر . وتأتي المؤثرات الدينية في طليعة العوامل غير السياسية التي تركت طابعها الواضح في الخطابة الأموية .

على أن الفصل التام بين العوامل السياسية والدينية في عصر بنى أمية يجاف ب الواقع التاريخي ، فإن نقاط التلاقي بينهما كانت من الوفرة بحيث تحمل من العوالي الفصل بينهما ، ومنشأ هذا الارتباط الوثيق بينهما أن اختلاف المسلمين سياسياً ودينياً كان سببه الأول وأحداً وهو الخلافة ، فلهذا كان جل الأحزاب السياسية المناوئة لبني أمية يحمل أيضاً طابعاً دينياً ، حتى الحركات السياسية الخالصة لم تبرأ من الطابع الديني ، فشوربة ابن الأشعث مثلاً كانت في مبدئها صدى لنفحة العراقيين على بني أمية المستأذنين بالحكم ، ولكن ما لبث أن انضم إلى ابن الأشعث جميع الساخطين على بني أمية وبايدهم على « كتاب الله وسنة نبيه وخلع أمامة الضلاله وجihad المحدثين » وكان في جيشه كتبية كاملة من القراء أبلت خير بلاء في قتال الحجاج .

وقد رأينا في الفصل السابق أن محور اختلاف المسلمين بعد وفاة الرسول إنما هو قضية الخلافة ، وبسببيها ظهرت الأحزاب السياسية منذ مقتل عثمان ، وكانت كلها تسعى إلى الظفر بها ، وقد ظلت هذه الأحزاب تتصارع حريراً ولسانياً طوال عصر بنى أمية . والتزاع على الخلافة كان أيضاً السبب الأول في افتراق المسلمين فرقاً دينية شتى . ثم انضم إلى مسألة الخلافة بعد ذلك أمور أخرى شجر الخلاف حولها وثار الجدل بين المسلمين بشأنها . وكان كل اختلاف جزئي بين أتباع فرقه ما يُؤدي ، على طريقة التوالي الذاتي ، إلى ظهور شعبية جديدة في هذه الفرقه . وكانت

نشاء الأحزاب السياسية سابقة على نشأة الفرق الدينية ، فإن الخلاف بين المسلمين لم يُؤدِّ أولاً إلى ظهور أحزاب سياسية ، ثم مالت بعض هذه الأحزاب أن تأخذ طابعاً دينياً إلى طابعه السياسي ، وفيها يعد فقدت هذه الأحزاب طابعها السياسي واستحالت فرقاً دينية خالصة .

ثم وقع الاختلاف بين المسلمين على ما يسميه أصحاب الكلام بـ «الأصول»، أي الأمور الأساسية في العقيدة والتي تتمثل بالمعرفة والتوحيد كانقضاضه والقدر والجبر وحرية الاختيار وصفات الله وغيرها من الموضوعات المتصلة بعلم الكلام، وتحضر هذا الاختلاف عن ظهور فرق : المرجئة والقدرة ، والجهمية ، والمعزلة .

على أننا سنقتصر حديثنا هنا عن الفرق الدينية التي كان لها أثراً في الخطابة السياسية والتي كانت تجمع بين الطابعين الديني والسياسي .

وقد تناولت في الفصل السابق الجانب السياسي من هذه الفرق وتناول في هذا الفصل الناحية الدينية الخالصة منها .

بدأ التزاع حول الخلافة منذ وفاة الرسول بين المهاجرين والأنصار وقد تم الأمر المهاجرين واستطاع أبو بكر أن يفض التزاع بما رواه عن الرسول من أن «الائمة من قريش». بيد أن هذه القبيلة نفسها مالت أن اختللت بينها وتنافس الخلافة عدد من البارزين فيها، ثم ظهرت جماعات ترفض أن تكون الإمامة من حق قريش وحدها، وأخيراً تبلور الخلاف حول الإمامة في اتجاهين: الأول يرى أن الإمامة تكون بالاتفاق والاختيار، ومن مؤيدي هذا الاتجاه الأمويون ولكل منهم

يشترطون أن يكون الخليفة قريشاً، ومنهم الخوارج وهم لا يشترطون كون الخليفة من قريش بل الخليفة حق للعربي والمجمي على السواء.

والاتجاه الثاني يرى أن الإمامة تثبت بالنص والتعيين، وأنصاره هم الشيعة - ما عدا الزيدية - وأنا موجز القول في فرق الخوارج والشيعة والمرجئة.

(١) الخوارج

إن الصورة النهاية لعقيدة الخوارج لم تبلور إلا بعد أن توقفوا عن مناهضة من يدهم السلطة وفرغوا للبحث النظري في عقائدهم. وقد رأينا أن الخوارج المتطرفين كادوا أن يستأصلوا في الواقع التي خاضوها إبان المسر الأموي، ولا سيما الأزارقة منهم، فمن الطبيعي أن يكون الفقه الخارجي المبلور من عمل الفرق المسالمة التي قدر لها أن تبقى، والإباضية منها بنوع خاص.

ونحن نلاحظ أنه منذ أن نادى الخوارج بشعار «لا حكم إلا الله»، اكتسبت دعوتهم الطابع الديني، إذ أنهم اضطروا أن يحكموا على عمل علي حين حكم الرجال في دين الله، فقد عدوا عمله هذا بإحدى الكبائر فحكموا بکفره وأرادوه على أن يشهد على نفسه بالکفر، وجرهم هذا إلى أن يتناولوا مسائين أساميتيين: الخليفة وشروطها، ومرتكب الكبيرة وحكمه، وهكذا نرى أن السياسة كانت الدافع الأول لإثارة الجدل في المسائل الدينية.

وقد ذهب الخوارج إلى أن الخليفة حق مشاع الجميع المسلمين، وليس وقفًا على قريش ولا على العرب، لأن الإسلام قد ساوي بين الجميع، وهم شديدو التمسك بحرفية النصوص القرآنية والتعاليم الإسلامية. فالذي يراه المسلمون أهلاً للخلافة ويختارونه لأنفسهم بمحض إرادتهم يغدو خليفة شرعاً لهم ولو كان عبداً جهشياً. ولعل أكثر الخوارج لم ينصرفوا عليهما في باديء الأمر لكونه من صلة النبي وإنما لامنه كان في نظرهم أجدر الناس بالخلافة وقد أجمع الناس على اختياره، ولذا اعتبروا الخارجين عليه آنذاك كفاراً كطاغة والزبير، فلما حكم في دين الله

لم يهدِّجَّرْأً بِتُولِي الْخِلَافَة وَوَجَبُ الْخُروجُ عَلَيْهِ . وَهَكُذا نَجَدُهُمْ قَدْ رَبَطُوا بَيْنَ سُلُوكِ الْخَلِيفَةِ وَعَقِيدَتِهِ ، وَقَادُهُمْ هَذَا بَعْدَهُنَّ إِلَى التَّعَمِيمِ حِينَ بَحْثُوا فِي شُرُوطِ صَحةِ الْإِيَانِ . وَلَا نَظَرَ الْخُوَارِجُ بِهَذَا الْمُنْظَارِ إِلَى حُكْمِ الْأَئُمَّةِ السَّابِقِينَ أَثْبَتُوا صَحَّةَ خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرٍ ، وَعَمَّا نَظَرُ فِي السَّنَينِ السَّتِ الْأُولِيِّ مِنْ حُكْمِهِ . وَتَبَرَّأُوا مِنْهُ فِي السَّنَينِ السَّتِ الْآخِرِيِّ وَحَكَمُوا بِكُفْرِهِ وَحَكَمُوا بِصَحَّةِ خِلَافَةِ عَلَيْهِ قَبْلَ التَّحْكِيمِ وَكَفَرُوهُ بَعْدَ ذَلِكَ .

وَالْأُصْلُ النَّافِيُّ الَّذِي يَقُومُ عَلَيْهِ الْمَذَهَبُ الْخَارِجِيُّ هُوَ مَسَأَةُ ارْتِبَاطِ الْإِيَانِ بِالْعَمَلِ ، وَعِنْهُمْ أَنْ لَا إِيمَانَ بِلَا عَمَلٍ ، وَنَظَرُوا بِهَذَا الْمُقْيَاسِ إِلَى مَرْتَكِبِ الْكَبِيرَةِ فَعَدُوهُ كَافِرًا حَكَمُهُ حَكْمُ الْمُرْتَدِينَ عَنِ الدِّينِ . وَقَدْ أَجَأَ حُكْمَهُمُ الْمُتَطَرِّفِ هَذَا سَائِرُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى اتِّخَاذِ مَوْقِفٍ مُحَدَّدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَأَةِ ، فَالْمَرْجِعَةُ لَمْ يَعْدُوا عَلَيْهِ مَعْدُوا الْعَمَلِ جُزْءًا مِنِ الْإِيَانِ وَلَمْ يَخْرُجُوا مَرْتَكِبُ الْكَبِيرَةِ عَنِ إِيمَانِهِ . وَقَدْ وَقَفَ أَهْلُ السَّنَةِ وَالْمُهَرَّلَةِ مَوْقِفًا وَمَسْطَأً فِي هَذَا الْأَمْرِ بَيْنَ الْخُوَارِجِ وَالْمَرْجِعَةِ .

وَلَيْسَ لِلْخُوَارِجِ نَظَرَةٌ مُوَحَّدةٌ إِلَى جَمِيعِ الْمَسَأَلَاتِ الْمُدِينِيَّةِ الَّتِي تَعْرَضُوا لَهَا ، إِلَّا أَنَّهُمْ يَتَفَقَّوْنَ فِي اعْتِبَارِهِمُ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الْمُعِينَ الْأَوَّلَ الَّذِي يَسْتَقِوْنَ مِنْهُ عَقَائِدَهُمْ ، وَهُمْ يَتَمَسَّكُونَ بِحُرْفِيَّةِ هَذِهِ الْآيَاتِ تَعْسِكًا يُشَيِّعُ أَحْيَانًا بِمَا فَطَرُوا عَلَيْهِ مِنْ سَذاجَةٍ مَرْدِهَا إِلَى نَشَأْتِهِمُ الْبَدُوِيَّةِ وَافْتَقَارِهِمُ إِلَى الْقَافِفَةِ الْفَلَسُوفِيَّةِ . وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ قَدْ اسْتَخَدُمُوا الْقِيَاسَ لِيُتَاحَ لَهُمْ تَعْمِيمُ الْأَحْكَامِ الْمُسْتَهْدَدَةِ مِنَ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ . وَإِذَا تَبَعَّنَا مَادَارِ بَيْنَ فَرَقِهِمُ الْمُخْتَلِفَةِ مِنْ جَدْلٍ وَمَنَاظِرٍ يَتَضَعَّ لَنَا مَدْى اعْتِدَهُمُ الْحَرْفِيُّ عَلَى النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ ، كَمَا تَبَجَّلَ لَنَا بِسَاطَةُ تَفْكِيرِهِمْ وَسَذاجَةُ مَنْطَقَهُمْ ، وَقَدْ اسْتَطَاعَ عَلَيْهِ وَابْنِ عَبَّاسٍ إِفْحَامَهُمْ وَدَحْضُ حِجَجِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ . وَقَدْ أَدَى تَمَسُّكُهُمُ بِحُرْفِيَّةِ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ إِلَى مَا يَشَبَّهُ أَنْ يَكُونَ تَنَاقِصًا فِي أَحْكَامِهِمْ ، فَعَلَى تَشَدُّهِمْ فِي تَكْفِيرِ مَرْتَكِبِ الْكَبِيرَةِ وَمَعْلَاهُمْ فِي تَقْدِيرِ عَقَوبَةِ الْكَاذِبِ وَقَفُوا مَوْقِفًا مُتَسَاهِلًا مِنْ مَقْتَرِفِ الزَّنْقِيِّ وَلَمْ يَحْكُمُوا بِرَجْمِهِ لِعدَمِ نَصِّ الْقُرْآنِ عَلَى ذَلِكَ ، كَمَا أَنَّهُمْ عَامَلُوا أَهْلَ الذَّمَةِ بِالْحَسْنِيِّ عَمَلاً بِوَصِيَّةِ الْقُرْآنِ ، فِي حِينَ أَنَّ الْمُتَطَرِّفِينَ مِنْهُمْ أَحْلُوا دَمَاءَ

مخالفتهم من المسلمين وذبحوا أطفالهم وبقرروا بطون نسائهم . وقد حدثنا أن واصل ابن عطاء وقع وأصحابه له في قبضة جماعة من الخوارج فما نجاهم من القتل إلا ادعاؤهم أنهم من الظالمين ، ثم لم يقنع واصل منهم بتخلصه هو وأصحابه بل حملهم على إبلاغهم مأمورهم اعتماداً على آية قرآنية أوردها لهم (١) . وكانوا يتورعون عن التقاط رطبة سقطت من شجرة نخل ثم لا يتورعون عن ذبح صاحب رسول الله التق الورع عبد الله بن خباب (٢) .

ومع هذا لا يسع الباحث المنصف إلا ملاحظة ما في عقيدة الخوارج وحركتهم من نزعة مثالية تتضح سواء في الناحية الدينية في توخيهم مراعاة أحكام الدين بخنثى الدقة والحرم ، أو في الناحية السياسية في دعوتهم إلى قيام حكومة مثالية على النحو الذي يتصورونه ، أو في الناحية الأخلاقية ، مما دفعهم إلى إدراج بعض المسائل الأخلاقية في أحكام العبادات كالتهرب من الكاذب . وهذه المثالية الأخلاقية حملت بعض فرقهم على الزعم بأن سورة يوسف ليست من القرآن الكريم لأنها لا يجوز أن يكون في كتاب الله قصة عشق (٣) .

ولم يكن غريباً أن ينشق الخوارج على أنفسهم ويفترقوا إلى شعب متعددة وذلك لاختلافهم في تأويل الآيات القرآنية واتشددهم في محاسبة زعمائهم ومصالحهم في التمسك بالمبادئ التي اعتنقوها (٤) .

(١) *الكامل للمربرد* ١٠٦/٢ .

(٢) *الخبر في الطبرى* ٦٠/٤ .

(٣) *الفائلون* بهذا فرقة من الخوارج تعرف بالمعاردة : *الملال والنحل* ١١٥/١ .

(٤) تشير المصادر إلى أن أول انشقاق في حركة الخوارج قد حدث منصرف الشراة من الحجاز بعد أن شاركوا في الدفاع عن بيت الله الحرام إلى جانب ابن الزبير (عام ٦٤ هـ) . ويروي الطبرى أنه في هذا العام خالف نافع بن الأزرق مقالة أصحابه من الخوارج حين قال بتكفير الفعد منهم . ولكن الخلاف بين الخوارج قد ظهر في الواقع بعد مفارقتهم عليا وإن لم يؤد إلى ظهور فرق مستقلة . فالمربرد يذكر أن الصفرية خلعت معدان الإيادى لأنه تبرأ من الفعد وبايعوا عبد الله بن وهب الراسى (*الكامل* ١٠٦/٢) . وقد من المؤرخون بهذا الخبر دون أن ينتبهوا إلى قيمته التاريخية ، فهو بدل بصراحة على أن الخوارج قد اتخذوا منذ أول =

ولا يعني في بحني هذا أن أتحدث عن معتقدات كل من فرق الخوارج ، ولكنني أرى من المفيد أن أشير إلى أبرز نقط الخلاف بين فرق الخوارج البارزة لصلتها بالمناظرات التي كانت تقع بين زعماء فرق الخوارج وفقهائهم . والذي تجمع عليه شتى فرقهم قولهم بأن العمل جزء من الإيمان ، وأن الخلافة حق المسلمين كافة وأنها تم عن طريق الاختيار الحر . وفيها عدا هذا لا نكاد نجد لهم رأياً يجتمعون عليه ، بل إن منهم من كان يرى أن لا حاجة إلى الإمام - وهو رأي النجدات وكان يقول به أكثر الخوارج في أول أمرهم - وعلى الناس أن يتناصروا ويعملوا بكل كتاب الله ، فإن لم يتم لهم هذا إلا بوجود إمام فلا مانع من اختياره .

ومما وقع فيه الاختلاف مسألة الخروج والتقية . فأكثر الخوارج لا يكفرون القاعدة ولا يراؤن منهم ، والتفقية جائزة لقوله تعالى : « إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً »^(١) ولقوله أيضاً : « وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ »^(٢) ، إِلَّا أَنَّ الْجِهَادَ إِذَا أُمِكِنَ خَيْرٌ مِنَ الْقَمْدَةِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : « وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا

= عهدهم موقعاً محدداً من بعض المسائل كمسألة القعود عن القتال . وفي أخبار أبي بلال الخارجي أنه انكر سلك زحاف الطائي وفريب بن مررة الذين ظهر أياً زياد وأخذوا يستعرضان الناس (الكامل ١٥٣/٢) وأنا أستظاهر بما قرأته من أخبار الخوارج أن كلية الصفرية كان يراد بها أول الأمر مطلق الخوارج أو المحكمة الأولى ، وهي ليست نسبة إلى عبد الله بن صفار أو زياد بن الأصفهاني ، والا لغيل لهم الصفارية أو الصفرية . وقد ذكر البرد أن أكثر المتكلمين يذكرون أنهم قوم نهكتهم العبادة فاصفرت وجوههم (الكامل ١٧٠/٢) . وهذا الرأي يؤيد ما ذهبت إليه من أن المراد بهم في أول الأمر مطلق الخوارج ثم لما خالف نافع بن الأزرق أصحابه تبنته طائفة من الخوارج هم الذين تكونت منهم فرقة الأزارقة ، ووقع جسنه الخلاف بين الخوارج : فالذين ظلوا على رأي الخوارج الأوائل هم الصفرية ، وتابعت طائفة أخرى أبا يحيى ، وكان رأيه وسطاً بين مذهب ابن الأزرق ومذهب سائر الخوارج . ولم يكن حينذاك ثمة خلاف كبير بين النجدات والإباضية والصفرية . وقد ذكر البرد أن الصفرية والنجدية والإباضية كانوا في ذلك الوقت يقولون بقول ابن أبياض ، وأنه أقرب الأقوال إلى السنة (الكامل ١٨٠/٢) ثم ظهرت بعد سائر فرق الخوارج التي ناهز عددها الخمس والعشرين ، على ما تذكره كتب الفرق .

(١) آل عمران آية ٢٨ .

(٢) سورة غافر آية / ٢٨ .

عظيماً^(١) ، والأزارقة يخالفون جمور الخوارج في القعد والتقية ، فهم يكفرون القعد ويرأون منهم ولا يحيزون التقية ، وقد احتجوا في تأييد ما ذهبوا إليه بآيات من القرآن أيضاً منها قوله تعالى : « يُجاهدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ^(٢) » . وقد كانت بين الأزارقة ومخالفتهم مذاخرات وجدل بشأن الخروج ، ومن كان ينصر التقية عمران بن خطوان الشاعر الخطيب ، ويدرك المبرد أنه كان في وقته رئيس قمد الصفرية وشاعرهم ومفتدهم^(٣) .

ومن نواحي الخلاف أيضاً موقف الخوارج من يخالفونهم في المذهب . فالازارقة ينطرون فيمدون مخالفتهم كفاراً كما رتدين من العرب لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف ، والدار دار كفر إلا من أظهر إيمانه . وهم لا يحلون أكل ذبائح من خالفهم ولا الزواج فيهم ولا توارثهم ، وأباحوا استعراضهم وقتل أطفالهم ونسائهم واحتجوا بقوله تعالى : « قَالَ نُوحٌ رَبِّنَا لَا تَنْذِرْنَا عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِنَ دِيَارًا . إِنَّكَ إِنْ تَنْذِرْنَاهُمْ يُضْلِلُوكُمْ وَلَا يَلْدُوْكُمْ إِلَّا فَاجْرًا كُفَّارًا^(٤) » . والبهيسية يتوصتون فيحيزون الإقامة في ديار مخالفتهم والتزوج منهم وتوارثهم مع اعتبار ديارهم ديار كفر واعتبار مخالفتهم مافقين يظرون الإسلام ، وحكمهم عند الله حكم المشركون ولذلك أجازوا الاستعراض وقتل الأطفال . وموقف الإياصيين أكثر اعتدلاً وأقرب إلى رأي أهل السنة ، فهم لم يهدوا مخالفتهم مشركون بل كفاراً بالنعم لتمسكهم بالكتاب وإقرارهم بالرسول ، ولذا لم يحيزوا استعراضهم ولا قتل أطفالهم ونسائهم . واعتبروا ديارهم دار توحيد ، ومنها كهم ومواريثهم والإقامة فيهم حل طاق .

وتعتبر الرسائل التي تبودلت بين نافع بن الأزرق ونجدة بن عامر عند وقوع الاختلاف بينهما ، ورسائل نافع إلى ابن الزبير وإلى خواج البصرة ، من أقدم

(١) سورة النساء / ٩٥ .

(٢) سورة المائدة آية / ٥٤ .

(٣) الكامل للمبرد ٢/١٨٠ .

(٤) سورة نوح / ٢٧ .

الوثائق في الفقه الخارجى وفي بيان وجوه الخلاف بين فرق الخوارج الأولى وحجج كل فرقة^(١).

وحيثما ظهرت الفرق الكلامية في العصر الأموي تسرب إلى عقائد الخوارج طرف من المباحث الكلامية ، كالكلام في الاستطاعة وخلق الافعال ، على أنه ، بوجه عام ، ظلت العقائد الخارجية طوال العصر الأموي بعيداً عن التأثيرات الفلسفية والنظر العقلي المجرد .

(ب) الشيعة

أخطر الحركات الدينية التي ظهرت في العصر الأموي هي دون ريب حركة الشيعة وقد كانت من شأنها انقسام المسلمين منذ ذلك الحين إلى فريقين متقابلين هما السنة والشيعة .

وكانت النواة الأولى لظهور فكرة التشيع لعلى قد وجدت منذ وفاة الرسول عليه السلام حين رأت طائفة من الصحابة أن علياً أولى الصحابة بتولي الخلافة ، وكان من هؤلاء سلمان الفارسي وأبو ذر الغفارى والمقداد بن الأسود الكندي . والشيعة ينسبون إلى سلمان كثيراً من العقائد التي لم تظهر في الواقع إلا في عصر متأخر ، كما ينسبون إليه نبوءات كثيرة عن مصير الملوين ، حتى لقد حملت كثرة الأساطير المضافة إليه بعض الباحثين على الشك في وجوده^(٢) .

وما لبث أنصار علي أن كثروا وقوى أمرهم ، ولا سيما في الحقبة الأخيرة من حكم عثمان . وقد أثبتت حزب الشيعة وجوده منذ ذلك الحين في صورة حزب سياسى يناصر علياً ويسعى في أن تصير الخلافة إليه . واعمل فكرة توارث الخلافة في أبنائه لم تكن قد أصبحت آنذاك مبدأ مسلماً به عند جميع أنصاره ، إلا أن الكثرة من شيعته كانت تعتقد أن الخلافة حق لآل البيت دون سواهم ، وأن الإمامية يعني أن

(١) انظر هذه الرسائل في الكامل للمبرد ٢ / ١٧٦ وما بعدها .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة الفرنسية ٤ / ٣٦٢ .

تكون وراثية فيهم ، ومع ذلك فإن فكرة الإمام كانت ما تزال حتى ذلك الحين أدنى إلى الرعامة السياسية منها إلى الرعامة الدينية .

وقد كانت هناك محاولات ، منذ عهد علي ، ترمي إلى إحاطة على بهالة قدرمية تبعده عن الصورة البشرية ، وتعزى هذه المحاولات إلى عبد الله بن سبأ وإلى أتباعه المعروفين بالسببية .

وفي العصر الأموي تبلورت المعتقدات الشيعية وبرز الطابع الديني في حزب الشيعة حتى غلب على الطابع السياسي ، كما تطورت فكرة الإمام وأخذت الصورة السياسية تتخلص فيها ، على حين أخذ الجانب الديني يبرز ويقوى . وما ابْتِ الإمام عند الشيعة أن أصبح يمتلك سلطة روحية ودينية لم يعترف أهل السنة بِمَثَلِها خلفائهم الشرعيين . ومحور الخلاف الأساسي بين الشيعة ومخالفتهم من أهل السنة وغيرهم هو مسألة الخلافة أو الإمامة فشأن خلاف بين الفريقين في طريقة اختيار الإمام أولًا ثم في الصورة التي يتمثلها كل منها للإمام وثمة خلاف ثالث في بعض المقائد .

فالخليفة عند أهل السنة هو من يقع عليه اتفاق المسلمين وبما يعوذه مختارين لامن الرسول لم يحدد طريقة لاختيار الخلفاء من بعده ولم ينص على خلافة أحد . وقد اشترط أهل السنة أن يكون الخليفة قرشيًّا لأن قريش كانت أجدى قبائل العرب بتولي هذا الأمر ، وقد استعمال بعضهم بأحاديث الرسول عليه السلام خواها أن الناس تبع لقريش^(١) . أما الشيعة فلا ترى أن الإمامة أمر دينوي منوط باختيار العامة ، وإنما هي من أركان الدين الأصيلة التي لا يجوز تركها لل العامة . فالرسول هو الذي نص على إماماة علي بعده . فهو ورثت النبي ووصيته ، والإمام لا تخرج عن أولاده ، « وإن خرجت فبظلم يكون من غيره ، أو بتقية من عنده^(٢) » وللشيعة آقوال يستدلون بها على أن محمدًا عليه السلام أوصى بالأمر بعده لعلي ، ومخالفتهم يشكرون في صحة هذه الأحاديث . ولعل ابن سبأ هو أول من أشاع القول بالوصاية

(١) في تيسير الوصول ٣٣/٢ طائفة من هذه الأحاديث .

(٢) الملل والنحل ١/١٣١ .

لعله ، وكانت أقواله سبباً في إثارة أهل الأمصار على عثمان ، ثم شاعت هذه الفكرة حتى أصبحت من أساس المذهب الشيعي .

والمعتدلون من الشيعة كانوا يرون ، استناداً إلى هذه العقيدة ، أن علياً كان أحق بالخلافة من أبي بكر وعمر وعثمان . وذهب المتطرفون منهم إلى أنهم كانوا مقتصدين لحق علي الشرعي ، وكفراً بهم لأنكارهم الوصية ، واغتصابهم الخلافة . وشاعت كلة الوصي المدلاة على علي حتى استغنى بها عن ذكر الإسم ، وتناولها دعاة الشيعة وشمراؤهم وخطباؤهم حتى استقرت صحتها في أذهان الشيعة كافة .

وال الخليفة عند أهل السنة يختاره المسلمون ويبيّنونه للشهر على شؤون الرعية ورعايتها مصالحها وتنفيذ أحكام الشريعة وإقامة الحدود والذود عن حياض الإسلام والضرر على أيدي من يريد به شرّاً ، سواءً كان عدواً خارجياً أم كان من دعاة الفتن وأهل البدع والأهواء . وربما وجد الخليفة من واجبه تفقيه المسلمين بشئون دينهم ومن حقه أن يجتهد في أحكام الدين ، شأن عمر حين منع زواج المتعة مثلاً ، ولكن الخليفة لم يكن يرى لنفسه حق التشريع الديني ولم تكن له على رعيته سلطة روحية كسلطة البابا على أتباعه مثلاً . ها هو ذا عمر يدل الناس على من يعتبرون أفقه المسلمين بأحكام الدين فيقول في خطبة له : « يا أيها الناس ، من أراد أن يسأل عن القرآن فليأتِ أبي ابن كعب ، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأتِ زيد بن ثابت ، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأتِ معاذ بن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتِني .. »^(١) .

ومن المحقق أن منصب الخليفة لم يكن سياسياً خالصاً ، لأن مؤسس الدولة الإسلامية الأول لم يكن زعيماً سياسياً خالصاً فحسب بل كان إلى ذلك شيئاً يحمل رسالة دينية ، فمن الطبيعي أن يعتبر خلفاؤه أو صياغ على هذا الدين وحمة له ، وهم الذين يؤمنون المسلمين في صلواتهم . ولكن المسلمين لم يضعوهم قط في مرتبة الرسول ولم ينحوهم حق التشريع الديني ولا أضفوا عليهم قداسة دينية ترفعهم عن مستوى البشر .

أما الإمامة عند الشيعة فتختلف اختلافاً جوهرياً عن الخلافة السنوية ، فالإمام

عندهم ورثت الرسول في رسالته وفي هداية المسلمين ، وهو عند جموريهم ، وواسطة بين الله وبين الخلق ، يتصل به لا عن طريق الرؤبة وإنما من طريق الوحي المسموع ، وهو بهذا مختلف عن الرسول . والله قد أودع في الأئمة علمه وبحاهم من نوره وظهورهم من الأوزار وعصبهم من الذنوب . والإيمان بالإمام ركن أساسى في عقائد الشيعة ، ومعرفة الله عندهم إنما تقوم على الإيمان بالله ورسوله وموالاة علي والائتمام به وبالائمة من بعده ، والبراءة إلى الله من عدوهم .

وقد غالت بعض فرق الشيعة في تقديس علي والائمة من بعده فلم تكتف بالقول في أن في الائمة جزءاً إلهياً يتوارثونه منذ آدم ، بل ذهبت إلى حد القول بتجسد الائمة في علي والائمة من بعده .

والذي يعنيانا هنا رصد التطور الذي ألم بالعقيدة الشيعية في عصر بنى أمية . فإن شيعة علي ، شأنهم شأن الخوارج ، لم يستطيعوا الاحتفاظ طويلاً بوحدة كلامهم ، فسرعان ما اختلفت نظراتهم واتجاهاتهم وتشعبت فرقهم ، فكان منهم المعتدون والمتطرسون والغلاة ، وكان لكل من هذه الفرق منابع تستقي منها . وفي العصر الذي تتحدث عنه كانت التأثيرات الغالبة تبع من الديانات اليهودية والنصرانية والزرادشتية ، ثم انضمت إليها في العصور التالية روافد أخرى من الديانة الهندوسية والفلسفة الأفلاطونية المحدثة . وكانت حصيلة هذه المؤثرات ظهور بعض عقائد غريبة عن الإسلام في بعض طوائف الشيعة كالقول بالحلول والتناسخ والرجعة والتجسيم والبداء . مما باعد مباعدة كبيرة بين مذهب أهل السنة ومذاهب هذه الطوائف من غالبية الشيعة .

وقد ظهرت بوادر الانشقاق في جماعة الشيعة منذ زمن علي وبعيد وفاته إذ أن جماعة من الشيعة غالوا في تقديس علي حتى ألهوه ، ويقترب ظهور هذه الجماعة الغالبية باسم عبد الله بن سباء ، وكان من يهود اليمن ثم أسلم ، وقد لعب دوراً خطيراً في إثارة الفتنة وبث الأقوال المضلة . ويررون أن علياً أنكر مسلك هؤلاء

السببية فأحرق طائفة منهم ونفي ابن سما إلى المداشر ^(١). ولما قتل علي رفض ابن سما أن يصدق بموته ولو أتوه بدماغه ألف مرة ، لأن فيه الجزع الإلهي ، وهو الذي يحيى في السحاب والرعد صوته ، والبرق تبسمه ، وسينزل إلى الأرض بعد حين ليملأها عدلا كما ملئت جورا ^(٢). وروى ابن سعد أنه قيل للحسن بن علي إن ناسا من الشيعة يزعمون أن عليه دابة الأرض ، وأنه سمعت قبل القيمة ، فأنكر مسلكهم ورأهم أعداء لأبيه لأنصارا له ^(٣). وربما كان ابن سما استمد قوله بالترجمة من العقيدة اليهودية التي تقول بترجمة النبي إلياس ، وعلى أي حال يبدو أنه أول من أشاع القول بترجمة الأئمة كما أنه أول من أظهر القول بالنص على إمامية علي ومنه انشعبت طوائف الغلاة ^(٤). وقد أحرق خالد القسري عام (١١٩هـ) طائفة من الغلاة كانوا يقولون بالآية على وتناسخها في الأئمة من بعده ^(٥).

وكما أن مسألة الإمامة كانت أبرز مسائل الخلاف بين أهل السنة والشيعة فكذلك كانت السبب في انقسام الشيعة وتشعب طوائفهم منذ وقت مبكر ، فقد جنح جمهورهم إلى أن الإمامة في أبناء فاطمة دون سواهم ، وأكثرهم على أنها في الحسين وأبنائه فحسب . وخالفت طائفة فقالت إن عليه قد أوصى لابنه محمد بن الحنفية بعد الحسن والحسين ، واشتهر بهذا القول المختار الثقفي وعرف أتباعه بالكتسانية ^(٦). وقد ثار المختار على بني أمية ودعى لابن الحنفية زاعما أنه الماهدي المنتظر الذي جاء لينشر العدل ويرفع الظلم ، وتبين هذا من خطبه وكتبه التي حفظتها المصادر التاريخية . روى الطبرى أن المختار لما قدم الكوفة خطب في جماعة من الشيعة فقال : «إن

(١) الفرق بين الفرق للبغدادي ص ١٥ .

(٢) الملal والنحل ١٥٥/١ .

(٣) طبقات ابن سعد ٢٦/٣ . وقولهم دابة الأرض مستمد من الآية القرآنية : «إذا وقع القول عليهم أحرجنا لهم دابة من الأرض تتكلمهم» .

(٤) الملال والنحل ١٥٥/١ .

(٥) الكامل لابن الأنبار ٥/١٥٤ .

(٦) نسبة إلى كيسان ، وقد اختلف فيه فقال قوم إنه مولى علي بن أبي طالب وقال آخرون انه أحد تلامذة ابن الحنفية وذهب بعضهم إلى أن المختار بن عبيد كان يعرف بكيسان .

المهدي" ابن الوصي محمد بن علي يعني إيمكم أميناً وزيراً ومنتخباً وأميراً...^(١) وأظهر المختار القول بالباء ، لأن الأحداث كانت ربه خالفت تكتناته وكان يقول : قد بدا لربكم . فلما مات ابن الحنفية (عام ٨١٥) زعم الكيسانية أنه لم يمت وأنه مقيم بجبل رضوى وأنه سيرجع بهـ . وفيه يقول كثير ، وكان كيسانيـاً :

وسبطٌ لا يذوقُ الموت حقَّ
يقودُ الخيلَ يقدمها اللواءُ
تفيـب ، لا يرى فيهم زماناً
برضوى عنده عـسلٌ وماه

ويقول الشهـرستاني إن هذا كان بدء القول بالغيبة ثم بالرجعة بعدهـ ، ثم صار بعدئذ ركناً من أركان التشـيع عند أكثر طوائف الشـيعة^(٢) .

وأما جهـور الشـيعة فكان حينئذ على رأـي الإمامـية الذين نشـأت في كـنفهم أـبرز عـقائد الشـيعة ، وتشـعبـت عنـهم أـقوى طـوائفـهم وأـكثـرـها عـدـداً وأـبعـدـها أـثـراً . ويتـفق هـؤـلاء على إثـبات إـمامـة عـلـي بـعـدـ النبي عـلـيـه السـلام بـالـنصـ والـتعـين ، من طـرـيق التـعـريـض تـارـةـ والـتـصرـيع تـارـةـ أـخـرىـ، وـقـدـ اـسـتـهـانـواـ بـإـثـباتـ قـوـلـهـ بـأـحـادـيثـ نـسـبـوـهـاـ إـلـىـ الرـسـوـلـ كـقـوـلـهـ فـيـ عـلـيـ : « اللـهـمـ وـالـهـ وـالـهـ وـعـادـ مـنـ عـادـهـ إـلـيـهـ إـلـيـهـ ... » ، وـهـمـ يـنـفـقـونـ أـيـضاـ فـيـ مـوـقـعـ الـإـمـامـةـ ، بـطـرـيقـ النـصـ وـالـتعـينـ أـيـضاـ مـنـ عـلـيـ إـلـىـ الـحـسـنـ فـالـحـسـنـ فـوـليـ زـيـنـ الـعـابـدـيـنـ فـمـحـمـدـ الـبـاقـرـ ، فـيـجـمـعـ الصـادـقـ . ثـمـ وـقـعـ الـاـخـتـلـافـ فـنـهـمـ مـنـ قـالـواـ لـهـاـ فـيـ اـبـهـ مـوـسـىـ الـكـاظـمـ وـيـسـوـقـونـهـ فـيـ أـوـلـادـهـ حـتـىـ الـإـمـامـ الثـانـيـ عـشـرـ مـحـمـدـ الـمـهـديـ الـمـتـظـرـ الـذـيـ اـخـتـفـىـ فـيـ حدـودـ مـنـهـ ٢٦٠ـ ، وـهـمـ إـلـئـاصـرـيـةـ . وـمـنـهـ مـنـ قـالـ إـنـ إـمامـةـ بـعـدـ جـمـعـ الصـادـقـ فـيـ اـبـهـ إـسـمـاعـيلـ وـهـوـ رـأـسـ طـائـفةـ الـإـسـمـاعـيلـيـةـ ، وـهـمـ يـخـتـمـونـ سـلـسـلـةـ أـئـمـةـ الـظـاهـرـيـنـ بـالـإـمـامـ السـابـعـ .

عـذـبتـ الـإـمـامـيـةـ بـإـبرـازـ فـكـرـةـ الـإـمـامـةـ وـبـالـخـاجـ عـلـىـ الـاعـنـقـادـ بـالـإـمـامـ حـتـىـ جـعـلتـ الـإـيمـانـ بـهـ رـكـنـاـ مـنـ أـرـكـنـاـ الـعـقـيدةـ . وـرـأـتـ أـنـ مـنـ لـمـ يـوـالـ عـلـيـهـ وـيـأـتـمـ بـهـ وـبـالـأـئـمـةـ مـنـ بـعـدـهـ لـمـ يـعـرـفـ اللهـ . وـأـضـفـتـ عـلـىـ الـإـمـامـ صـفـاتـ مـاـ كـانـ الـأـئـمـةـ الـأـوـلـوـنـ يـدـعـونـهـاـ

(١) الطـبـريـ ٤٤٩/٤ .

(٢) المـلـلـ وـالـعـلـلـ ١٣٣/١ .

لأنفسهم . من ذلك المقصدة عن كبار الذنوب وصغرها ، فالآئمة لا تستهويهم الآلام ولا يقترون الأذار ، وكيف لا يكونون موصومين وهم المكافرون بهداية البشر أو كيف يصدر عنهم الشر وقد حل فيهم الجزء الالهي . ومن هنا كان اعتمادهم في التشريع على ما يأتي به آئمته لا على الإجماع الذي يعتبر أحد مباديء التشريع الأصلية عند أهل السنة .

والقول بخلود الإمام الأخير في طوائف الإمامية ثم برجمته في آخر الزمان لينشر العدل ويحيى الظلم كان من المقادير التي قدر لها أن تناول حظاً كبيراً من الزيوع في العصر الأموي والمصوري التي تاته . وقد يكون مصدر تسرب هذه العقيدة إلى الشيعة الديانتين اليهودية والنصرانية ، ولكن من المحقق أن الأحوال العامة في عصر بني أمية كانت تشجع على انتشار هذه العقيدة في أوساط الشيعة . فقد نكل بنو أمية بالشيعة شر تكيل ، وقاموا بحرکاتهم أعنف قمع ، وأخذهم عمامتهم بأقصى الشدة والقسوة ، وباءت ثوراتهم كلها بالخيبة والإخفاق . فكان من ذلك أن طوى الشيعة جوانحهم على المراة والأسى ، وتابوا إلى الله لينجيهم من محنتهم وينتصر لهم من أعدائهم ، فكانت فكرة المهدى المنتظر الذي يأتي لينصف المظلوم وينشر العدل ورجع أماناتهم الحبيسة وتملأ يدهم به أحزانهم وينفسون بها عن صدورهم المكرورة المتشوفة إلى فرج من الله قريب ، وما بعثت أن أصبحت عقيدة راسخة من عقائدهم .

على أن عقيدة المهدى المنتظر لم تكن وقفاً على الشيعة في عصر بني أمية بل قال بها أيضاً بعض أبناء البيت الأموي فشاعت عندهم فكرة «السفياني» المنتظر التي تقابل فكرة المهدى عند الشيعة ، وعزا بعض الباحثين خبر السفياني إلى الامير الاموي خالد بن يزيد الذي خاتمت آماله في بلوغ الخلافة (١) . وقد وضع غوله تسيير أن لهذه العقيدة نظائرها في بيمات أخرى غير إسلامية (٢) .

(١) تفصيل الخبر في ضحى الاسلام ٢٣٨/٣ .

(٢) العقيدة والشريعة ص ١٩٢ .

أدى إذن اضطهاد المتصل الذي تعرض له الشيعة طوال العصر الأموي ، والمحن المختدم في صدورهم على الأمويين الذين سلبوهم تراثهم وامتهنوه واضطهدوهم وسفكوا دم أمتهم ، ثم شعورهم بالعجز عن النضال الحربي لاسترداد حقبهم السليبة ، أدى هذا كله إلى ظهور فكرة المهدى كما أدى إلى أمور أخرى غيرها وأبرزها جنوح الشيعة إلى الأخذ « بالثقة » . وقد رأينا أن بعض فرق الخوارج كان لا يرى ضيراً من اصطناع التقية عند تغدر الخروج . إلا أن التقية عند الإمامية لم تكن ضرورة يكرهون عليها وإنما أصبحت ركناً من تعاليمهم وأصلاً من أصول مذهبهم . وقد أعطت التقية فرق الشيعة في العصور التي اضطهدوا فيها طابع جماعية سرية تعمل في الخفاء على بث دعوتها والترويج لأفكارها وإعداد العدة للثورة متى تهيأت أسبابها مع التظاهر بالولاء والطاعة لأولي السلطان اتقاء بطيشهم وانتقامهم . فعلى الشيعي أن يخفي عقيدته ويأخذ بالثقة رعاية لصالحة جماعته وتغريباً بخصوصه . ومن هنا اتجهت بعض طوائف الشيعة إلى سكمان عقائدها وإلى اصطناع ضروب من الرمز والكتابة في مؤلفاتها . وقد أثر عن أئمة الشيعة أقوال كثيرة في تأييد التقية واعتبارها من أركان العقيدة وأصلاً من أصول الدين ^(١) .

وما أدى إليه اضطهاد الشيعة أيضاً اصطباغ أدبهم بصبغة الحزن والتشاؤم والبكاء وكثرة حديثهم عن المحن التي ابتلي بها آل البيت وشيعتهم ، حتى كانت أعياد الشيعة التي يختلفون بها مآتم ومناسبات لتجديد ذكرى محنهم ومصارع شهادتهم ، وسأفصل القول في هذه المسنة الفالبة على أدب الشيعة حين أتصدى للكلام على خصائص الخطابة الاموية .

هذه هي أبرز عقائد الشيعة الإمامية التي ظهرت في العصر الأموي وقد كان الإمام جعفر الصادق الذي عاش في الحقبة الأخيرة من العصر الأموي وصدر العصر العباسي اليده الطولي في تبلور جمل المسائل التي يتناولها فقه الشيعة الإمامية .

(١) في كتاب الكافي لـ الكليني طائفة من هذه الأقوال .

وفي مستهل القرن الثاني للهجرة حدث تطور آخر في العقيدة الشيعية تجلى في ظهور فرقه جديدة هي فرقه الزيدية أتباع زيد بن علي بن الحسين الذي ثار على الدولة الأموية وقتل (عام ١٢٢ هـ) ثم ثار بعده ابنه يحيى بخراسان وقتل أيضاً (عام ١٢٥ هـ) ، على ما يذكر في الفصل السابق .

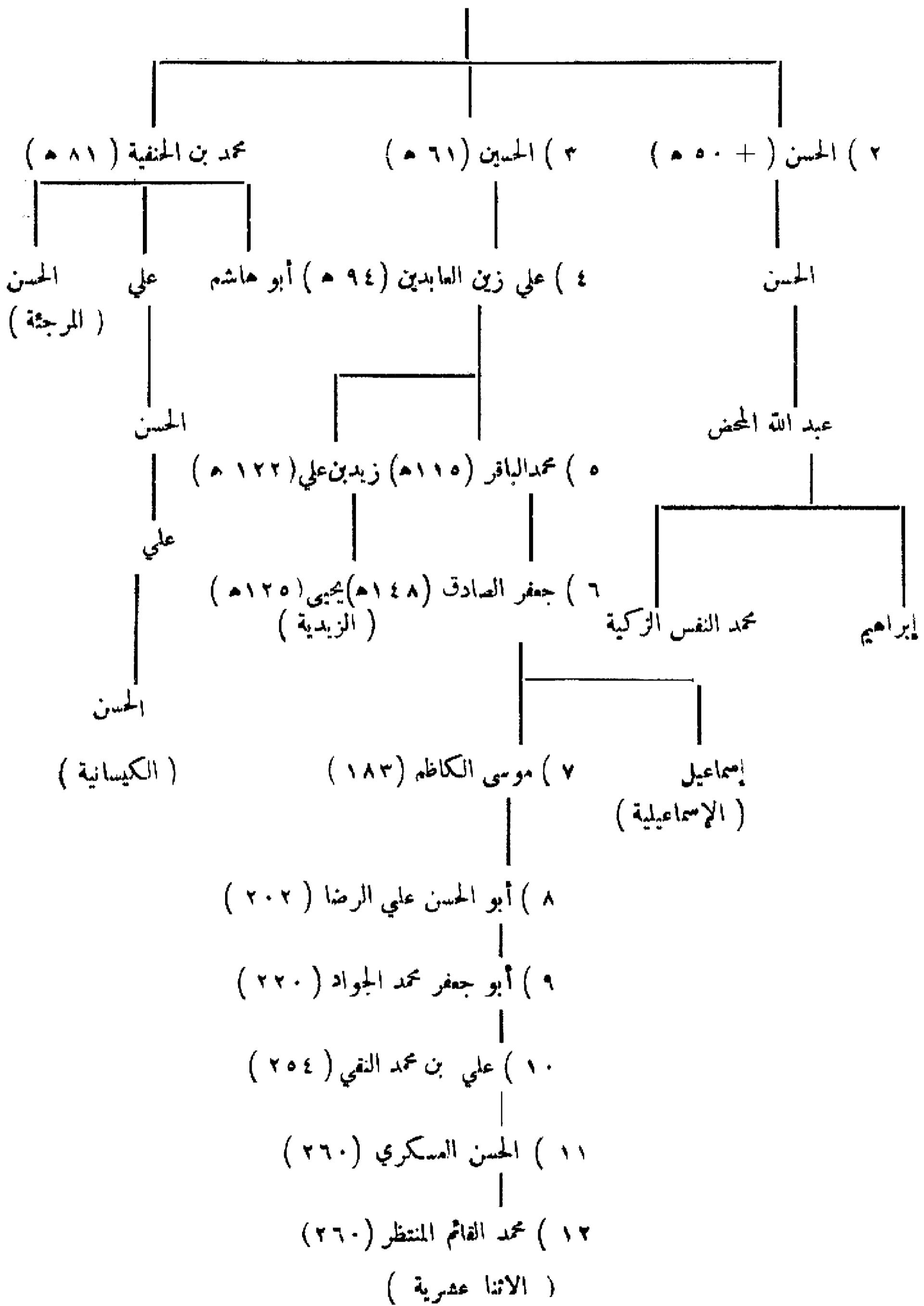
وتعتبر فرقه الزيدية أقرب فرق الشيعة إلى مذهب أهل السنة وأكثرها اعتدالاً وأوفرها حظاً من النظر العقلي ، ونحن نستطاع أن نزد انحراف زيد وأتباعه عن مذهب الإمامية إلى تلمذه لشيخ المعتزلة واصل بن عطاء . وكان زيد حريصاً على التفقه في العلم والوقوف على الاصول والفروع فكان واصل أمتداده في الاصول ، فلما جهر زيد بتعاليمه التي يخالف بها تعاليم الإمامية لم يخف ما بها من تأثر بأفكار المعتزلة ، حتى صار أصحاب زيد كلهم معتزلة . وقد روى الشهيرستاني أن مناظرة جرت بين زيد وبين أخيه محمد الباقر ، وأن هذا قد أخذ على أخيه اقتباصه العلم عن واصل الذي جوز الخطأ على جده علي في قتاله الناكرين والمارقين ، كما أخذ عليه كلامه في القدر ، شأن المعتزلة ، واشترطه الخروج في الإمام (١).

والذي ذهبت إليه عقائد الزيدية أن الإمامة وقف على أولاد فاطمة ، فلا يحيزن إمامه محمد بن الحنفية ، على أنهم لم يحصروها في أولاد الحسين بل قالوا إن كل فاطمي عالم زاهد شجاع سخي خرج بالإمامية يصلح أن يكون إماماً . فالإمامية عند زيد هي الإمامية الایيجابية النشطة المناضلة لا الإمامية السلبية المسالمية ، وشرطه الخروج في الإمام هو مادفعه إلى الثورة علىبني أمية .

ومما فارق به زيد سائر الشيعة قوله بجواز إمامـة المفضول مع قيام الأفضل ولذلك لم يقف زيد من أبي بكر وعمر موقف غيره من الشيعة فلم يتبرأ منها ولم يدع إلى لمنها ، ولهذا انقض عنـه كثير من الشيعة حين دعا إلى الثورة . كما أن الزيدية يخالفون الإمامية في عدم قولـهم بعصمة الأنـة وفي عدم جنوحـهم إلى التقىـة وفي إنكارـهم رجـمة الأنـة ، ومن هنا يتضح لنا غلبة النـزعـة المـقلـية على عـقـائـدـ الزـيدـيةـ واعـتـدـالـ مـذـهـبـهمـ .

سلسل أئمة الشيعة

١) علي بن أبي طالب



ولم يؤدِّ لاخفاق ثورة زيد وابنه الى انقراض فرقه الزيدية بل على تقدير هذا أتى بع هذه الفرقه أن يشتد أزرها ويكثر أنصارها في العصور التالية وما يزال لهذه الفرقه اليوم أتباع كثيرون في أماكن شتى من العالم الاسلامي .

المراجعة

لا تهمطينا المصادر التي بين أيدينا صورة واضحة عن نشأة حركة المرجئة وتطور مذاهبهم . ولم يَرَدْ هذا الفموض الذي يكتنف تاريخ حركتهم الى فقدان المصادر التي تتحدث عن مذاهبهم وأخبارهم من جهة ، ومن جهة أخرى الى وقوفهم موقفاً محايدهاً في الغالب من الأحداث التي حفل بها عصر بي أمية . وكذلك كان مذهبهم الديني سلبياً لا ينطوي على حلول إيجابية كقبيلة كافر بأن يجعل منه مذهبها كلامياً يطاول الأيام ، فكانت حركتهم قليلة الخطر ، قصيرة العمر ، فلم يعن المؤرخون بأخبارهم عناتهم بأخبار الفرق القوية التي ناضلت سواء في ميادين القتال أو على صعيد الفكر .

وقد يبدو لأول وهلة أن مذهب الإرجاء مذهب ديني صرف لا علاقة له بالسياسة ، فإن ما نجده في كتب الفرق عن المراجعة لا يسبغ على حركتهم أي لون سياسي . والواقع أن حركتهم كانت وليدة دوافع سياسية ودينية في آن واحد ، شأن فرقتي الشيعة والخوارج ، ثم ما لبثت أن تحولات إلى مذهب ديني يبحث في المسائل التيثار الجدل حولها في ذلك الحين ويحدد موقفه منها .

ونستخلص من إشارات عابرة نجدها في بعض المصادر أنه قد ظهرت حركة المراجعة أولاً لها بمحركه المراجعة الأولى . من ذلك ما يرويه ابن سعد من أن محارب بن دثار الذي توفي في ولاية خالد القسري كان من المراجعة الأولى الذين كانوا يرجئون علياً وعثمان ولا يشهدون ببيان ولا كفر^(١) . ويوضح ابن عساكر أمر هؤلاء المراجعة الأوائل فيقول إنهم الشراك الذين عادوا من المغازي لغير مقتل عثمان فوجدوا الناس مختلفين والفتنة قائمة ، والقوم بين قائل بأن عثمان قتل مظلوماً

(١) طبقات ابن سعد ٦/٢١٤ .

وقائل بأن علياً أولى بالأمر، فقال هؤلاء: نحن لا ذبراً منها ولا نشهد عليها، ونرجي أمرها إلى الله حتى يكون الله هو الذي يحكم بينها^(١).

فالذى يظهر أن المرجئة الأولى إنما قصد بهم هؤلاء الورعون الذين اعتزوا الفتن التي ثارت بعد مقتل عثمان فلم يشاءوا الانضمام إلى صف علي ولا إلى جانب خصومه لأنهم لم يستطعوا أن يعرفوا على وجه اليقين إلى من ينحازون ومن هو الحق من الفريقين، وهل لعلي يد في قتل عثمان كما يدعى خصومه. ومن ثم نجدهم يتورعون أيضاً عن المشاركة في القتال الذي دار بين علي ومعاوية، وحين كان علي وأصحابه يدعونهم إلى مشاركتهم في القتال كانوا يستشهدون بأحاديث الرسول عليه السلام تدعوه إلى اعتزال القوم إبان الفتنة^(٢). ومن هؤلاء عبد الله بن عمر، وأبو بكرة، وأبو موسى الأشعري، ومعد بن أبي وقاص، ومحارب بن دثار، ومسطير بن عبد الله، ومرة المهداني. وقد روى ابن سعد لأنبي موسى الأشعري خطبة يدعو فيها إلى اعتزال الفتنة ويقول فيها: «إن من ورائكم فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويعصي كافراً والقاعد فيها خيراً من القائم، والقائم خيراً من الماشي، والماشي خيراً من الراكب». قالوا: فما تأمرنا؟ قال: كونوا أهل احسان البيوت^(٣). ولأمل هذا يفسر لنا موقف أبي موسى الأشعري من مسألة التحكيم ومحاولته إقناع عمرو بن العاص بخلع كل من علي ومعاوية وجعل الأمر لعبد الله بن عمر. فمن الناحية السياسية كان هؤلاء المرجئة يقفون موقفاً محايضاً من الحزبين الشيعي والأموي، ولكنهم كانوا ربما شاركوا في قتال الخوارج ليقيئهم أنهم على ضلال وقد ذكر الجاحظ أن ابن عمر، وهو زعيم الحلسية، قد ابس السلاح لقتال نجدة الخارجى^(٤). على أننا لا نعرف المرجئة الأولى هؤلاء مذهبًا دينياً يعرفون به، وكل ما أثر

(١) فجر الإسلام ص ٢٧٩.

(٢) انظر مثلاً ما رواه ابن سعد عن عديسة بنت اهبان بن صيفي ج ٣٥٤/٨.

(٣) طبقات ابن سعد ٢٢٥/١. وأهل احسان البيوت أي يلزمونها ولا يبرحونها.

(٤) البيان والتبيين ١٣٠/٣.

عنهم برجاؤهم أمر علي وعهان إلى الله ليحكم بينها، ولهذا — على الأغلب — سموا بالمرجئة. ولكن كلمة مرجعية لم تعد تدل فيها بعد إلا على الذين دانوا بمذهب الإرجاء وهم الذين تحدث عنهم وعن مذهبهم.

ومن الطريف أن يكون مؤسس الإرجاء، حين ظهر في صورته الدينية رجلاً من أقطاب الحزب الشيعي، مع ما بين المذهبين من تعارض صريح. فقد روى ابن سعد في أخبار الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب — ومحمد بن علي هو المعروف بابن الحنفية — أنه أول من تكلم بالإرجاء، وأن ميسرة وزادان دخلا عليه فلاماً في الكتاب الذي وضعه في الإرجاء، فقال الحسن لزادان: «يا أبا عمر، لوددت أنني كتبت مت ولم أكتبه»^(١). والحسن هذا توفي في خلافة عمر بن عبد العزيز. وهذا يدلنا على أن كتبًا أفت في بيان أصول هذا المذهب، كما يدلنا على أن الموطن الأول لحركة الإرجاء هو الحجاز في حين أن جل الفرق الدينية الأخرى التي ظهرت في هذا العصر كان العراق موطنها الأول. وكذلك ذكر المقريزي أن الحسن هو أول من وضع الإرجاء وتكلم فيه وذكر أن المرجئة صارت بعده أربعة أنواع: مرجعية الخارج، ومرجئة القدرة، ومرجئة الجبرية، ومرجئة الصالحة، وقال إن الحسن كان يكتب كتبه إلى الأمصار يسدونه إلى الإرجاء إلا أنه لم يؤخر العمل عن الإيمان. ثم ذكر المقريزي أن ابن قتيبة جعل أول من تكلم بالإرجاء بالبصرة حسان بن بلال المزنبي^(٢).

وقد ظهر القول بالإرجاء حين احتمم التزاع بين الفرق الدينية وأخذ كل منها يكفر بمخالفيه، فوقف المرجئة موقفاً محابيداً من جميع الفرق المتنازعـة فلم يقولوا بتكفير أحد ولا جزموا بتخطئـة دة أو تصويبـها، بل تركوا أمرهم جمـعاً إلى الله. ثم جرـهم موقفـهم السياسي المحـايد إلى موقفـ عـائلـ في المسـائلـ الدينـيةـ المـختلفـ عـلـيـهاـ، ولا سيـماـ مـسـأـلةـ اـرـتـباطـ الإـيمـانـ بـالـعـمـلـ . فـعـلـىـ مـذـهـبـهـمـ لـيـسـ الـعـمـلـ شـرـطـاـ مـنـ

(١) ابن سعد ٤١/٥.

(٢) الخطط ٤٩/٢.

شرائط الإيمان ، وما الإيمان إلا التصديق القلبي والمعرفة بالله ورسله . وهم بهذا إنما يخالفون الخوارج الذين جعلوا العمل جزءاً من الإيمان ، ومرتكب الكبيرة عندهم ليس كافراً ولا منافقاً وإنما هو مؤمن ، شريطة أن يكون مصدقاً بالله ورسله ، فلا تضر مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة .

ومن الوثائق القيمة في إيضاح مذهب الإرجاء قصيدة الشاعر المرجعي ثابتقطنة ، وأنا أثبته هنا لقيمتها التاريخية والدينية :

أَنْ نُعْبُدَ اللَّهَ لَمْ يُشَرِّكْ بِهِ أَحَدًا
وَنُصَدِّقُ الْقَوْلَ فَيَمْجَدُ جَارٌ أَوْ عَنْدَهُ
وَالْمُشْرِكُونَ أَشْتَوَا دِينَهُمْ قِدَاداً^(١)
مِنَ النَّاسِ شَرِكَاً إِذَا مَا وَحَدُوا الصَّمْدَا
سَفَكَ الدَّمَاءَ طَرِيقاً وَاحِدَّاً جَهَدَاهَا
أَجْرَ التَّقْيَى إِذَا وَفَى الْحِسَابَ غَدَا
رَدَّاً وَمَا يَقْضِي مِنْ شَيْءٍ بَكْرٌ رَشَدَاهَا
وَلَوْ تَبَرَّدَ فِيهَا قَالَ وَاجْتَهَداً^(٢)
عَبْدَانَ لَمْ يُشَرِّكْ كَبَالَهُ مَذْعَدَاهَا
شَقَ الْمَصَا وَبَعْنَانَ اللَّهَ مَا شَهَدَاهَا
وَلَسْتُ أَدْرِي بِحَقِّ أَبَهُ وَرَدَاهَا
وَكُلُّ عَبْدٍ سَيْلَقِي اللَّهَ مَنْفَرَدَا^(٣)

يَا هَنَدْ فَامْتَحِنِي لِي إِنْ سِيرَتَنَا
ذُرْجِي الْأَمْوَرِ إِذَا كَانَتْ مُشْبَهَةً
الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْإِسْلَامِ كَلَّاهُمْ ،
وَلَا أَرِي أَنْ ذَنْبَنَا بَالْغُ أَحَدَاهَا
لَا نَسْفَكَ الدَّمَ إِلَّا أَنْ يُرَادَ بِنَا
مِنْ يَتَقَبَّلُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا فَلَمَّا لَه
وَمَا قَضَى اللَّهُ مِنْ أَمْرٍ فَلَيْسَ لَهُ
كُلُّ الْخُوارَجِ مُخْطَطٌ فِي مَقَاتِلِهِ
أَمَا عَلَيْهِ وَعَهْنَانَ فَلَمَّا هَبَاهَا
وَكَانَ يَلْهُبُهَا شَغْبٌ وَقَدْ شَهَدَاهَا
بُجُزِي عَلَيْهِ وَعَهْنَانَ بِسَعْيِهَا
الَّهُ يَعْلَمُ مَاذَا يَحْضُرُونَ بِهِ

★ ★

وَظَاهِرٌ مَا فِي مَذَهْبِهِمْ مِنْ مِيلٍ إِلَى التَّسَامُحِ وَالتَّسَاهُلِ ، وَلَكِنْ لَا يَنْبَغِي لَنَا
أَنْ نَفْهُمَ مِنْ هَذَا أَنْهُمْ كَانُوا يَهُونُونَ مِنْ شَأْنِ الطَّاعَاتِ أَوْ يَدْعُونَ إِلَى الْمُتَحَفَّفَ

(١) القدر جمع قدة : الفرقة من الناس أي هو كل واحد على حدته .

(٢) يريد أن الخوارج مخطئون في تكفيرهم مخالفتهم .

(٣) الأغاني ٤/٤٧١ و خزانة الأدب ٤/١٨٦ .

في أداء الفرائض الدينية ، والمسألة في نظرهم لا تعدو كونها مسألة كلامية صرفاً تتعلق بتحديد مفهوم الإيمان ، وقد عرف أكثر رجال المرجئة بالورع والتقوى وحسبنا أن نجد منهم ، حسبما يذكر الشهريستاني ، الحسن بن محمد ، وطلق بن حبيب ، وعمر بن ذر ، وسعيد بن حبيب^(١) . وكلهم من أعلام المحدثين المعروفين بصحة تدینهم ، بل إن الإمام أبو حنيفة نفسه قد عده بعضهم من المرجئة . وقد لاحظ كريير اتفاقاً بين مذهب الإرجاء و تعاليم يوحنا الدمشقي الذي كان في دمشق في وقت ظهور هذا المذهب^(٢) .

ومع ذلك فإن مذهب الإرجاء قد لقي خصومة عنيفة من بعض المتكلمين لأنهم خافوا أن يؤدي قول المرجئة بأن العمل ليس من شروط الإيمان إلى التهوي من شأن العمل والطاعات ، وقد وضم خصوم المرجئة أحاديث على لسان الرسول في ذم الإرجاء ك الحديث : « لم ينفع المرجئة على لسان سبعين نبياً ». قيل : من المرجئة يا رسول الله . قال الذين يقولون : الإيمان كلام^(٣) . كذلك لقي المرجئة معارضه قوية من الحزب الشيعي ، وقد كانت بين شعراء الفريقين مناظرات و معارضات لا تخلو من طرافة . والسبب الأول في نعمة الشيعة على المرجئة — على ما يبدو — عدم قولهم بتكفيربني أمية وإرجاؤهم أمرهم إلى الله ، واعتبارهم مؤمنين لا محلين كافرين كما يراهم خصومهم من الشيعة وسواهم ، فاعتبر موقفهم هذا تأييداً صريحاً غير مباشر لسلطانبني أمية .

وقد يكون صحيفاً أن مذهب المرجئة كان يؤدي إلى عدم الثورة علىبني أمية . بل لعله كان يدعو إلى طاعتهم لأنهم في نظرهم مؤمنون لا يصلح الحكم عليهم بالكفر

(١) لم أجده في المصادر التي ترجمت لسعيد بن حبيب ما يدل على أنه كان من المرجئة وابن سعد لم يشر قط إلى أنه كان على الإرجاء ، بل إن هناك ما يؤكد خصوصيته للإرجاء ، ففي أخبار المرجئة طلق بن حبيب العتزي (ابن سعد ٧٦١ / ١٦٥) أن ابن حبيب ثنى بعضهم عن مجالسة طلق مما يدل على مخالفته المرجئة .

(٢) الحضارة الإسلامية ص ٦٩ .

(٣) الفرق بين الفرق . ١٩ .

ولكن أخبار هؤلاء المرجئة تدل بصراحة على أنهم لم يعتبروا أنفسهم أعوااناً لبني أمية . وقد ثارت جماعة منهم على بني الحجاج وجبروته في كتبية القراء التي قاتلت الحجاج تحت راية ابن الأشعث وجدت وثة من المرجئة كطافق بن حبيب وذر بن عبد الله ، ولم يتورع ذر ، على إرجاعه ، عن اتهام الحجاج بالكفر . ثم نجـد طائفـة من المرجئـة يشارـكون في ثـورة يـزـيدـ بنـ المـلـبـ علىـ بـنـيـ أمـيـةـ . روـيـ الطـبـريـ أـنـ رـئـيـساـ طـائـفـةـ منـ المرـجـئـةـ يـدعـىـ أـبـارـؤـةـ كـانـ معـ يـزـيدـ بنـ المـلـبـ وـمـعـهـ جـمـاعـةـ مـنـ أـنـصـارـهـ ، عـلـىـ أـنـهـمـ أـبـواـ الـاسـتـمرـارـ فـيـ القـتـالـ لـأـنـ بـنـيـ أمـيـةـ قـلـواـ مـاـ عـرـضـوهـ عـلـيـهـمـ مـنـ الـعـملـ بـكـتـابـ اللهـ وـسـنـةـ ذـيـهـ^(١) ، فـهـمـ إـذـاـ يـمـلـونـ إـذـنـ بـوـحـيـ مـبـدـئـهـمـ وـعـقـيـدـهـمـ . وـمـنـ الـخـاتـمـ أـنـ بـنـيـ أمـيـةـ كـانـواـ رـاضـيـنـ عـنـ مـذـهـبـ المرـجـئـةـ لـمـ فـيـهـ مـنـ تـأـيـيدـ غـيرـ مـقـصـودـ لـسـلـاطـانـهـمـ ، وـلـكـنـهـمـ كـانـواـ لـاـ يـتـرـدـدـونـ عـنـ قـعـدـةـ حـرـكـاتـهـمـ وـإـعـلـانـ خـلـافـهـمـ لـمـبـادـئـهـمـ حـينـ كـانـواـ يـأـنـسـونـ مـنـهـمـ مـيـلاـ إـلـىـ الـمـعـارـضـةـ أـوـ الـنـوـرـةـ . وـهـذـاـ يـفـسـرـ مـوـقـفـ بـنـيـ أمـيـةـ مـنـ الـخـارـثـ بـنـ سـرـيـعـ التـعـيـيـيـ المرـجـيـ . حـينـ ثـارـ عـلـيـهـمـ بـخـرـامـانـ ، لـأـسـبـابـ قـبـلـيـةـ وـدـيـنـيـةـ ، فـإـنـهـمـ قـاتـلـوـهـ بـعـنـفـ وـرـمـوـهـ وـجـمـاعـتـهـ بـالـشـرـكـ وـالـمـرـوـقـ مـنـ الدـيـنـ . وـمـنـ قـصـيـدةـ طـوـبـةـ لـوـالـيـ خـرـامـانـ نـصـرـ بـنـ سـيـارـ ، خـصـمـ الـخـارـثـ ، ذـقـرـأـ هـذـهـ الـأـيـاتـ مـثـلاـ :

فامنح جهادك من لم يرج آخرة
واقتُل مُؤايلهم مثا وناصرهم
والعابين عليهنَا دينَنا وهمُ
إرجاعكمْ كم والشرك في قرآنٍ
وكن عدوًّا لقوم لا يصلُونا
حياناً تكفرُهم والعنفهمُ حيناً
شر العبادِ، إذا خبرُهم ديناً
فأنتم أهلُ إشراكٍ ومُرجوناً (٢)

وإن ثورة الحارث بن سريج لتدل من جهة أخرى على أن المرجئة لم يكونوا زاهدين في الحكم، وعلى أنهم لم يكونوا دعاة مذهب ديني خسب، وإنما كانوا يصيرون أيضاً إلى ما تصبوا إليه صائر الأحزاب السياسية من تولي أمور المسلمين وإقامـة حكم

٣٤٠ / ﻋـ ﺍـ ﻁـ ﻕـ ﻊـ

(٢) الطاري هـ/٤٣٣ .

يشتى ومبادئه دعوتهم . على أن معارضتهم الحرية هذه لم تكن شيئاً ذا خطر . وكانوا بوجه عام أميل إلى المسالة والموادعة ، وقد أضفوا فلان على ثورة الحارت ابن سريج وأصحابه لوناً إصلاحياً يرمي إلى المساواة بين العرب والموالي الذين اعتنقاوا الإسلام ، وفسر ثورتهم بأنها ثورة على المظالم التي كانت تلحق بأونئك الذين اعتنقاوا الإسلام من الترك والسندي وغيرهم^(١) .

وقد يجدون غريباً أن يكون من بين أنصار الحارت بن سريج المرجح مؤسس فرقه الحرية جهم بن صفوان . والحق أنه لا تعارض بين مبادئه الارتجاء وبين عقائد القدرية أو الحرية . ولذا وجدت طائفه من المرجحة تشقق مذهب القدرية ك甯يلان وطائفه أخرى تميل إلى رأي الحرية ويترسمهم جهم بن صفوان .



(١) السيادة العربية لفان فلوتن ص/٦٤ وما بعدها .

المؤثرات الاجتماعية

لم يكن للمؤثرات الاجتماعية من شأن في حياة الفن الخطابي في عصر بي أمية ما كان المؤثرات السياسية والدينية ، وذلك فاجم عن خطورة الأحداث السياسية والحركات الدينية التي تخص عصر بي أمية والتي ملأت على الناس حيث اتهم واستأثرت بتفكيرهم ونشاطهم واستغرقت بمحو دهم . ولكن الخطابة الاموية افسحت مع ذلك مكاناً للأغراض الاجتماعية التي لا يخلو منها عصر ما . والمؤثرات الاجتماعية منها ما هو اجتماعي صرف ، ومنها ما هو بسبب من السياسة والدين ، وثمة ظواهر لها وجهاً أحدهما سياسي والأخر اجتماعي ، كالعصبية القبلية مثلاً . وسأعرض في هذا الفصل لنهايتها الاجتماعية بعد أن عرضت لجانبها السياسي في الفصل السابق .

وليس هذا الفصل وقفاً على دراسة الحالة الاجتماعية في عصر بي أمية فلن أقف إلا عند الظواهر والأحداث التي كان لها أثر في ظهور لون من ألوان الخطابة أو بروز سمة من سماتها . فالخطابة — شأنها شأن الشعر — تعكس لنا بصورة صادقة أمنية أحداث مصر الذي يظلها وأحوال المجتمع فيه .

(٤) البيئة الحضرية والبيئة البدوية

من الأمور المجمع عليها أن الشعر الجاهلي الممتاز هو ذاك الذي أبدىه البداء ، وأنفل شعراً الجاهليّة وأجودهم قريضاً هم أوائل الذين لفحتهم شمس الصحراء المتقدة وسفعمهم رماها الحرقة . أما البيئات الحضرية فكان ما قبل فيها من الشعر يلي في قيمته الفنية وجودته شعر أهل الشیع والقبصوم وقطان بیوت الشعر والخيام . وعلى الرغم من تدفق قبائل العرب على المراكز الحضرية في العصر الاسلامي

وظهور عدد وافر من الشعراء فيها ظل الشعراء المترعرعون في الباذية يحملون لواء الزعامة الشعرية وظل الشعر المطبوع بطبع الــبــادــيــة يعتبر المــاــلــ الــأــعــلــ لــالــشــعــرــ الــعــرــبــيــ . ذلك أن الصفات التي كان النقاد ومتذوقو الشعر يلتزمونها في الشعر ويــتــبــرــونــ الشــاعــرــ الــمــوــفــقــ من عــظــمــ حــظــاهــ مــنــهــ ، هذه الصفات كانت في ذاتها ولــيــدــةــ الــبــيــئــةــ الــبــدــوــيــةــ التي فيها رأى الشــعــرــ الــعــرــبــيــ النــورــ وــفــيــهــ شــبــ عــنــ الــطــوــقــ وــأــصــبــحــ يــافــمــاــ ، فــلــمــ يــكــنــ بــدــ منــ يــتــشــرــبــاــ الــذــوقــ الــعــرــبــيــ وــيــأــلــفــهــ حــتــىــ لــمــ يــعــدــ يــســيــغــ غــيرــهــ .

على أن شأن الخطابة غير شأن الشعر ، فالخطابة ظاهرة اجتماعية وايــســتــ ظــاهــرــةــ فــرــديــةــ كــالــشــعــرــ ، وــهــيــ تــرــقــيــ وــتــنــمــيــ بــارــتقــاءــ الــحــيــاــةــ الــاجــتمــاعــيــةــ وــنــفــوــهــ . وــلــيــســ مــنــ شــكــ فيــ أــنــ الــحــيــاــةــ الــاجــتمــاعــيــةــ فــيــ الــبــيــئــةــ الــخــضــرــيــةــ كــانــتــ فــيــ الــعــصــرــ الــأــمــوــيــ أــخــصــبــ وــأــنــشــطــ مــنــهــ فــيــ الــبــيــئــةــ الــبــدــوــيــةــ . وــقــدــ أــصــبــحــتــ الــخــواــضــرــ فــيــ هــذــاــ الــعــصــرــ الــأــوــلــ الــلــحــيــاــةــ الــعــلــيــةــ وــالــأــدــيــةــ وــالــفــكــرــيــةــ وــالــســيــاســيــةــ . فــكــذــلــكــ أــصــبــحــتــ الــخــواــضــرــ مــوــطــنــ النــشــاطــ الــلــخــطــابــيــ الــخــصــبــ وــالــمــوــجــهــ الــأــوــلــ الــلــحــيــاــ فــنــ الــفــنـ~ـ الــلــخــطــابــيـ~ـ فــيــ هــذــهــ الــمــرــاــكــزــ الــخــضــرــيـ~ـ نــشــأــ أــشــهــرـ~ـ الــلــخــطــابـ~ـ وــأــفــصــحـ~ـهـ~ـ ، وــفــيـ~ـ مــســاجــدـ~ـهـ~ـ وــحــلــقــاتـ~ـهـ~ـ أــقــيــتـ~ـ أــرــوــعـ~ـ الــلــخــطـ~ـبـ~ـ وــأــنــقــدـ~ـتـ~ـ بــجــالــسـ~ـ الــإــنــاظــرـ~ـةـ~ـ وــالــجــدــلـ~ـ . فــأــدــىـ~ـ تـ~ـخـ~ـضـ~ـرـ~ـ الــعـ~ـرـ~ـبـ~ـ فــيـ~ـ هــذــاــ الــعـ~ـصـ~ـرـ~ـ وــأــســقــرـ~ـارـ~ـهـ~ـ فــيـ~ـ الــبـ~ـيــئـ~ـاتـ~ـ الــمـ~ـدـ~ـيـ~ـةـ~ـ الــجـ~ـدـ~ـيـ~ـةـ~ـ إــلــىـ~ـ اــزــدــهـ~ـارـ~ـ الــحـ~ـرـ~ـكـ~ـةـ~ـ الــلـ~ـخـ~ـطـ~ـابـ~ـيـ~ـ وــكـ~ـثـ~ـرـ~ـ عـ~ـدـ~ـ الـ~ـلـ~ـخـ~ـطـ~ـبـ~ـاءـ~ـ وــإــلــىـ~ـ تـ~ـعـ~ـدـ~ـ صـ~ـورـ~ـ الـ~ـلـ~ـخـ~ـطـ~ـابـ~ـةـ~ـ وــأـ~ـنـ~ـوـ~ـاعـ~ـهـ~ـ .

على أنه كان للحياة الحضرية من جهة أخرى آثار في الخطابة لا تحمد ، ذلك أنها لم تكن البيئة الملائمة لتفتح السلاسل الخطابية ولاكتساب المهارة البيانية ، ولا سيما بعد أن امتهن العرب بالإنجليز ذلك الامتهان القوي الناجم عن حركة الفتح . وقد ظل الخطباء الذين نشأوا في الباذية يفضلون خطباء الــخــواــضــرــ في فصاحة المبارزة وقوه التركيب وجودة الأداء وسلامة اللغة ، وظلت البيئة الــبــدــوــيــةــ مــوــطــنــ البيان الناصع المشرق البريء من أوساب المجمعـةـ وــهــجــنــةــ الــلــحنـ~ـ ، حتى كان من يحرص على سلامـةـ الــلــغــةــ يضطر أن ينفق جانبيــاــ من عمرهــ فــيــ الــبــاــذــيــةــ لــيــأــخــذــ عــنــ أــبــنــائــهــ الــلــغــةـ~ـ النــاصــعـ~ـ الســلــيــمـ~ـةـ~ـ وــلــيــعــودـ~ـ لـ~ـسـ~ـانـ~ـهـ~ـ النـ~ـطـ~ـقـ~ـ الـ~ـعـ~ـرـ~ـبـ~ـيـ~ـ الفــصــيــعـ~ـ . وــمــاـ~ـ يــئــلـ~ـ لـ~ـنـ~ـاـ~ـ الـ~ـفـ~ـصـ~ـاحـ~ـةـ~ـ الـ~ـفـ~ـطـ~ـرـ~ـيـ~ـةـ~ـ الـ~ـتـ~ـيـ~ـ طـ~ـبـ~ـعـ~ـ عـ~ـلـ~ـهـ~ـ .

أبناء الباشية وفضلهم على أهل الخواضر ما رواه صاحب العقد عن رجل من منقر قال : « تكلم خالد بن صفوان بكلام في صلح لم يسمع الناس كلاماً قبله مثله ، وإذا بأعرابي في بت^(١) ما في رجليه حذاء » ، فأجابه بكلام وددت أنني مت قبل أن أسمعه . فلما رأى خالد ما نزل به قال لي : « ويحك ؟ كيف نجارتهم وإنما نحكمهم ، أو كيف نسابقهم وإنما نجري بما سبق إلينا من أمرائهم .. »^(٢) .

وأشهر المراكز الحضرية التي ازدهرت فيها الخطابة : الكوفة والبصرة ودمشق ومرزو والمدينة ومكة والفسطاط والمراكز الثلاثة الأولى ناتي في الطبلية ، ففيها أقيمت جل الخطب السياسية والدينية والاجتماعية في عصربني أمية .

(ب) امتداج العرب بالأمم الأخرى وأثره

أدت الفتوح الإسلامية إلى انتصارات أمة كثيرة تحت لواء الحكم العربي فدانت سلطان بني أمية شعوب شتى فارسية وتركية وبربرية وهندية وغيرها ، وما لبث العرب أن ارتحلوا إلى البلاد المفتوحة واستقروا فيها وأنشأوا لهم فيها حواضر جديدة كانت في الأصل مسکرات لهم كالكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان ، وكان لا بد لهم من الاختلاط بسكان البلاد الأصليين والامتداج بهم ، وكان لهؤلاء حضارات سابقة وثقافات مزدهرة وديانات قديمة ونظم سياسية واجتماعية ، ولم يكن بد من أن تتفاعل هذه الحضارات والثقافات جميعها لتولد عن هذا التفاعل حضارة جديدة هي مزيج من جميع هذه الحضارات التي انصرفت في بوتقة الدولة العربية ، ولم يكن بد أيضاً من نشوء مجتمع جديد لا هو بالعربي الخالص وبالجمي الخالص وإنما هو خليط من هذا وذاك .

هذا المجتمع الجديد كان قوامه عنصرين : الأول هو المنصر العربي ، وهو صاحب السيادة ، باعتباره المنصر الغالب ، وهو لذلك يتمتع بامتيازات لا يتمتع بها المنصر الثاني . والمنصر الآخر يضم جميع الأمم غير العربية التي دانت لسيادة

(١) البت : كما في غلبيظ .

(٢) العقد الفريد ٣/١٧٥ .

العرب ، وهؤلاء منهم من احتفظ بديانته الأصلية ، نصاراً فيما كان أو يهودياً أو محسيناً وقد أطلق عليهم لفظ « أهل الدمة » ، ومنهم من اعتنق الإسلام وهم الذين عرفا بـ « الموالي » . وقد أباح الإسلام لـ « أهلي البلاد المفتوحة » ، من غير العرب ، أن يظلوا على دينهم على أن يؤدوا لـ « حكامهم » العرب الجزية لقاء قيامهم بمحابتهم والدفاع عنهم ، فهم في ذمة المسلمين وتحت حمايتهم . ومن أبي دفع الجزية عرض عليه الدخول في الإسلام فيكون حكمه حكم سائر المسلمين ، وإذا هاجر مع المسلمين وقاتل في صفوفهم أصابه ما أصابهم من الغنائم والفيء ، ومن أبي اعتناق الإسلام ورفض أداء الجزية قوتل . وفي هذه الحالة إذا وقع أميراً ضرب عليه الرق ، وكذلك كان حكم سكان البلاد المفتوحة عنوة فإنهم يصيرون إلى الرق إلا إذا شاء الفاتحون بإعفاءهم منه وفرض الجزية عليهم .

ولفظ الموالي في اصطلاح المؤرخين يقصد به كل من اعتنق الإسلام من غير العرب ، وهو على خبرين : رفيق أعتقه مالكه ، وحيثما تبقى بين المولى وبين معتقه صلة « الولاء » . والضرب الثاني من أسلم من أهل البلاد المفتوحة ثم دخل في ولاء أحدي قبائل العرب فيكون حليفاً لها ، وهي تتولى الدفاع عنه وحمايته .

كثر عدد هؤلاء الموالي كثرة هائلة في العصر الأموي نتيجة لاتساع نطاق الفتوح الإسلامية ودخول كثير من سكان البلاد المفتوحة في الإسلام ، وكان العنصر البارز منهم هو العنصر الفارسي ، وانتشرت هذه العناصر غير العربية في جميع الأقصارات الإسلامية بل وفي البيشات البدوية أيضاً ، إذ كان موالي القبيلة وأرفاؤها يعيشون بين ظهرانها . وإذا كان العرب يأنفون بطبيعتهم من مزاولة المهن والصناعات وكانتا يعتبرون الحرب مهنتهم الأولى فقد تولى الأغاجم هذه الأعمال فعمرت بهم الأقصارات ونشطت الصناعة والتجارة واستثمرت الأراضي الزراعية . وقد كان لهؤلاء الأغاجم حضارات وثقافات سابقة فلما اعتنقو الإسلام ساروا على المناهج التي ألفوها وفهموا العقيدة الجديدة فيها يسلام عقليتهم وحضارتهم وأشاعوا في المجتمع الجديد عاداتهم التي ألفوها من قبل .

ولشهرهم باختصار العرب لهم حاولوا أن يذروا رقمة المزالة من طريق العلم والمعرفة وسرعان ما ينبع منهم علماء مشهورون في شتى ضروب العلم ولم ينفعن وقت قصير حتى كان جل علماء المسلمين منهم وكانت لهم أعظم الأثر في نشأة علم الكلام وظهور بعض الفرق الدينية.

اختلط العرب بالموالي اختلاطًا قوياً كان له نتائج شتى ليس من شأننا أن نتفصّلها هنا ، وحسبنا أن نتعرّف إلى أثر هذا الامتزاج في اللغة والادب . وبدى تأثير الخطابة ، من قريب أو من بعيد ، بحركة المزج هذه .

وأول ما ذبيّنه أن لغة النّفّاهم في هذه المجتمعات الخليطة لم تعد تملّك اللغة العربية السليمة المعربة التي كانت تجري على ألسن العرب يوم كانوا يتوصّدون رمال الجزيرة العربية ، فقد أفسد هذا الاختلاط السلاائف اللغوية وأدى إلى نشوء لغة جديدة لا تلتزم فيها حركات الاعراب التزاماً صارماً ولا تراعي فيها قواعد التصريف وأصول التركيب العربي مراعاة دقيقة . وفي هذه اللغة لحن كثير وكلمات أعيجمية وفرة . وكان لا مفر من أن يتسلّب هذا اللحن إلى اللغة الفصيحة نفسها ، لغة الشعر والنثر الأدبي التي كانت تجري على ألسن المتحضرين من الأدباء ، في حين ظلت لغة أهل البادية بعزل ، نسبياً ، عن هذا الوباء الذي أصاب ألسن أهل الحضر فانحرف بها عن صورة المنطق السليم ذلك الانحراف المقيت . وحتى من عرّفوا بالفصاحة والبلاغة في هذا المصر لم ينجوا من هجننة اللحن ، فعلى الرغم ، من شهادة رؤبة وأبي عمرو بن العلاء للحجاج والحسن البصري بالفصاحة بالقياس إلى أهل القرى ، أخذ عليهما ، فيها يذكرون ، بعض اللحن حتى في فراءة القرآن . فزعموا أن الحسن لحن في مواضع من القرآن كقوله : ماقنَّـت به الشياطون ، وزعموا أن الحجاج كان يقرأ : إنا من الجن منتقمون^(١) . وأنكر عليه أحد الأعراّب ضمّه اللام من « لاص »^(٢) ، وكان الحجاج مع ذلك حريصاً على توقي اللحن في كلامه ،

(١) البيان والتبيين ٢١٩/٢ .

(٢) المصدر السابق ٢٠٤/٢ .

وقد غضب حين صادهه الحجاج بن يوسف بما يقع فيه من اللحن وتوعده بالقتل إن لم يرتحل عنه^(١). ومن عرف باللحن من أمم الفصاحة في عصر بنى أمية : خالد ابن صفوان ، و خالد بن عبد القسري ، و عبيد الله بن زياد^(٢) . و حين أوفد زياد ابنه عبيد الله إلى معاوية و سمع كلامه كتب إلى أبيه أن يقوم لسانه . وقد عمل المحافظ لحن ابن زياد بأنه نشأ مع أمها مر جانة بالأساورة^(٣) . ومن عرف باللحن من العلماء الإمام أبو حنيفة^(٤) .

ولم ينتشر اللحن في المدن والمحاضر فحسب بل تسرب إلى البادية مع الموالى والإماء الذين احتضنهم القبائل البدوية ، وقد حاول بعضهم تحديد مبدأ انتشار اللحن فزعموا أن أول لحن سمع بالبادية قولهم : هذه عصاتي ، كما أن أول لحن سمع بالعراق قولهم : حي على الفلاح ، بكسر الياء^(٥) . وقد روي أن أم نوح وبلال ابني جريرا الشاعر كانت أعمجية ، وكانت إذا تكلمت لخت وتصرفت بالكلمات تصرفاً يبعث على الضحك^(٦) .

ومن الحق أن القرآن الكريم قد حال دون شيوع اللحن على نطاق واسع وأعاد على احتفاظ اللغة العربية بكثير من روائعها وقوتها كما حمل المتدلين من الموالى على إتقان اللغة العربية . ولو لا ذلك لانتشر اللحن انتشاراً أوسع مدى ولما أتيح للغة العربية هذا الانتشار السريع القوي في الأقطار المفتوحة .

ولم يخف خلفاء بنى أمية — وهم عرب منصبون لعروبتهم ولغتهم — امتناعهم من شيوع اللحن وفساد الألسن ، وقد وصف عبد الملك اللحن بأنه هجنة على الشريف ورأه أقبح من التفتيق في الثوب والجدري في الوجه^(٧) . وكان يحز في

(١) الكامل للمبرد ١٦٤/١ .

(٢) البيان والتبيين ٢١٠/٢ .

(٣) الأساورة قوم من الفرس كانوا ينزلون البصرة ومتهم الأحمرة بالكوفة .

(٤) البيان والتبيين ٢١٢/٢ .

(٥) المصدر السابق ٢١٩/٢ .

(٦) البيان والتبيين ٢١٣/٢ .

(٧) العقد الفريد ٤٧٨/٢ .

نفسه ما عرف به ولداته الوليد ومحمد من الماحن وكان يقول : أخسر بالوليد حيناً له فلم نوجه إلى البدائية^(١) .

وقد حرص خلفاء بني أمية على توجيهه أبنائهم إلى البدائية ليلاقفوا عن أهلها فصاحة الإنسان وصحة الأداء وسلامة التعبير ، وهذا ينبع منها بعدي ما أصاب لغة أهل الحضر من الفساد والالتواء في هذا العصر . وكان الشعراء الذين أتيح لهم أن ينشدوا في البدائية أفعى لغة وأقوى أداء من شعراء الحضر ، وعلى أن يشارأ كأن من الموالى فإن إقامته في البدائية ومشافته الاعراب الخلص كان لها أعظم الاعتر في فصاحة لغته وجزالة أسلوبه وجريه على أساليب العرب في شعره مما أتاح له أن يتحدى بعض شعراء الرجز ، وهم أكثر الشعراء إغراماً في البداوة^(٢) .

وقد تجلى اللحن في صور متعددة منها الخطأ في حركات الاعراب ، وهو أكثرها شيوعاً ، كالذي أثر عن الوليد بن عبد الملك من قوله لأبيه : يا أمير المؤمنين ، قُتُل أبي فديك^(٣) . ومنها الخطأ الصRFI ، واستعمال الألفاظ في غير مواضعها . ومن مظاهر اللحن شيوع بعض الألفاظ الأعجمية مكان ألفاظ عربية تقابلها في الدلالة ، روى الجاحظ أن أهل المدينة لما نزل فيها ناس من الفرس علقوا بطائفـة من ألفاظهم ولذلك يسمون البطيخ : الخيربز ، والسميط : الرزدق ، وكذلك أهل الكوفة يسمون المسحاة : بال ، وهي فارسية^(٤) . وكذلك من مظاهر اللحن إبدال الحروف بعضها من بعض ، وذلك لأن الأعجم لا يقدرون على نطق جميع الأحرف العربية فربما أبدلوا الحاء هاء كقول غلام لزياد : أهدوا لنا همار وخش ، بريـد حمار وخش^(٥) . وقد ظهرت هذه المكـنة في لغة عبيد الله بن زيـاد لما ذـكرـاه

(١) البيان والتبيين ٢٠٥/٢ .

(٢) الأغاني ٣/١٧٤ .

(٣) البيان والتبيين ٢٠٤/٢ .

(٤) المصدر السابق ١٩/١ .

(٥) البيان والتبيين ١/٧٣ .

من نشأته بالأمساورة فروي عنده قوله لبعض الخوارج : أهروري هذا اليوم ^(١) . وفي البيان والتبيين كلام كثير عن إبدال الحروف وعمن عرف به من الشعراء والبلغاء وغيرهم في العصر الأموي كزياد الأعجم وأبي مسلم الخراساني وغيرها ^(٢) . على أن اختلاط العرب بالأعاجم كانت له آثار أخرى غير انتشار اللحن وفساد اللغة . فقد حمل هؤلاء الأعاجم معهم أنماطاً جديدة في التفكير والنظر العقلي والجدل تجلّى أثراً في الجدل الخطابي الذي ظهر في هذا العصر ، كما أن الخطابة الدينية أفادت من هؤلاء الموالي فائدة لا تُنكر ، وقد لاحظنا قبل أن جل رؤساء المذاهب الكلاميون ومتكلميها كانوا من الموالي .

(-) المصيّبات والمفاحرات

كانت التعاليم الإسلامية تهدف إلى إقامة مجتمع مثالي تظلله روح التفاهُم والمساواة والمحبة المتبادلة والرغبة في التعاون المثمر بين أفراد المجتمع . ولكن هذه الروح الاجتماعية المثالية لم تكن ترى النور حتى توالت وهي بعد غضرة طرفة العود . ولم تستطع العقيدة الجديدة أن تصقل نفوس معتقدتها جديداً صقلًا يستجيب لروح الدعوة الإسلامية ، فسرعان ما هدرت في دماء كثير من العرب نزاعاتهم الجاهلية التي كانت الأحداث والأيام تزيدوها رسوحاً وتأصلاً ، وخلعت الروح القبلية قناعها الذي كان يخفي ملامحها إبان الحقبة الأولى من العصر الإسلامي ، وسفرت عن وجهها ليعود العرب سيرتهم الأولى من التفاخر بالأنساب والتنافر بالألقاب والتنافس على الشرف والرياسة . وكان لا مفر من أن يستتبع ظهور المصيّبات قيام الحروب والفتنة القبلية التي كان لها ما كان من شأن خطير في ميزان الأحداث السياسية التي تحض عنها العصر الأموي ، وقد أوجزنا الحديث في فصل سابق عن أبرز هذه الفتنة القبلية .

وعلينا الآن أن ننظر مرة أخرى في هذه المصيّبات على أنها ظاهرة اجتماعية خطيرة ، بل نعلمها أخطر الظواهر الاجتماعية في العصر الأموي على الإطلاق ، وزاد في

(١) الكامل للبرد ١٦١/٢ .

(٢) البيان والتبيين ١/٧٠ وما بعدها .

خطورتها تجاور القبائل المتعادلة في البلد الواحد ، واتصال أحياها بعضها ببعض ، وكثرة المناسبات الداعية إلى وقوع الاختلاف بينها .

ولما هاجرت القبائل العربية من مواطنها إلى الأنصار واستقرت في الخواضر ظهرت عصبية أخرى جديدة هي عصبية أهل كل مصر لبلدهم . ويفيد أن العرب قد نشرت نفوسهم حب التحصب حتى بات كل افتراق بينهم على نحو ما يؤدي إلى عصبية تساوئه ، فأهل البادية يت魔鬼ون لبادتهم وأهل الحضر لخواضرهم وأهل الأنصار يت魔鬼 كل منهم لنصره ، فإذا ظهر في بلد ما مذهب ديني أو لغوي أو أدبي وجدها أهلة يت魔鬼ون له أيضاً .

ثم كان من نتيجة الفتوح العربية واحتكاك العرب بالأمم الأخرى أن شعر العرب بالأصرة التي تربط قبائلهم جمجمة وتوحد بينهم ، آصرة القومية ، فنظروا إلى الأعمم الأخرى نظرة السيد إلى المسود وتمسّكوا لعروبتهم واحتقرروا المالي . وانظر هؤلاء المالي أن يقابلوا عصبية العرب لقوميتهم بعصبية قومية مثلها وظهرت بوادر الحركة الشعوية التي استفحل أمرها واشتد سعادتها في عصر بنى العباس .

فيما إذا وجدنا بعد هذا أن المجتمع في العصر الأموي كان مجتمعًا لا تسوده روح الالفة والتآخي ولا الشعور بالمساواة بين طبقاته وهو لهذا مجتمع غير منسجم ولا متألف ، فعلى عاتق هذه العصبيات أولاً تقع تبعة هذا الاضطراب الاجتماعي ، فقد كانت في طبيعة العوامل التي أدت إلى فصم عرى الأوصاف الاجتماعية وتقطيع الوسائل التي كان ينبغي أن تؤلف ما بين أفراد المجتمع الواحد ، كذلك كانت هذه من الناحية السياسية ، أمضى المعاول التي قوشت صرح الدولة الأموية .

★ ★

كان نطاق العصبيات القبلية في العصر الأموي يتسع تارة وبضمير أخرى ، وهي في نطاقها الواسع قسمت العرب قسمين كبيرين : العدانيين والقططانيين ، وضمّن هذين الإطارين الوامسيين كانت تسيطر عصبيات أضيق نطاقاً ، ولا سيما داخل الفرع العداني . وفي مناسبات شتى كانت تنفصل بعض القبائل من أحد المسكنين الكبيرين

لتفضي إلى المعسكر الآخر ، كالذى حدث في فتن البصرة وخراسان إذ كانت ربيعة
تتجاذب في الغالب إلى جانب اليمن . وكانت الفتن والمنازعات التي تثور بسبب هذه
المصبيات متصلة طوال عصر بنى أمية ، شبهية بخلمية نخل دائمة الحركة . وعلى الرغم
من أن المنازعات السياسية والخلافات الدينية قد استطاعت في أحياناً كثيرة تحطيم
الوحدة القبلية حتى كانت الواقع تجري أحياناً بين قبيلة واحدة شطرتها الأهواء
السياسية إلى فريقين متنازعين^(١) على الرغم من هذا نجد أن الروح القبلية كانت هي
السائلة في العصر الأموي وهي التي أعطت حكم بنى أمية طابعاً قبلياً صافراً ، ولم
تنظر أكثر القبائل العربية إلى بنى أمية إلا من الوجهة القبلية ، فقد رأت فيهم قبيلة
قوية أتيحت لها السيادة على سائر القبائل العربية . ومثل هذه النظرة لم يكدر يوماً
لها أثر في عصر الدولة العباسية .

وكان المصبوبة القبلية هي الدافع الأول لأكثر الأحداث التي ظهرت في عصر
بني أمية ، وربما ارتدت أحياناً ثوباً سياسياً أو دينياً ، فحركة الخوارج مثلاً هي
إلى حد كبير تغيير غير مباشر عن سخط القبائل العربية على قبيلة قريش المستأنسة
بالحكم والسلطان . والنزاع بين علي ومعاوية إنما هو حلقة في سلسلة من المنازعات
قامت منذ العصر الجاهلي بين الأسرتين الهاشمية والأموية ولم تنته إلا بانتصار البيت
الهاشمي نهاية بقيام الدولة العباسية . وثورة الرعبة على الوليد بن يزيد لم يكن الدافع
اليها ما عرف به من محون وتهتك فحسب بل كان الحافز الأول لها نفحة الهاشمية
على الوليد ، وما قتله هؤلاء إلا بداعي المصيبة . وقد رد ولهوزن جل الأحداث السياسية
في عصر بنى أمية إلى الخصومات القبلية .

ولا أجد في تصوير عنف الشعور القبلي وسيطرته على نفوس العرب أصدق من
كلمة عبد الله بن خازم « إن ربيعة لم تزل غضباً على ربها منذ بعث الله الذي عليه الحمد لله »

(١) مثال ذلك ما جاء في الكامل للمبرد ٢٢٥/٢

من مصر ^(١) . وبلغ من حدة هذا الشعور أن رجلاً من الأزد كان يطوف بالبيت وهو يدعوا لأبيه ويأبى أن يدعو لأمه لأنها تحيض ، ومدح شاعر أسمدي رجلاً يهانياً فافتداه بأهل اليمن قاطبة ولم يفتدء بضر لأن نفسه لم تعط أن يفتدية بعشيرته ^(٢) .

وكان الشعور القبلي يطفئ أحياناً على الشعور الديني حتى عند الخوارج المعروفين بصدق تدينهم ، روى الطبرى أن الإزارقة لما قتلوا مقاتل بن مسحـع ، وكان قد وجه لقتاهم ، أخذوا امرأته وأقاموها فيمن يزيد ، فثار أحد رؤوس الخوارج من عشيرتها وقتلها حمية وغيره ^(٣) .

وكان مما زاد في حدة المنازعات القبلية الخصومات السياسية وضخامة الثروات المادية التي كان يجنحها ذو النفوذ والسلطان ، فالنزاع بين قبائل خراسان كان من أقوى دواعيه الطمع في احتياز ما يجيء من الخراج والجزية ، وكذلك زاد في حدتها سياسة بعض الولاة المتجيزيين لقباهم كأسد بن عبد الله مثلاً . وسبب آخر هو عدم المزاج بين القبائل التي هاجرت إلى الأمصار ، ومراعاة التوزيع القبلي سواء في الأمصار المنشأة ، أو في الأقاليم المفتوحة التي استوطنها العرب كخراسان .

وكان من جراء هذا التجاور في السكنى بين قبائل تأصل فيها الروح القبلي المدوافيي منذ أقدم العصور أن كان أدنى احتكاك يديها يؤدي إلى اشتعال فار حرب قبلية ضارية ، وقد حدثنا ابن أبي الحميد عن الفتن التي كانت ثور بين قبائل الكوفة بسبب هذا التجاور ^(٤) .

وقد ظهرت هذه المصيبة القبلية العنيفة عند بعض شعراء المذاهب الدينية ، فكان الكميـت ، على تشـيهـه ، شـدـيدـ التـعـصـبـ لـعـدـقـانـ ، وـكـانـ الـطـرـمـاحـ ، عـلـىـ خـارـجـيـتهـ ،

(١) تاريخ الطبرى ٤٢٤/٤ .

(٢) الكامل للمرد ١٩٨/١ .

(٣) الطبرى ١٦/٥ .

(٤) شرح نهج البلاغة ٢٣٩/٣ .

شدید التصب لقططان^(١). وقد لعب الشعراء دوراً خطيراً في إغراء القبائل بعضها البعض وتأريث ثار المصلحة القبلية.

ظهرت هذه الروح القبلية في العصر الأموي وفوي خطرها وعادت معها إلى الظهور تلك الروح الجاهلية القدمة التي حاربها الإسلام وسعى في القضاء عليها: روح التفاخر بالألقاب والتفاخر بالأنساب والاعتذاد بعكارم الآباء وما زر الأجداد. وكان مما يدعو إلى كثرة هذه المفاخرات أن تحظى قبيلة ما بنفوذ سياسي أو مغامن مادية وافرة أو مركز اجتماعي رفيع فتنظر إلى القبائل الأخرى نظرة ترفع واستعلاء تثير عليها حفيظة هذه القبائل فتحدها وتفاخرها. وكثيراً ما كانت وفود القبائل تلتقي في مجالس الخلفاء والولاة فيقوم خطباؤها وشعراؤها فيفخر كل بقبيلته وبعدد مآثرها. وقد املاكت كتب الأدب والتاريخ بأخبار هذه المفاخرات، بل قد ألفت فيها كتب مستقلة، وابن أبي الحدید يروي كثيراً منها نقالا عن كتاب في المفاخرات صنفه الزبير بن بكار^(٢)، وعلى الرغم من أن بعض المفاخرات كان يحمل في ظاهره طابعاً شخصياً، أو قبلياً كالمفاخرات التي قامت بين ابن عباس وابن الزبير، أو بين الحسن بن علي وعمرو بن العاص، أو بين ابن عباس ومعاوية، فإننا نستطيع بيسير استشراق ما يستتر وراءها من دوافع سياسية وخصوصيات حزبية، وأشهر ما خلفه لنا العصر الأموي من هذه المفاخرات ما جرى منها بين بني أمية وبني هاشم، وفي عهد معاوية خاصة. وقد كان هذان الفرعان اليمانيان من فروع الدولة القرشية يتنازعان الشرف والرئاسة وموارد الثروة منذ العصر الجاهلي، وكان ظهور النبوة في أحد أبناء البيت الهاشمي مثار غيط الفرع الأموي واستيائه، فلما ولى عثمان اشرأب بنو أمية بأعتاقهم وافتقرت ثغورهم عن اتساعه أصر سرعان

(١) البيان والتبيين ١٤٦/١.

(٢) نجد أخبار هذه المفاخرات في كتاب المفرizi «النزاع والخلاف بين بني أمية وبني هاشم» وفي شرح نهج البلاغة ١٠١/٢ وما بعدها و٤٨٩/٣ وما بعدها في العقد الفريد ٤/٤٣ وما بعدها.

ما بددتها مقتل عثمان وتولي علي الامر . ثم لما آل الأمر إليهم أخيراً بعد صراع عنيف وترفع معاوية على كرسي الحكم اعتدوا هذا انتصاراً مظفراً لهم على بني هاشم ومفارقة تضييق إلى سلسلة مفاحيرهم عليهم . وكانوا ينتزون كل مسانحة إبان حكمهم لبعض الهاشميين ومفاحيرتهم ، فلما أديل منهم للعباسين كان هذا خاتمة الصراع بين الأشرار ولم يتحقق للأمويين بعدئذ منازعة الهاشميين إلا في الأندلس .



القسم الثاني

الخطابة السياسية في عصر بنى أمية

(١) ازدهار الخطابة السياسية في عصر بنى أمية

أصابت الخطابة السياسية في عصر بنى أمية خطأً بعيداً من الازدهار والرقي واتبعت فيه خطأً صاعداً سواء في ناحية الكلم أو في ناحية الكيف ، فكان عصر بنى أمية لذلك العصر الذهبي للخطابة السياسية . وعلى الرغم من أن بوادر الخطابة السياسية قد وجدت منذ صدر الإسلام فإن براعتها لم تفتح وأغصانها لم تورق إلا في العصر الأموي ، حتى يمكن القول إن الخطابة السياسية فن أموي خالص ، ففي هذا العصر اكتملت لها أسباب النماء والازدهار والنضج حتى غدت فناً أدبياً راقياً يتجدد سائر الفنون الأدبية التي أظلمها عصر الدولة الأموية .

اما دواعي هذا الازدهار فنوجزها فيما يلى :

أـ من المقرر أن الخطابة السياسية تنشط وترزدھر في اليمیات التي لا يتوافر فيها الاستقرار السياسي ، ذلك لأنها فن يتوجه إلى مخاطبة الجماعات وإثارة مشاعر الجماهير وتحريث عواطفهم . فإن كانت أحوال البلاد مستقرة وكان الناس راضين عن الحكومة التي تسوسهم والسلطة التي تتولى أمورهم فها حاجة القوم إلى الخطابة وفيما يتحدث الخطباء . أما حين تضطرب أحوال البلاد الداخلية ويسود التذمر والسخط على السلطان القائم لسوء معاملته فينبئ تظاهر المعارضة لهذا السلطان وتكثر الفتن والثورات ، ويقوم الخطباء فيحرضون القوم على الثورة ، داعين إلى حكم أفسد وسياسة أقوم ، وتنشط الخطابة السياسية وترزدھر وبكثير الخطباء .

ولقد كانت الحالة السياسية في عصر الأمويين أبعد ما تكون عن المهدوء والاستقرار على نحو ما يبئسنا في فصل المؤثرات السياسية ، وطوال مدة حكمهم التي تناهز قرناً من الزمان لم تهدأ حركة المعارضة لحكمهم : لسانية تارة وحربية تارة أخرى ،

فكان عهدهم حافلا بالأحداث الداخلية والفتن والثورات . والسبب الأول لظهور حركة المعارضة للحكم الأموي هو شروع السخط والنقمة على سياسة بنى أمية وعما لهم ، أما بعث هذا السخط لدى معارضي بنى أمية فأمور شتى : جور في الأحكام ، وتمطيل للحدود ، وخروج عن أحكام الدين ، واحتياجات للف ، ولأموال المسلمين واستئثار بالنفوذ والسلطان ، وإشار المقربين والأنصار بالهبات ، وانتهاك حرمة الأماكن المقدسة ، واغتصاب الحقوق من أصحابها ، إلى غير ذلك . وإن شئت أن تقف على جانب مما أخذه السخطون على الحكم الأموي فراجع مثلا إلى خطبة أبي حمزة الشاري التي قالها يوم دخل المدينة فإليك واحد فيها كثيراً من أسباب هذا السخط : « سألناكم عن ولايكم هؤلاء فقلتم : والله ما فيهم الذي يعدل ، أخذوا المال من غير حله فوضوه في غير حقه ، وجاروا في الحكم فحكموا بغير ما أنزل الله ، وأستأروا بفيئنا فجعلوه دولة بين الأغنياء منهم ، وجعلوا مقاسينا وحقوقنا في مهور النساء وفروج الإماء .. إلخ (١) » ، ولو لا هذا السخط لما ظهرت هذه الخطب السياسية العنيفة التي قالها الخطباء المعارضون للحكم الأموي ، وما وجدت تبعاً لذلك خطب المؤيدين لبني أمية ، المناضلين عن سياستهم وحكمهم . ولم يكن ثمة وسيلة لنقد بنى أمية وإعلان السخط على حكمهم أقوى من الخطابة وأبعد أثراً في النفوس منها ، إذ كان شأنها يومذاك شأن الصحافة في عصرنا : تعكس مشاعر الجماهير وتعبر عن الرأي العام في المجتمع ، فكذلك كانت الخطابة يومئذ الوسيلة المثلى لنقد الحكام وللتغيير عن السخط الجماعي وإثارة مشاعر الجماهير على من يدهم السلطان .

على أن وفرة الفتـن والأحداث الداخلية في عصر بنـى أمـية كان لها دوافـع أخرى غير شروع السخط على السلطـان القـائم ، ومن هـذه الدوافـع النـزعة الفـردـية المـتأـصلة في نفس العـربـي ، وهي لا تـساعد على الاستـقرار السياسي واسـتبـاب النـظام وتنـافـي الخـضـوع المـطلـق لـذـوي السـلطـان ، فـكـلـ شـريف مـسودـ في قـومـه كان يـرى نـفسـه أـهـلا لـمنـصب الـخـلافـة أو الـإـمـارـة ، وهو لـذـلك يـنتـهز الفـرـصـ المـواتـية لـالـثـورـة وـإـعلـانـ

خلافه على القائمين بالامر . وقد صور ابن خلدون نفسية العرب الصعبية الانقياد وخلص من ذلك إلى أن العرب بسبب هذه التزعة لا يحصل لهم الملك إلا بضيغة دينية : « والسبب في ذلك أنهم خلق التوحش الذي فيهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم البعض ، للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرئاسة ، فقلما تجتمع أهواؤهم . فإن كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم ، وذهب خلق الكبير والمنافسة منهم ، فسهل انقيادهم واجتاعهم ^(١) . »

ومن هذه الدوافع أيضاً التزاع على تولي الخلافة ، في سبيل الظفر بها انقسم المسلمون أحراضاً وفرقأ شتى كل منها يدعى أنه أولى من غيره بتألي أمر المسلمين . واحتدم الصراع بين هذه الأحزاب فكثرت العائن والثورات والمحروbs الداخلية ، وكان الخطباء في طلبية مؤرثي هذه العائن وموقدى نارها .

يضاف إلى هذه الدوافع كلها العصبية القبلية العنيفة التي عرف بها العرب والتي حدّمت بسببها قتن قبلية لم تهدأ ثائرتها طوال عصر بنى أمية .

هذه المنازعات والثورات والأحداث الداخلية تمخضت عنها حركة خطابية نشيطة وظهر بسببها عدد وفر من الخطباء ، وكان لكل من الفرق والقبائل المتنازعة خطباؤه الناطقون بلسانه .

٣ - ثم كانت وفرة الفتوح والمغاربي سبباً آخر لازهار الحركة الخطابية في هذا العصر ، وإن كلمة بلية نلمس من نفس العربي موطن الحمبة والآباء الخليقة بأن تدفعه إلى خوض غمرات القتال واقتحام صفوف العدو غير هياب ينشد الظفر أو لقاء المنية . وهذه الاستجابة السريعة في نفس العربي لم ينفع القول تفسر بسبب اعتماد قادة الجيوش إبان الفتوح العربية على الخطباء والقصاص ، وتقينا من ثاحبة أخرى على المنزلة الخطيرة التي احتلتها الخطابة في العصر الأموي .

(١) مقدمة ابن خلدون من ١٥١ (التجارية) .

٣ - وثمة سبب ثالث لازدهار الخطابة السياسية متصل بالنظام السياسي الذي ساد في هذا المصر . فقد انقلب العرب من مرحلة المداوة إلى مرحلة الحياة المتحضرة ، وكانوا قبائل متفرقة لا تخضع لقانون يوحد بينها فأصبحوا يخضعون كلهم لدولة واحدة ذات أوضاع سياسية منظمة ونظم إدارية مستقرة . ولم يكن بد في ظل هذا التنظيم السياسي من أن يتصل الحكم برعيته ليطمعوا على الخطبة التي سيسلكها أو ليوجهها ويرشدتها ، أو ليسترشد برأيها في الخطوب والملهات . وكانت الخطابة عصريّة أفضل وسيلة لاتصال الراعي برعيته والحاكم بالحكومين ، فكان هذا من دواعي كثرة الخطاب السياسية وازدهارها .

٤ - وكان من عوامل ازدهارها أيضاً أن دعاء الأحزاب السياسية اتخذوها أداة لنشر الدعوة لأحزابهم واستهلاك الأنصار إليهم ، وكان خطباء كل حزب يعرضون بواسطتها مبادئه حزبهم ونظراً له السياسية ويفقدون الأحزاب الأخرى وبعدها ما أخذ عليها ، وربما عقدت مجالس المعاشرة بين الأحزاب السياسية يتبارى فيها الخطباء في الدفاع عن أحزابهم ونصرتها . وعلى الجملة كانت الخطابة السياسية تؤدي المهمة التي تتولاها اليوم الصحافة السياسية في نصرة الأحزاب السياسية والدعوة لها .

وقد كان قيام هذه الأحزاب نفسها في عصر بيأميه من بواعث ازدهار الخطابة السياسية فيه . ذلك أن الخطابة لكي تزدهر ، تفتقر إلى مابسميه علماء الاجتماع « الجماعة النفسية » ، وهي الجماعة ذات الروح المشتركة . ولا يكفي أن يجتمع عدد كبير من الناس لتكون لهم صفة الجماعة النفسية بل ثمة شروط لابد من توافرها لتكون هذه الجماعة . والاحزاب السياسية هي ضرب من ضروب هذه الجماعات النفسية ، وقد انتهى الباحثون إلى أن الأفراد يختلفون في تفكيرهم وروحهم حين يكونون جماعة متنظمة ، وهذه الروح المشتركة للجماعة هي التي تمهد السبيل أمام الدعوة والمؤمنين للتاثير في الجماهير واستهالتها إلى الفكرة أو الدعوة التي يعملون من أجلها . يقول غومستاف لوبيون في كتابه « روح الجماعات » : إن أبرز أمر

في الجماعة النفسية هو أن الأفراد الذين تألف منهم ، منها كانوا ومهما تمايلوا أو اختلفوا في طراز حياتهم وأعمالهم وأخلاقهم وعقولهم ، إذا ماتحولوا إلى جماعة من هم هذه الجماعة ضرباً من الروح الجماعية . وهذه الروح تحملهم يشعرون ويفكرون ويسيرون على وجه يخالف ما يشعر به ويفكر فيه وبسير عليه كل واحد منهم وهو منفرد . ومن الأفكار والمشاعر مالا يظهر أو يتحول إلى أعمال إلا لدى الأفراد في الجماعة^(١) .



ومن المقرر أن الخطابة السياسية تزدهر في ظل النظم التي تتبع حرية الفكر والقول ، إذ أنها تتبع للخطيب أن يدل برأيه بحرية وصراحة وتشعر الفرد بحقوقه وكرامته . والخطابة اليونانية إنما أصابت حظها الأولي من الازدهار في الأطوار التي أباحت فيها حرية الفكر ، ولا سيما في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد الذين ظهر فيها أربع خطباء الإغريق وفي طبعتهم بريكليس Péricles وديموسثين Démosthène . فهل توافرت حرية الفكر والقول هذه في العصر الاموي وهل كانت سبباً من أسباب ازدهار الخطابة السياسية فيه . الواقع أن الروح الديوراتية التي كانت سائدة في عصر الرامدين قد توارت في العصر الاموي لتحل محلها إرادة فردية مطلقة لا يرضيها أن يجهر لسان بمارضتها ، ولم تكن حرية القول متاحة إلا لمن مشوا في ركب أرباب السلطان ، أما من مسؤولاته نفسه أن يجهر بالفقد والممارضة فليس له إلا السيف ، وهذا هو ذا عبد الملك يقول من خطبة له : فلما يأني من قول قائل ، ورشقة جاهل ، فلما يأني ولينكم أن أسمع النغوة فأصم تصميم الخسام المطرور ، وأصول صيدل الحق المотор . وإنما هي المصادحة والمحاسبة بظباط السيف وأسنة الرماح^(٢) .

(١) روح الجماعات لجوستاف لوبيون ، ترجمة عادل زعير ص ٣٠ .

(٢) صبح الأعشى ٢١٨/١ ، المطرور : المشحوذ .

ولعل هذا ما يفسر لنا قلة خطب المعارضين للحكم الأموي بالقياس إلى خطب المؤيدين . ولو أن حرية القول والنقد كانت متأحة للجميع لامتنان الكتب بخطب الخطباء من حملة لواء المعارضة . فالحرية السياسية في عصر بنى أمية لم تكن متأحة إلا للخطابة المؤيدة للحكم الأموي وسلطان بنى أمية .

هـ - وثمة أسباب تفسر لنا ما حظيت به الخطابة الاموية عامة في هذا العصر من رقي في الناحية الفنية .

(ا) فان الخطابة في هذا العصر مدينة بارتقائها الفني أولاً إلى كتابتنا الأدبي الأول الذي استمد من مهنيه الخطباء والشعراء والكتاب كافة . فالقرآن الكريم هو الذي حفظ لغة العربية رواها وروتها ، وهو الذي رفد بلغاء العرب بفيض من مسحياته لا ينضب . وستتحقق أثر القرآن الكريم في الخطابة ؛ لغة وأسلوبها وأفكارها ، حينما نتحدث عن خصائص الخطابة السياسية .

(ب) وهي مدينة ثانياً إلى التراث الخطابي القيم الذي خلفه لنا عصر الخلفاء الراشدين ، وقد كانت خطب الرسول عليه السلام وخلفائه - ولا سيما خطب علي - غوذجاً وضمه خطباء العصر الأموي نصب أعينهم واهتدوا بهديه .

(ج) ولا ينبغي لنا أن نغفل عملاً خطيراً من عوامل نهضة الخطابة في هذا العصر . فعلى الرغم من أن اختلاط العرب بالأعاجم كان له آثار لاتحمد في اللغة والأدب ، نجد أن الفصاحة العربية الفطرية لم تخمد جذورها في هذا العصر ولم ينطفئ وعيض البيان العربي الناصع . وذلك لقرب عهد العرب بالعصر الجاهلي ، عصر الفصاحة والسلبية الخطابية ، ولتردد الفصحاء على البدائية و مشافهتهم للأعراب الخلص ، فظللت لغة الخطابة بوجه عام سليمة ناصعة لا تشوبها شوائب المجمدة واللاحن والركاكة ، وظل أسلوب الخطابة يحيى أساليب فصحاً الجاهلية وصدر الإسلام في جزالة التعبير ومتانة التأليف وقوه الأداء . ولقد أدى اختلاط العرب بالأعاجم وأملاجع العناصر العربية بالعناصر المجمعية ذلك الامتزاج الوثيق في العصر العباسي

والعصور التي تلت هذه إلى فساد السلاطين الخطابية واللغوية وكان ذلك من أبرز الدواعي لانحطاط فن الخطابة في تلك العصور .

(د) ومن جانب آخر استطاعت الخطابة أن تخاطر خطوة واسعة في مضمار الرقي الفكري في هذا العصر بفضل هذا الانقلاب الفكري الخطير الذي أحدهما ظهور الإسلام في الأمة العربية ، إذ كانت في عصرها الجاهلي تعيش في حالة أدنى إلى الجدب الفكري ، فلما جاء الإسلام ملأ جانباً من هذا الفراغ بما حمله من أفكار جديدة ملأت على العرب حياتهم . ثم اتصل العرب بسكان البلاد المفتوحة ووقفوا على تراثها الثقافي ففتحت أمام الفكر العربي نوافذ جديدة واتسعت آفاقه ، وانعكس صدى هذا الغنى الفكري إلى حد ما في الخطابة الاممية ، ولا سيما المدينية منها ، بيد أنها لم تستوعب كل التيارات الفكرية التي ظهرت في ذلك العصر لأن مجالها محدود ، فهي تتجه إلى عامة الجماهير لا إلى الطبقة المختارة منها وهي لذلك تظل في مستواها الفكري بعيدة عن العمق والتعقيد لتكون في مستوى الجماعات التي توجه إليها .

هذه العوامل المتعددة التي ذكرناها أدت إلى نشاط الخطابة السياسية في عصر بني مردان وإلى النهوض بهذا الفن فكرياً وفنرياً . وكان من مظاهر ازدهار الخطابة السياسية وفرة خطباء السياسة الذين ظهروا في هذا العصر ، على ما سنبين فيما بعد ونبوغ طائفة من ألمع خطباء السياسة الذين عرفتهم تاريخنا الأدبي في جميع عصوره . وكان من مظاهره كذلك تمدد أقسام الخطابة السياسية فهناك الخطاب السياسية الخالصة ، والمناظرات ، والمشاورات ، والخطب الحربية ، والوصايا السياسية والحربية .

(٢) موضوعها ، أقسامها

تناول الخطابة السياسية كل ماله صلة بأحوال الدولة وشؤونها العامة ، داخلية كانت أو خارجية . ومدارها الاول على الحكم وما يتصل به ، فهي تتعرض للكلام عمن هو صاحب الحق في تولي أمور القوم ، والكفاءات التي ينبغي أن يتحلى بها الحاكم ، والسياسة التي ينبغي اتباعها في الحكم ، وواجبات كل من الرعية والراغي وحقوقها ، والتشريعات الواجب إصدارها ، ووسائل الإصلاح التي ينبغي الأخذ بها . وحين يدهم القوم خطب جمل ، كأن تكون البلاد عرضة لوباء جارف ، أو فتنة عمياء ، أو غزو يهدد كيان الدولة ، وتدعى الضرورة إلى الخوض في هذه الأمور ، فإن هذه الموضوعات كلها تقع كذلك في نطاق الخطابة السياسية . وكذلك حين تهيا الدولة لغزو أمة أخرى وفتح بلادها ، ويقوم الخطيب فيحثون الجند المتحين إلى ساح الوغى على الاستبسال في القتال ، فإن الخطيب المتصلة بالحرب والفتح تدرج أيضا ضمن موضوعات الخطابة السياسية بدلولها الواسع . وما يلحق بالخطابة السياسية تلك الوصايا الحربية التي يزود بها الحاكم قائد جيشه حين يوجهه إلى لقاء العدو ، ذاتاً عن بلاده أو قاصداً الفتح والغزو .

وقد أدرج أرسسطو الخطابة السياسية في تقسيمه الزمني للخطابة ، ضمن الخطابة الاستشارية ، وهي التي تتجه إلى المستقبل ، ويتوجه فيها الخطيب إلى السامعين بالنصيحة أو التحذير (١) .

ونستطيع أن نقسم الخطابة السياسية في العصر الاموي إلى الأنواع التالية :

- ١ - الخطب السياسية الخالصة .
- ٢ - المناظرات السياسية .
- ٣ - المشاورات السياسية .
- ٤ - الخطب الحربية .
- ٥ - الوصايا السياسية والحرية .



(٣) خصائصها

لاتتفق أقسام الخطابة السياسية الأموية كلها في خصائصها الفكرية والنفسية ، خطب الفتوح مثلاً تختلف في أفكارها عن المظاهرات السياسية ، بل إن الخطاب السياسية الخالصة ليست لها خصائص فكرية واحدة ، فخطب أنصار بن أبي أمية تختلف عن خطب معارضيه ، ولذلك مندرس خصائص كل من هذه الأقسام على حدة ، ثم نذكر المميزات الفنية التي تشارك فيها جميع الأقسام .

أولاً - الخطاب السياسية الخالصة

(أ) خطب الأمويين وأنصارهم

ثمة أفكار تردد في جل خطب الأمويين وأنصارهم ، ونجد مع ذلك اختلافاً بين أفكار كل من هؤلاء الخطباء مرجعه إلى شخصية الخطيب وإلى ما يلقاه من تأييد لأنصار وعداؤه المعارضين ، وإلى مناسبة الخطبة . وأبرز الأفكار التي نجد خطباء الحزب الاموي يتكلمون عليها هي التالية :

١ - الاحتجاج لحق بنى أمية في الحكم

كان بنو أمية يرون أنهم حكام المسلمين الشرعيون الذين انعقد عليهم إجماع الأمة ، لكنهم كانوا لا يجهلون مع ذلك أنهم إنما ظفروا بالخلافة عن طريق القوة والخديعة ، فلم يحمل جمهور المسلمين على مبايعتهم إلا الخوف أو المال . ولم يكونوا قادرين على إثبات حقوقهم في تولي أمور المسلمين بالحججة الدامنة والبرهان القاطع ، فكانوا لذلك فلما يتعرضون في خطبهم لهم وأنصارهم لهذا الأمر ، وإذا تعرضوا له سلكوا سبيل المداورة والمالطة ، وربما صرحوا باضطرارهم إلى سلوك سبيل القوة والقتال لانتزاع حقوقهم من الطامعين فيه . أقر أصلاً خطبة عمرو بن سعيد الأشدق حين ولاد أبوه مكة ، فهو يقول فيها : «... ثم شرّج أمرَ بين أُمرينْ ، فقتلنا وقتلنا ، فوالله ما ذُرْعَنَا وما ذُرْعَنَّا حتى شربَ الدُّمْ دُمْ ، وأكلَ اللَّحْمَ لَهْ ، وقرعَ العظَمَ عظَمَ» ، وعاد

الحرام حلالاً، وأمسكت كل ذي حسناً عن خرب مهندٌ، عر كا عر كا، وعسفاً عسفاً، وخزاً ونهاً، حتى طابوا عن حقنا نفساً^(١) .. ويقول معاوية في خطبته بالمدينة عام الجماعة : « أما بعد » ، فإني والله ما وليتها بحجبة منكم ، ولا مسراً بولابي ، ولكنني حالدةكم بسيفي هذا مجالدة^(٢) .

فالحق الذي يدعونه إذن حق القوة ، وهذه هي جحثهم الدامنة التي يأتون بها ، وربما زعموا أحياناً أن سلطانهم مستمد من الله ، على أن فكرة الحق الإلهي هذه لم تكن واضحة بعد لا في أذهان الحاكمين ولا في أذهان الحكومين ، فزياد يقول في البتراء : « يا أيها الناس ، إنا أصيحتنا لكم مسامة » ، وعنهم ذادة^(٣) ، نسو سُكْم بسلطان الله الذي أعطانا ، وندود عنكم بني الله الذي خوّلنا^(٤) .. ييد أن خطباء بنى أمية لم يأجروا على هذه الناحية ، وإنما تعرض لها أنصارهم من الشعراء ، والشعراء يباح لهم من الجنوح إلى المبالغة والكذب ما لا يباح مثله للخطباء .

وفي أحياناً قليلة كان خطباء بنى أمية يتعرضون لسؤال توارث الملك في البيت الأموي ، وهي قضية لا يسهل الاحتجاج لها . وربما تجدوها في المذاخرات أكثر وبرداً منها في الخطب ، وما أراد معاويةأخذ البيعة ليزيد كانت حجته في ذلك أن أملاكه في الحكم اتبع كل منهم طريقة تحالف طريقة صاحبه في الاستخلاف ، وأنه إنما اختار هذه الطريقة حقناً للدماء المسلمين لما هم عليه من اختلاف الكلمة : « فلما رأى الملك رأيت أن أباع لزيد ، لما وقع الناس فيه من الاختلاف ، ونظرًا لهم بين الإنفاق^(٥) » .

٢ - مطالبة الروعية بالطاعة

أما وقد قال بنو أمية الخلافة طوعاً أو كرهاً ، وأصبح حكمهم طابعه الشرعي بجباية المسلمين لهم ، فقد وجب على الروعية طاعتهم ، وعدم الخروج عليهم ، ومن هنا

(١) العقد الفريد ٤/١٣٣ شرج هنا يعني فرق .

(٢) المصدر السابق ٤/٨١ .

(٣) البيان والتبيين ٢/٦١ .

(٤) العقد الفريد ٤/٣٦٨ .

كانت خطب بني أمية وأنصارهم تلخص على مطالبة الرعية بالطاعة، والتحذير من الفتنة والمعصية. وعلى الأغلب نجدهم يضمون لقاء الطاعة الواجبة على الرعية، العدل المفروض على الراعي، وهذه الفكرة تتكرر في جمل خطابهم، نجدها مثلاً في خطبة لعامة بن أبي سفيان ببصر : « فلنا عليكم السمع والطاعة »، ولكن علينا العدل، فأيّنا غدر فلا ذمة له عند صاحبه^(١). وفي خطبة يزيد الناقص بعد قتله الوليد بن يزيد نجده يقول : « فإن أنا وفيت لكم، فعليكم السمع والطاعة، وحسن المؤازرة والمكافحة ». وإن لم أوف لكم، فلكم أن تخلعوا^(٢) .. على أنها نجدهم أحياناً يكتفون بطلب الطاعة دون أن يوجّها على أنفسهم لقاءها عدلاً أو وفاء بعهده، وإنما هو الخضوع المطلق أو السيف، شأن الحجاج في جمل خطبه، وكقول خالد القسري من خطبة له بمكة : « فعليكم بالطاعة ولزوم الجماعة، وإياكم والشيمات، فإني والله ما أؤتي بأحد يطعن على إمامه إلا صليته في الحرم^(٣) ».

أما عمر بن عبد العزيز فكان يلح على رعيته أن تطيعه ما أطاع الله، فإن لم يطعه حلت لهم معصيته، من ذلك قوله في خطبته حين بايعه الناس : « ألا لا طاعة لخليق في ممكبة الخالق، من أطاع الله وجبت طاعته، ومن عصى الله فلا طاعة له ». أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم ..^(٤) ».

٣ - بيان خطة الحكم

كما تقدم الوزارات اليوم ببيانها الوزاري الذي توضح فيه الخطة التي ستتجري عليها في الحكم، كان الخليفة الأموي يعلن للرعية عند توليه الأمر خطته في الحكم والمبادئ التي سيخذلها شعاراً له. وربما عمد الوالي إلى إيضاح خطته أيضاً في مستهل ولايته. والخطبة المتراء خير ما يمثل لنا هذا اللون من الخطب، وفيها يعلن زياد لأهل

(١) العقد الفريد ٤/٤ . ١٤٠ .

(٢) البيان والتبيين ٢/١ . ١٤١ .

(٣) تاريخ الطبراني ٥/٢٤٣ . ٢٤٣ .

(٤) جهرة خطب العرب ٢/١٩١ .

البصرة خطبه فيقول : «إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلاح إلا بما صلحت به أوله : لين في غير ضعف ، وشدة في غير عُنف ، وإنني أقسم بالله لا أخذن» الولي بالموالي ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والمطبيع بالمعاصي ، إلخ .. وفي الغالب نجد خطبة الحاكم متفقة وشخصيته ، فهي تصور لنا أسلوبه في الحكم ، كما تعكس انا نفسيه وسلوكيه وطريقة تفكيره . وكان الخلفاء والولاة حراساً على ابراز حكمهم في إطار مفرج يجتذب القلوب ، فهم يدعون الرعية بالعدل وحسن السيرة وعدم تأخير العطاء وعدم تجمير البعوث ، وامتناعه كتاب الله وسمنه نديمه في أحكامهم ، وتجتمع هذه الأفكار في خطبة يزيد بن الوليد التي قالها لائز مقتل الوليد الثاني ومنها يقول : «إن لكم عليّ إن لم يلت أموركم إلا أضع لبنة على لبنة ، ولا حجرأ على حجر ، ولا أنقل مالا من بلد إلى بلد ، حتى أسد شغره ، وأقيم مصالحه ، بما تحتاجون إليه ، وتقودون به . فإن فضل شيء ردته إلى البلد الذي يليه ، وهو من أحوج البلدان إليه ، حتى تستقيم المعيشة بين المسلمين وتكونوا فيه سواس . ولا أجركم في بعوثكم . فتفتنوا وتفتنوا أهالكم»^(١) .

٤ - التهديد والوعيد

ما كان بنو أمية يجهلون أنهم إذا ظفروا بالحكم عن طريق الفوة وأن جل أهل الأمصار ما دانوا حكمهم إلا مكرهين وأن أعدائهم - وإن تظاهروا أحياناً بالطاعة وأخلدوا للسكنية - يتربصون بهم الدوائر ويت حينون الفرصة للثورة عليهم فـكان خطبهما الحزب الأموي لذلك يعمدون في خطبهم إلى تهديد من تحدهه نفسه بالثورة والمعصيات بالويل والثبور ويتوعدون الخارجين عليهم بالنكال وسوء المصير ، وينفرون القوم من الفتنة ويحذر ونهم مغبتها في نهاية خطبة لما ورد نسخه يقول : «وليكم والفتنة فإنها تفسد المعيشة وتذكر النعمة»^(٢) . ويقول عبد الملك في خطبة له : «فمن قال برآمه كذا قلنا له بسيفنا كذا»^(٣) . وبقول عتبة بن أبي سفيان في مطلع إحدى خطبه : «يا أهل مصر

(١) العقد الفريد ٤/٩٥ .

(٢) العقد الفريد ٤/٨١ .

(٣) المصدر السابق ٤/١٠٤ .

إياكم أن تكونوا للسيف حصيداً^(١) . ويصطنع زiad أسلوب الوعيد في خطبته البراء فيختتمها بقوله : « وَإِنَّمَا اللَّهُ يَعْلَمُ فِيمَكُمْ لَعْنَرَعِي كَثِيرَةً فَلَمَّا حَذَرَ كُلَّ امْرَىءٍ مِّنْكُمْ أَنْ يَكُونَ مِنْ صَرْعَائِي^(٢) » . وخطب الحجاج مليئة كذلك بالوعيد والتهديد واعله أكثر خطبهما في أمية اعتماداً على هذا الأسلوب وربما أتى به في قالب تصويري ليكون أبلغ تأثيراً في النفوس : « إِنِّي لَأُرَى رُؤُوساً قَدْ أَيْمَتْ وَحْانَ قَطَاوِهَا وَإِنِّي لَصَاحِبُهَا وَكَافِي أَنْظُرْ إِلَى الدَّمَاءِ بَيْنَ الْمَاهِمِ وَالْمَحْمِ^(٣) » .

وهذا التهديد منصب فقط على من يجرون بما رخصتهم إبني أمية قولأً أو فعلأً ، أما من ظاهر بالولاء لهم تقية وطوي جوانحه على بعضهم والنقمة عليهم فلأنهم ما كانوا يحفرون به ، حسبهم أنه لا يدعون إلى الفتنة ولا يؤلب عليهم الأعداء . وبنو أمية كثيراً ما يشيرون في خطبهم إلى أن هذا كل ما ينتفعونه من الناس وهم لا يطمئنون منهم بالولاء الصادق والمودة الخالصة فمما ورثوا يخاطب أهل المدينة فيقول : « وَاللَّهُ لَا أَحْمَلُ السَّيْفَ عَلَى مَنْ لَا سَيْفَ لَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِّنْكُمْ إِلَّا مَا يَسْتَشْفِي بِهِ الْقَاتِلُ بِمَسَانِهِ فَقَدْ جَعَلَتْ ذَلِكَ دَبْرَ أَذْنِي وَتَحْتَ قَدْمِي^(٤) » . ويقول الحجاج في نهاية خطبته له قالها مات عبد الملك : « فَوَيْايَيْ إِيَاكُمْ ، مَنْ تَكَلَّمُ قَتْلَنَاهُ ، وَمَنْ سَكَتَ مَاتَ بَدَائِهِ غَمَّ^(٥) » . وكذلك نجد هذه الفكرة في نهاية خطبته قالها الوليد بن عبد الملك يوم توفي أبوه : « وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ أَبْدَى لَنَا ذَاتَ نَفْسِهِ ضَرَبَنَا الْذِي فِيهِ عَيْنَاهُ ، وَمَنْ سَكَتَ مَاتَ بَدَائِهِ^(٦) » .

٥ - الترغيب بالعطايا والهبات

لم تكن خطب الحزب الأموي تنطوي على التهديد والوعيد خسب . وإنما كانت تجمع بين الترهيب والترغيب ، وهي الطريقة الخطابية المثلثة للتأثير في النفوس واستهلاك

(١) العقد الفريد ٤/١٣٧ .

(٢) البيان والتبيين ٢/٦١ .

(٣) السكامل للمبرد ١/٢٢٤ .

(٤) العقد الفريد ٤/٨١ .

(٥) المصدر السابق ٤/١٢٢ .

(٦) المصدر السابق ٤/٩١ .

الناس . فإلى جانب التهديد بمعاقبة الماءعين في الفتن أبلغ عقوبة ، نجد الأمويين يهدّون الوعود المغربية على المسلمين الموادعين . وقد كان منع المطاء أو بذلك سلاحاً في بدء بن أبي أمية يهدّون استخدامه ، فانظر إلى عبد الملك يعقب التهديد والوعيد بذكر الناس بنعمه عليهم وعطائهم لهم ، وذلك بعد قوله عمرأ الأشدق ، فيقول : « ... واستديوا النعمة التي ابتدأتم بغير عيشها ، ونفيس زيتها ، فما لكم من ذلك بين فضيلتين : عاجل الخفف والدعة ، وآجل الجزاء والمشوبة ، عصكم الله من الشيطان وقتته ونزعه ، وأمدكم بحسن موته وحفظه . انقضوا رحمة الله ، إلى قبض أعطياتكم غير مقطوعة عنكم ولا مقدرة عليكم^(١) » . ومثل هذا الإغراء المادي نجده في كثير من خطب الأمويين .

٦ - تحدي الأعداء وشم المعارضين

لم يكن موقف خطباء الحزب الأموي من معارضهم والناقدين عليهم رفيقاً لياماً ، وإنما كانوا يسلكون لزاءهم سبيل التحدي السافر ، ويلوحون بقبضتهم متوعدين ، ولا يتورعون عن شتم مناهضهم أقبح شتم ، والصاق النعوت والألقاب المستقبحة بهم ، وتحقيرهم ما شاء لهم التحقير ، وإظهار الاستخفاف بهم ، والتهوين من شأنهم . وأكثر ما نجد هذا في خطب الحجاج وعتبة بن أبي سفيان ، ولا تكاد تخلو خطبة لها من الشتم والتحدي والتحقير ، فإذا خاطب الحجاج أهل العراق فبمثل قوله : « يا أهل العراق ، يا أهل الشفاق والنفاق ، ومساويء الأخلاق ، وبني المكيبة ، وعيدي العصا ، وأولاد الإمام ... لخ^(٢) » ، وإذا خاطب عتبة أهل مصر صب في أسمائهم شتائم من كل لون : « يا حاملي الأم أنوف ركبتك بين أعين ... » وهذا الأسلوب في خطاب المناهضين والمعارضين شائع في خطب الأمويين .

٧ - الفخر والبهاء والاعتزاز بالقوة

كانت خطب الأمويين تفسح مجالاً لظهور روح التفاخر والتعالي المتأصلة في نفس العربي ، فلما كان الخطيب يغفل عن التنويه بمزاياه ومناقبه ، ولكن فخر

(١) صبح الأعشى ٢١٨/١ .

(٢) البيان والتبيين ١٣٧/٢ . والمكيبة : الشيعة .

الخطيب بذاته ليس القصد منه هنا المفاخرة والمباهة ، وإنما الغاية منه إرهاب الخطابين وإلقاء الروع في نفوسهم وتحديهم ، ومن هنا كان الخطيب يحرص على إبراز صفات القوة والبطاش والشدة التي يتسم بها ، كما كان يحرص على إظهار الحزب الأموي بظاهر الحزب القوي الصعب المراس الذي يطاش بعده بلا هواة ، فالفاخر بالقوة في هذه الخطاب غايتها إذن إرهاب المعارضين وحمل الناس على الإذعان المطلق لسلطان بي أمية ، وربما أدى خفر الخطيب بقوته إلى طعنه لا بأعدائه خسب وإنما ب الرجال حزبه أيضاً ، صنيع عبد الملك حين وقف خطيباً عمه فقال : « أيها الناس ، إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف ، ولا بال الخليفة المداهين ، ولا بال الخليفة المأفوون . فهن قال برأسه كذا ، قلنا له بسيفنا كذا^(١) . وحين باشا عبد الملك بحسب ابن الزبير وقف يفخر على أهل العراق بقوته بي أمية وكثرة ما خاضوا من حروب : « أيها الناس ، إن الحرب صعبة مُرّة ، وإن السلم أمنٌ ومسرة ، وقد زَبَقْتُمُ الحرب وزَبَقْتُمُها ، فمرفناها وألفناها » فتحن بنوها ، وهي أمّنا^(٢) . وفي خطبة لعمرو الأشدق نجده يفخر بالشباب والقوة : « فقد والله ملكناكم بالشباب المقتبل ، البعيد الأمل ، الطويل الأجل ، حين فرغ من الصغر ، ودخل في الكبر ، حليمٌ حديد ، لئن شدید ، رقيقٌ كثيف ، رفيق عنيف ، حين اشتد عظمه ، واعتدل جسمه ، ورمي الدهر بصره ، واستقبله بأشره . فهو إن عضّ نهس ، وإن سطا فرس ، لا يُقلّل له بالمعنى ، ولا تقرع له العصا ، ولا يهوى السعْي^(٣) . وحين كان الضحاك بن قيس في صف الأمويين وقف

(١) العقد الفريد ٤/٤٠١ . وأراد بال الخليفة المستضعف عثمان بن عفان ، والمداهين معاوية ، وبالمأفوون يزيد بن معاوية . وقد علق النظام على خطبته هذه بقوله : أما والله لو لا نسبك من هذا المستضعف وسببك من هذا المداهين لكنت منها أبعد من العيوق ، والله ما أخذتها بوراثة ، ولا سابقة ولا قرابة ، ولا بدءوي شوري ولا بوصية . (العقد ٤/٩٠) .

(٢) أمالى القالى ١٢/١ . زبه : دفعه ، أراد أن الحرب قد عركتم وعجزت عن دفعها .

(٣) العقد الفريد ٤/١٣٢ . فرس الفريسة : دفع عنقها . السعْي : الباطل ، يقال : جرى فلان السعْي أي جرى إلى أمر لا يعرفه .

يتمدد أهل الكوفة ويفخر بقوته وغزوته ومشيئته التي لا مرد لها : « أما إني لصاحبكم الذي أغرت^١ على بلادكم ، فكنت أول من غزاها في الإسلام ، وشرب من ماء الشعلبية ومن شاطئ الفرات . أعقاب من شئت ، وأعفو عنمن شئت . لقد ذَهَرْت^٢ المُخْدَرَات في خدورهن ، وإن^٣ كانت المرأة ليكي ابنتها فلا ترهب ولا تُسكته إلا بذكر اسمي^(٤) . »

٨ - الاعتراف بعدم الكمال

وَبْنُو أُمِّيَّةَ ، عَلَى خُفْرِهِمْ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا لَهُمْ ، مَا كَانُوا يَذَهَّبُونَ إِلَى حَدِّ ادْعَاءِ
الْكَلَّالِ لِأَنفُسِهِمْ وَالْزَّعْمِ بِأَنَّهُمْ خَيْرُ النَّاسِ طَرَّآً ، وَإِنَّمَا كَانُوا يَرْوَنَ أَنفُسِهِمْ أَصْلَحُ
الْقَوْمَ لِتَوْلِي أَمْوَارَ الْمُسْلِمِينَ ، وَهُمْ لِذَلِكَ يَطْلَبُونَ إِلَى النَّاسِ أَنْ يَقْبِلُوهُمْ عَلَى مَا هُمْ
عَلَيْهِ ، فَهُنَّ الْخَيْرُ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَحْكُمُهُمْ بَنُو أُمِّيَّةَ مِنْ أَنْ يَحْكُمُهُمْ سُوَاهُمْ ، إِذَا أَنْ لَهُمْ
مِّنَ الْمَازِيَا مَا لِيَسْ لِغَيْرِهِمْ . وَهَذَا مَعَاوِيَةٌ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ بِالْمَدِينَةِ : « . . . فَإِنْ لَمْ
تَجْدُونِي خَيْرَكُمْ ، فَإِنِّي خَيْرٌ لَّكُمْ وَلَا يَدْرِي . . . » وَيَقُولُ فِي خُطْبَةٍ أُخْرَى : « فَاقْبِلُو نَا
بِمَا فِينَا ، فَإِنَّ مَا وَرَأَنَا شَرٌّ لَّكُمْ (٢) . . . » ، وَهَذِهِ الْفَكْرَةُ تَرْدَدُ كَثِيرًا فِي خُطُبِ
عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الَّتِي الْمَتَوَاضِعُ ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ فِي كَلَّةٍ لِهِ : « أَلَا إِنِّي أَسْتَ
بِخَيْرِكُمْ ، وَإِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِّنْكُمْ . . . غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ جَعَلَنِي أَنْقَلَكُمْ حِلَّا (٣) . . . »

۹ - استغلال مقتل عثمان

لا يفوّت خطباء الحزب الاموي أن يشيروا ، كلـا اقتضى الأمر ، إلى مقتل عثمان ، متخدّين ذلك ذريعة للانتقام من كان لهم يد في قتله والتفكيل بهم ، واتّهاج سبيلاً القوة والشدة في الحكم . وقد جعل عبد الملك ، في خطبة له بالمدينة ، مقتل عثمان سبيلاً لانطواء نفوس بنـي أمية على الكـره الدائم المقيم لأهل

(١) شرح نهج البلاغة ١٠٥/١ .

• ٨٢ / ﺔـ ﻷـ ﻪـ ﻢـ (٤)

(٣) جمهورة خطب العرب ١٩٢٤

المدينة : « .. فنحن نعلم يا معاشر قربش أنكم لا تنجيتوانا أبداً وأنتم تذكرون يوم الحرة ، ونحن لا ننجيكم أبداً ونحن نذكر قتل عثمان »^(١) . ، وخطاب عمرو الأشدق أهل المدينة يمثل هذه الملحمة العنيفة فقال في خطبة له : « أغر لكم أنكم قاتلتم عثمان ، فوافقتم تأثراً منا رفيقاً ، قد في غضبكم ، وبقي حلمكم »^(٢) . ، فقد كان مقتل عثمان ، من بعض الوجوه ، ورقة راجحة في يد بني أمية ، يلوحون بها في اللحظة المناسبة .

١٠ - مزج السياسة بالوعظ

ما ذكرناه قبل من اجتماع الصفتين الدينوية والمدنية في الخليفة جمله يرى من واجبه إرجاء المواعظة لرعايته ، سواء في خطب وعظية مستقلة أو ضمن الخطاب السياسي . كذلك كان يصنع ولادة الأمويين في بعض خطبهم السياسية . والوعظ في هذه الخطب يدور حول التزهيد في الدنيا الغرور ، والترغيب فيها عند الله من الثواب العظيم ، والنعيم المقيم ، والدعوة إلى عصيان أهواء النفس ونوازع الشيطان ونحو ذلك من الأدكار الوعظية . مثال هذا ما نجده في صدر خطبة زياد البراء من تأنيبه أهل البصرة لسلوكهم سبل الغواية وتنكيمهم طرق الرشاد : « ... كأنكم لم تقرؤوا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أعدد الله من الثواب الكريم لا هل طاعتكم والعذاب الأليم لا هل معصيتها ، في الزمن السرمدي الذي لا يزول . أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا ، وسدّت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية على الباقيه .. لخ .. »



ذلك هي أبرز الأدكار التي تشتمل عليها خطب الحزب الاموي السياسي ، ومن بين أنها تنسجم مع النظام السياسي الفردي الذي كان سائداً في عصر بي

(١) مرسوج الذهب ١٢٩/٢ .

(٢) العقد الفريد ١٣٢/٤ . التأثر : الآخذ بآثار .

أمية ، فهي بمحملها تأيد سلطان مطلق لا يفسح مجالاً للنقد الحر ، ولا يرحب بحرية الفكر ، ولا يعطي المعارضين من الحقوق مثل ما يحظون به عادة في ظل النظم الديموقراطية . والمحور الذي تدور حوله جل هذه الخطب هو وجوب الطاعة المطلقة لمن يدهم الامر ، والوبل كل الوبل لمن تحدهه نفسه بانوراة وإذكاء نار الفتنة .

أما من حيث نفسية الخطيب فما نقرأ خطب بني أمية وأنصارهم فيستشف لنا ما كانت تنطوي عليه نفوس قائلتها ، بصورة عامة ، من تعال وترفع واستكبار ، ومن نقاء بقوتهم وكفاءاتهم وإيمان بحقهم في تولي أمور المسلمين وحكمهم ، ويتجلّى لنا ما كانوا يشعرون به من نقاء ومسخط على من كافوا ينزا عونهم السلطان ويوقفون نار الفتنة ، وكان حقهم في الحكم صريح واضح لا يفتقر في إثباته إلى برهان ، فهم بذلك يملكون العجب والدهشة من ينزا عونهم الامر . وإن خطبهم لتنقضع بالزهو والتحدي والاستخفاف المشرف بالمخاطبين ، ومرد ذلك إلى طابع الحكم الفردي المطلق الذي كان يعلي عليهم أن ينظروا إلى الرعية نظرتهم إلى مسافة تساق بالعصا ، في حين أن النظام القائم على حرية الفكر والقول يرفع كثيراً من شأن المخاطبين ويحمل الخطيب على التزلف إليهم والتاس مواطن الرضا من نفوسهم ، نجد أن خطباء بني أمية كانوا لا يختلفون بالتزلف إلا لأنصارهم ، أما معارضوهم فما كانوا يحرضون كثيراً على استهانتهم إليهم بمحض إرادتهم وإنما حسبهم أن يحملوهم على الطاعة والخضوع ولا يغيبهم بعد أحجمهم الناس أم كرهوهم . بل كثيراً ما وجدناهم يصارحون المخاطبين بما يضمرون لهم من كراهية وبغض ، صنيع الحاجاج في مخاطبته أهل العراق ، وعتبة في مخاطبته أهل مصر ، ومعاوية في مخاطبته أهل المدينة .

ولا ينبغي أن نغفل عمّا نطوي عليه بعض خطب المؤيدن لبني أمية من نفاق ورياء ، شأن أكثر الخطب التي قيلت بقصد جعل ولادة العهد ليزيد مثلاً ، فما

دفع جل هؤلاء المؤيدين للسير في ركب بنى أمية إلا المال والرغبة في الجاه والمن، ولذلك خلت خطبهم من صدق الشعور وإخلاص العاطفة.

★ ★

(ب) خطب الخوارج

١ - لم يكن بدّ خطباء الخوارج، في سبيل تأييد دعوتهم، من بيان الأسس التي يقوم عليها مذهبهم، والمبادئ التي يدعون إليها، والدفاع عنها والاحتجاج لها، ولا سيما أن خطباء الخوارج هم في الأغلب من رؤساء فرقهم. وكانوا كثيراً ما يهدون لشرح مبادئ دعوتهم بنبذة تاريخية يصوروون فيها حالة المسلمين منذ عمـد الرسول حتى زمن بنى أمية، ثم يجملون من فساد الأمور في عهد بنى أمية مسوعاً لخروجهم وثوراتهم، ثم يأخذون في بيان مبادئ دعوتهم والدفاع عنها. وقد اتبع خطيب الخوارج الأول، أبو حمزة، هذه الخطوة في خطبته المطولة بالمدينة. ونجد توضيحاً لمذهب الخوارج كذلك في خطبة عبد الله بن بحبي طاب الحق التي قالها إثر استيلائه على بلاد اليمن، وقد جاء فيها: «إنا نسـدعوكـم إلى كتاب الله، وسـنة نبـيه، وإجـابة دعا لـيها. الإسلام دينـا، وـمحمد نـبـيه، والـكـعبـة قبلـتـنا، والـقـرـآن إـمامـنـا... من زـنـي فـهـو كـافـر، وـمـن سـرـقـ فـهـو كـافـر، وـمـن شـرـبـ الخـمـرـ فـهـو كـافـر، وـمـن شـكـ في أـنـه كـافـرـ فـهـو كـافـرـ، لـمـنـ». ^(١)

٢ - كان حزب الخوارج أقوى الأحزاب المارضة للحكم الأموي، وأشدـها اجتراءاً على مزاـءـته وـمـنـاهـضـتهـ، وـكانـ هـذـاـ الحـزـبـ يـقـيمـ دـعـائـمـ مـذـهـبـهـ عـلـىـ أـسـسـ عـقـدـيـةـ وـصـيـامـيـةـ، وـكانـ لـاـ بـدـ لـخـطـبـاءـ الخـوارـجـ مـنـ تـسـديـدـ حـرـابـ النـقـدـ النـافـذـةـ إـلـىـ خـصـوـمـهـمـ وـتـعـدـادـ مـآـخـذـهـمـ وـمـطـاعـنـهـمـ عـلـيـهـمـ، مـنـ تـعـطـيلـ لـحـدـودـ اللهـ، وـجـوـرـ فـيـ الـأـحـكـامـ وـاسـتـثـارـ بـالـفـيـءـ، وـنـحـوـ ذـلـكـ. وـهـمـ بـهـذـاـ يـسـوـغـونـ ثـورـتـهـمـ عـلـىـ الـحـكـمـ الـأـمـوـيـ، وـيـشـرـوـنـ حـفـيـظـةـ ذـوـيـ الـمـقـيـدـةـ الـخـلـصـةـ عـلـىـ مـنـ يـدـهـمـ السـلـطـانـ. وـهـاـ هـوـ ذـاـ أـبـوـ حـمـزةـ الـخـارـجيـ بـعـدـ

ما أخذه أهل المدينة أنفسهم على بني أمية فيقول : « يا أهلَ المدينه ، سألكم عن ولايتكم هؤلاء فقلتم : والله ما فيهم الذي يعدل ، أخذـوا المال من غير حليـه فوضعوه في غير حقـه ، وجارـوا في الحكم فـكروا بغير ما نـزل الله ، واستأثـروا بـغيـرنا فـلـوه دـولـة » بين الأـغـنـيـاء مـنـهـم ، وجعلـوا مـقـاسـهـا وـحـقـوقـنـا في مـهـورـ النـسـاء وـفـرـوجـ الـإـمـاء^(١) .. . ويـقـولـ فيـ خطـبـةـ أـخـرىـ لـهـ : « وـأـمـابـنـوـ بـنـيـهـ ، فـقـرـقةـ ضـلالـةـ ، بـطـشـهـمـ بـطـاشـ حـجـرـيـهـ ، يـأـخـذـونـ بـالـظـلـمـةـ ، وـبـقـضـيـونـ بـالـهـوـيـ ، وـيـقـتـلـونـ عـلـىـ الغـضـبـ ، وـيـحـكـمـونـ بـالـشـفـاعـةـ ، وـيـأـخـذـونـ الـفـرـيـضـةـ مـنـ غـيرـ مـوـضـعـهـ ، وـيـضـعـونـهـ فيـ غـيرـ أـهـلـهـا^(٢) .. .

٣ - ولم يكن خطباء الخوارج يكتفون بذكر مطاعنـهـمـ علىـ خـصـوـصـهـمـ وـمـاـخـذـهـمـ علىـ سـيـاسـتـهـمـ ، بلـ كانواـ يـجاـزوـنـ هـذـاـ إـلـىـ شـتـمـ بـنـيـهـ وـمـنـ يـلـوذـونـ بـهـمـ وـالـحـاطـبـينـ فـيـ حـبـلـهـمـ شـتـمـاـ صـرـيـحاـ يـشـيـ بـطـبـيـعـتـهـمـ الـبـدـوـيـهـ الصـرـيـحـهـ ، وـيـبـيـهـ اـشـدـهـ سـخـطـهـمـ عـلـىـ حـكـمـ بـنـيـهـ وـأـعـوـانـهـمـ . وـفـيـ خطـبـةـ أـبـيـ حـمـزـةـ السـابـقـةـ نـسـعـهـ يـقـولـ : « .. شـمـ وـلـىـ بـعـدـهـ أـبـهـ يـزـيدـ ، يـزـيدـ الـخـمـورـ ، وـيـزـيدـ الصـقـورـ ، وـيـزـيدـ الـفـوـدـ ، وـيـزـيدـ الصـمـودـ ، وـيـزـيدـ الـقـرـودـ ، الـفـاسـقـ فـيـ بـطـنـهـ ، .. لـهـنـهـ اللـهـ » ..

وـكـاـ كـانـ بـنـيـهـ وـعـمـالـهـمـ يـشـتـمـونـ أـحـيـانـاـ مـنـ يـسـتـهـمـونـ إـلـىـ خـطـبـهـمـ بـدـلاـ مـنـ أـنـ يـتـرـافـوـاـ إـلـيـهـمـ ، كـذـلـكـ نـجـدـ الـخـوارـجـ الـمـطـبـوـعـينـ عـلـىـ الـصـراـحةـ وـالـجـرـأـهـ يـسـلـكـونـ هـذـاـ مـسـلـكـ فـيـ مـخـاطـبـةـ مـنـ يـأـبـونـ الـانـضـامـ إـلـىـ مـذـهـبـهـمـ ، أـوـ يـؤـيـدـونـ بـنـيـهـ ، صـنـيـعـ أـبـيـ حـمـزـةـ فـيـ خـطـبـةـ السـابـقـةـ حـينـ وـقـفـ يـقـرـعـ أـهـلـ المـدـيـنـةـ وـيـشـتـمـهـمـ لـقـتـالـهـمـ الـخـوارـجـ وـأـبـائـهـمـ الـانـضـامـ إـلـيـهـمـ فـيـ حـرـبـ بـنـيـهـ : « اـسـتـعـيـدـتـكـمـ الـدـنـيـاـ فـأـذـلـتـكـمـ ، وـالـأـمـانـيـ فـأـخـلـتـكـمـ . فـتـحـ اللـهـ لـكـمـ بـابـ الدـيـنـ فـسـدـدـتـمـوـهـ ، وـأـغـلـقـ عـنـكـمـ بـابـ الدـنـيـاـ فـفـتـحـتـمـوـهـ .

(١) العقد الفريد ٤/٤٦.

(٢) البيان والتبيين ٢/١٢٤ والأغاني ٢٠/١٠٦ . والجاحظ يذكر أن أبا حمزة قال هذه الخطبة بحكة ، وتذكر مصادر أخرى أنه قالها بالمدينة . ويلاحظ اضطراب في رواية خطب أبي حمزة في المصادر المختلفة . فان خطبته الطويلة بالمدينة مثلا تجملها بعض الروايات خطباً متعددة .

سراًع إلى الفتنة ، بطاء عن السنة ، عمى عن البرهان ، صم عن العرفان ، عبيد الطامع ، خلفاء الجزع . .

٤ - كان خطباء الخوارج يسلكون في خطبهم أيضاً طريقة الترهيب والترغيب التي وجدناها في خطب الحزب الأموي ، ولكنهم ما كانوا يستطيعون تهديد مخالفتهم بالقتل أو السجن ، صنيع خطباء بنى أمية ، فكانوا يلحوذون إلى تهديدهم بما سيلقونه من عذاب الله ونkalه لتنكيمهم سبيل المحتدين ، من ذلك قول أبي حمزة في خطبة قالها إثر وقعة قديد : « وَأَنْتُمْ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ إِنْ تَنْصُرُوا مَرْوَانَ وَآلَ مَرْوَانَ يَسْتَحْكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عَنْدِهِ » ، أو بآيدينا ، ويشفي صدورَ قومٍ مؤمنين^(١) . . وإذا سلكوا سبيل الترغيب لم يلحوذوا إلى إغراء الناس بالمعطيات والهبات ، شأن بنى أمية ، وإنما أغروهم بما سيلقونه عند الله من ثواب عظيم ونعم سرمد ، ويعدوهم ، إن أظهرواهم الله على أعدائهم ، بالعمل بكتاب الله ، وسنة الرسول ، والعدل في الأحكام ، وقسم الأموال بالسوية . وفي الخطبة السابقة لأبي حمزة نجد مثالاً لهذا الترغيب : « ندعوا إلى كتاب الله ، وسنة نبيه ، والقسم بالسوية ، والعدل في الرعية ، ووضع الأختام في مواضعها التي أمر الله بها » .

٥ - وكثيراً ما نجد خطباء الخوارج يحاولون استهلاك الناس إلى مذهبهم وإثارة المطاف على جماعتهم من طريق آخر غير طريق الجدل والإقناع ، هو طريق تصوير حياة الخوارج وما يقاومونه في سبيل الدفاع عن عقيدتهم . فهو لاء الشرارة ينفقون حياتهم في العبادة والصلة إذا أمسوا ، وفي مجاهدة أعدائهم وقتال المخلين إذا أصبحوا . فلا غرو أن يبدوا أذلاء عبادة ، مقرحي الأعين ، وهم مع ذلك يجدون لذة ما بعدها لذة في حياتهم هذه الشاقة المضنية ، لما يتوقعونه بعد هذا العناء من ثواب الله ونعمته . وأبو حمزة خير من صور حياة الخوارج في خطبه ، وإليك قوله من خطبة له بمكة . « نعم الشباب مكتملين ، عميمه عن الشر أعينهم ، بطيئة عن الباطل أرجلهم ، قد نظر الله إليهم في آناء

(١) الأغاني . ١٠٣/٢ . أصحنه : أهلكه واستأصله .

الليل ، منئية أصلابُهم بِعَذَافِي القرآن ، إذا سرَّ أحدُمْ بَايَةً فيها ذِكْرُ الجنة بِكَى شوقاً
إليها ، وإذا مرَّ بَايَةً فيها ذِكْرُ النارَ شهِيق شهقةَ كأنَ زفيرَ جهنم في أذنيه ، قد وصلوا
كَلَالَ لِيلِهم بِكَلَالِ نهارِهم ، أَنْضَاءُ عبادةَ ، قد أَكَلتِ الأرضِ جماهِيم وأَيدِيهِم ورُكْبَهُم ،
مَصْفَرَةُ الْوَانِهم ، فاحلةً أَجْسَامَهُمْ مِنْ كثرةِ الصِّيَامِ وَطُولِ القيامِ^(١) .

وليس في هذا الوصف مبالغة أو مغایرة الواقع فإن حياة الخوارج كانت حقاً كما وصفها
أبو حمزة . وقد سأله زيد مولى عروة بن أدية بعد أن قتله أن يصف له حياة مولاه فلخصها
له بقوله : « ما أَتَيْتَهُ بِطَعَامٍ بِنَهَارٍ قَطُّ ، وَلَا فَرَشَتْ لَهُ فِرَاشًا بِلَيْلٍ قَطُّ^(٢) . »

٦ - ومن الأفكار التي تدور عليها خطب الخوارج إظهارهم الاستخفاف بأعدائهم
والاستهانة بما يعذونه لهم من جيوش وكتائب . وما عساه يخيفهم من أمرهم وهم إنما
خرجوا ينشدون الموت طمماً فيها وراءه ، وإن قوماً يتوجهون لقاء المنيّة ويستمدبون كأس
الردي ويرون غاية أمانيتهم الاتصال إلى دار الخلد ، إن قوماً هدا شأنهم للحقيقة أن يستخفوا
بأعدائهم منها حشدوا لهم من جند وأعدوا لهم من قوة . وهذا هو سر استبسال الخوارج
في قتالهم عدوهم وتقلب العدد القليل منهم على الكتائب الكثيرة من عدوهم ، وكان منهم
من طعن فأنقذه الرمح فجعل يسعى إلى قاتله وهو يقول : « وَعَجَلَتْ إِلَيْكَ رَبُّ
لِتْرَضِي^(٣) . » فلن الطبيعي أن نجد خطباء الخوارج يتناولون هذه الفكرة ويلحوون
عليها ، ففي خطبة أبي حمزة السابقة نجده يقول : « إِذَا رَأَوْا سَهَامَ الْمَدُودِ فِيْقَتَ ،
وَرِمَاهُهُ قَدْ أَشْرَعَتْ ، وَسَيِّوفَهُ قَدْ اتَّهَضَتْ ، وَرِبْرَقَتْ الْكَتَبِيَّةُ وَرَعَدَتْ بِصَوَاعِقِ الْمَوْتِ ،
امْتَهَنُوا بِوَعْدِ الْكَتَبِيَّةِ لَوْعَدَ اللَّهُ . »

٧ - والزهد في الدنيا ومتاعها من الأفكار الشائعة في خطب الخوارج ، وهذه الفكرة
وثيقة الصلة بما سبق أن ذكرناه من استهانة الخوارج بأعدائهم إذ الاستخفاف بالموت
والترحيب بلقاءه فاجم عن الزهد في الحياة الدنيا واحتقار ذاتها والانصراف عن متاعها

(١) العقد الفريد ٤/٤ . ١٤٤ .

(٢) الكامل للمرد ٢/١١٦ .

(٣) الكامل للمرد ٢/١٣٩ .

الباطل . وهم لذلک يتوجّلون المقلة من دار الفناء إلى دار البقاء ، وما يتتوخى الشراة إلا ما أعلنه المستورد بن عُلْفَة في قوله : « وما شرف الدنيا زيد ، وما إلى البقاء فيها من سبيل ، وما زيد إلا الخلود في دار الخلود^(۱) ». وفي قوله أيضاً من خطبة أخرى : « لاني والله ما خرجمتُ التمس الدنيا ، ولا ذكرها ولا خفرها ، ولا البقاء ، وما أحب أنها لي بمحاذيرها ، وأضعف ما يتفاوض منها بقيمال نعلي ، وما خرجمت إلا التمس الشهادة^(۲) »

٨ - ونلاحظ أخيراً في خطب الخوارج ملاحظة في خطب بعض خطباء الحزب الأموي من مزج السياسة بالوعظ ، وذلك فضلاً عن الخطب الخالصة للوعظ والهدایة . وقد استهل أبو حمزة خطبته التي قالها بالمدينة إثر وقعة قديد بقوله : « أوصيكم بتقوى الله وطاعته ، والعمل بكلتا به » ، وسنة نبیه ﷺ ، وصلة الرَّحْم وتعظيم ما صفت الجبارۃ من حق الله ، وتصغير ما عظمت من الباطل ، إلخ ... وليس ورود الوعظ في خطب الخوارج مستنكر لما نعلم من صدق تدینهم وشدة تقواهم وقوة عقیدتهم .

★ ★ ★

وَمَا تَقْدِمُ بَقْضَعَ لَنَا مَا فِي خُطُوبِ الْخُوَارِجِ مِنَ الصِّرَاطِ وَالْجَرَأَةِ عَلَى الْمُجَاهِرَةِ
بِآرَائِهِمْ وَمُعْتَدَلَاتِهِمْ ، فَهُمْ يَعْلَمُونَ مَبَادِئَهُمْ فِي غَيْرِ مُوَارِبَةٍ ، وَيَجَاهِرُونَ بِنِيْ أُمَّيَّةَ بِالْعُدَاوَةِ
فِي غَيْرِ مَدَاوِرَةٍ وَلَا مَدَاهِنَةٍ ، وَيَعْدِدُونَ مَثَالَهُمْ وَمَطَاعِنَهُمُ الَّتِي دَعَتْهُمْ إِلَى الْخُرُوجِ
عَلَيْهِمْ ، وَيَدْعُونَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى تَأْيِيدِهِمْ وَنَصْرَةِ مُذْهَبِهِمْ ، وَهُمْ لَا يَشْكُونَ فِي أَنْهُمْ وَحْدَهُمْ
عَلَى الْحَقِّ ، وَفِي أَنْ مُخَالَفِيهِمْ عَلَى ضَلَالٍ ، وَهُمْ لِذَلِكَ خَلِيقُونَ بِأَنْ يَظْهِرُوا عَلَى أَعْدَائِهِمْ
وَبِمِلْهُمِ النَّصْرِ الَّذِي وَعَدْهُمْ بِهِ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الْمَنْزَلِ .

وخطب الخوارج تعكس لنا تأثيرهم العميق بالقرآن الكريم وبأحكام الدين الإسلامي ، وقوه عقیدتهم وشدة تحكمهم بمبادئ مذهبهم ، وصدق شعورهم الديني

(١) قاریخ الطبری ٤/١٣٣

(٢) الطيري ٤/١٤٧

وتعلة لهم بالمثل المليا التي نادى بها الإسلام كأنا صراحتهم وشجاعتهم وجرائمهم على مجاهرة أعدائهم الأقواء بذكرهم لهم ومحنة لهم وامتناع قيافتهم بهم ، وهذه الخطبة تصور لنا خير تصوير نفسية هذه الجماعة المتطرفة في عقيدتها ، الحريصة على تطبيق أحكام الدين تطبيقاً مثاليّاً ، الساخطة على عداتها الماغرين المستائزين بالفاني والمعطلين لحدود الله ، الناقمة على جميع مخالفتها الذين يأبون مشاركتها في قتال من يدعونهم المخلين الفاسقين . ونحن نستشف بيسر ما يمكن وراء هذه الخطبة من حزن صادق مصدره صيورة أمور المسلمين إلى هذه الحال السيئة المؤلمة وعدم استطاعة الخوارج إصلاح الأمر ، وعدم استجابة القوم لدعوتهم وبادئهم ، كما نستشف ما فيها من نزعية صوفية زاهدة تنظر إلى الدنيا وما فيها من لذات على أنها هرث زائل ، ومتاجع باطل خلائق بالاحتقار والازدراء ، وترنو إلى حياة أخلاق ، ولذة أبقى ، وعلم أمثل .



جـ - خطب الشيعة

١ - غير خاف أن الحجة القوية التي كان الحزب الشيعي يقيم دعوته عليها إنما هي الالتساب إلى البيت النبوي الهاشمي ، فالقرابة من الرسول عليه السلام هي حجر الزاوية في بناء الدعوة الملوية . وكان من الطبيعي أن يلح خطباء الشيعة على هذه الفكرة في جل خطبهم ، ومن الطبيعي أيضاً أن نجد زعماء الشيعة من آل البيت يفخرُون دائمًا بانتسابهم إلى الدولة الهاشمية وبقربائهم الرسول . وفي أول خطبة للحسن بن علي قالها بعد مقتل أبيه نسممه يقول مفتخرًا : « أنا الناس ، من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمد رسول الله ﷺ . أنا ابن البشير ، أنا ابن النذير ، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه والسراج المنير ، أنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وتطهّرهم تطهيرًا »^(١) . وحين أوشك القتال أن يقع بين الحسين وأنصاره القلائل ، وبين الجيش الذي ألغى إيمانه ابن

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤/١١ .

زياد خطب فقال في مستهل خطبته : « أما بعد ، فانسُبوني فانظروا من أنا ، ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبواها ، فانظروا هل يحمل لكم قتلي واتهاك حرمتني . ألاست ابنَ نبيكم ﷺ وابن وصيّه وابن عمّه ، وأول المؤمنين بالله والمصدق لرسوله بما جاء به من عند الله . أو ليس حمزة صيد الشهداء ععم أبي ؟ أو ليس جعفر الشهيد الطيار ذو الجنائن عمّي ؟ » الخ (١) .

٢ - وهذه النسبة إلى آل البيت ، وما كان أعلى من المآثر والمناقب في نصرة رسول الله ودعوته ، هذه الأمور كلها كان خطباء الشيعة يتذمرونها ذريعة للمطالبة بصيرورة الأمر لهم ، فهم أحق المسلمين بقولي الخلافة ، وبنو أمية باغون مقتضبون ، قد انزعوا منهم تراثهم وسلبواهم حقهم الصراح . وحين قدم الحسين العراق واقبه جيش ابن زياد حاول إقناع القوم بحقه في الخلافة ، ليتخلوا عن نصرة بنى أمية ، فمضى يخاطبهم بقوله : « أما بعد ، أيها الناس ، فإنكم إن تتقوا وتعرفوا الحق لأهله ، يكُنْ أرضي الله ، ونحن - أهله - آل البيت - أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدعين ما ليس لهم ، والسائلين فيكم بالجحود والمدعوان (٢) . وهذه الفكرة كثيرة التردد في خطب الشيعة ، إلا أنها نجدها في المذاكرات التي جرت بين الشيعة والأمويين أكثر شيوعاً .

٣ - وإذا كان حق الشيعة في تولي الأمر صريحاً واضحاً ، فقد وجب على المسلمين جميعاً نصرتهم ، والدفاع عن حقوقهم ، والمطالبة بتراثهم ، وهذا ما كان يدعوا إليه خطباء الشيعة ويلحون عليه ، كقول زهير بن القين يوم كان يقاتل في صف الحسين مخاطباً أهل الكوفة : « إن الله قد ابتلانا وإياكم بذرية ذيئه محمد ﷺ لينظر ما نحن وأنتم عاملون ، إنا ندعوكم إلى نصرهم ، وخدلان الطاغية عبيد الله ابن زياد (٣) . » ، وكقول عبيد الله بن عبد الله المسوسي : « .. فهل خلق ربكم في الأولين

(١) تاريخ الطبرى ٤/٣٢٢ .

(٢) تاريخ الطبرى ٤/٣٠٣ .

(٣) المصدر السابق ٤/٤٣٢ .

وآخرين أعظم حفّا على هذه الأمة من فيها ؟ وهل ذريّة أحد من النّبيين والمرسلين أو غيرهم أعظم حفّا على هذه الأمة من ذريّة رسولها . لا والله ، ما كان ولا يكون ^(١) . . .

٤ - والدعوة إلى نصرة آل البيت ربما اقترفت بتقريع خاذلهم ولوم الذين تخلوا عن نصرتهم وأسلموه إلى جلاديهم ، وإنذارهم بعذاب من الله شديد . ولما قتل الحسين وقفت أخته أم كلثوم تقرع أهل الكوفة أعنف تقريع فتقول : « يا أهل الكوفة يا أهل الخَتْر والخَذْل ، لا فلا رقيّات العَبْرَة ، ولا هدأت الرَّنَة . إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوّة انكاثاً . تتحذون أيها منكم دخلاً يدنكم ، ألا وهم فيكم إلا الصَّلَف والشَّنْف ، ومُلْئِق الإِمَاء ، وغَمْزُ الْأَعْدَاء إِلَيْهِ ^(٢) . . . وما أجمع التوابون على الأخذ بثأر الحسين أخذ خطباؤهم ينحوون باللائمة على أنفسهم لخذلانهم حسينا ، ووقف زعيمهم سليمان بن صرد يقول : « إِنَّا كُنَّا نَحْنُ أَعْنَاقُنَا إِلَى قُدُوم آل نَبِيِّنَا ، وَنَسْعَنَّهُمُ الْنَّصْر ، وَنَخْتَهُمُ عَلَى الْقَدْوَم . فَلَمَّا قَدِمُوا وَنَبِيَّنَا وَجَزَّنَا ، وَأَذْهَنَّا وَتَرَبَّصَنَا ، وَاتَّظَرَنَا مَا يَكُون ، حَتَّى قُتِلَ فِينَا ، وَلَدَنَبِيَّنَا ، وَلَدَنَبِيَّنَا وَسَلَّطَنَهُ ^(٣) . »

٥ - وقد شن خطباء الحزب الشيعي حملة عنيفة على بي أمية خاصة وعلى مسارات الأحزاب المناوئة لهم عامة ، وعذوا بتتبع مثالب بي أمية ، وما يؤخذ عليهم من مطاعن ، وربما تناولوهم بالشتم والقذف . وكانوا يشاركون الخوارج وغيرهم من المعارضين في اتهام بي أمية بالجور والاستئثار بالفيء وتعطيل الحدود ونحو ذلك من المأخذ . وهذا هو ذات الحسين بعدد مساوٍ بي أمية فيقول : « أَلَا وَإِنْ هُؤُلَاءْ قَدْ لَزَمُوا طاعة الشيطان ، وتركتوا طاعة الرحمن ، وأظهروا الفساد ، وعطّلوا الحدود ، واستأنزوا بالفيء ، وأحلّوا حرام الله ، وحرموا حلاله ^(٤) . » . وقد اجترأ أحد خطباء آل

(١) تاریخ الطبری ٤/٤٣٢ .

(٢) جمورة ٢/١٢٤ . الخَتْر : الغدر . رفأْت العبرة : حفت . الشَّنْف : النظر بمؤخرة العين . الملق : الین ، ولا يبعد أن يكون الملق ، بفتح اللام .

(٣) الطبری ٤/٤٢٨ . والإدهان : الخداع والمخانقة .

(٤) الطبری ٤/٤٣٠ .

صوحان ، فيما يروون ، وهم من أنصار الحزب الشيعي ، على أن يقطع على عبد الملك ابن مروان خطبته ليقول له : « أنتدي بسيرة الظالمة الفاسقة ، الجَوَّةُ الخوَّةُ ، الذين اتخذوا مال الله دُولَةً ، وعيدهم خوَّلاً »^(١) .

٦ - ولا يقتصر خطباء الشيعة على تعداد مطاعن بنى أمية ومساواتهم ، بل إنهم كانوا يدعون القوم إلى الثورة على حكمهم ويحرضونهم على مواجهتهم انتصاراً للحق ، وابتغاء ثواب الله ورضاته . وهذا هو ذا سليمان بن صرداً رأس التوابين يبحث جماعته على الخروج ومحادحة بنى أمية فيقول : « ألا انقضوا فقد سخط ربكم ، ولا ترجعوا إلى الحالين والأبناء حتى يرضى الله ، والله ما أظنه راضياً دون أن تُناجزوا من قتله - أي الحسين - أو تَبَيِّروا »^(٢) .

٧ - وفي سبيل تحريض القوم على الثورة وحثهم على الخروج واستهالة الأنصار إلى حزب الشيعة من طريق الإثارة الماطفية ، كان خطباء الشيعة يكترون من التعحدث عن محن آل البيت ومصارع رجال الشيعة وزعمائهم ويفتنون في تصوير ما ألم بأنصار الحزب الشيعي من اضطهاد وتفكيل . والجماعات تشعر دائمًا بالعطف على الفئات المضطهدة المظلومة وبالميل إليها ، ولا سيما إذا اعتقدت أنها على حق وأن مضمونها على ضلال . ولذلك كان الحديث عن محن آل البيت من أنجع السبل في استهالة الناس إلى الحزب الشيعي . وقد اتفق رأي المؤرخين على أن مقتل الحسين كان من أقوى العوامل في تكاثر أنصار الحزب الشيعي وإثارة النقمـة الشاملة على بنى أمية ، ومن هنا نجد خطباء الشيعة يحرضون على التذكير دوماً بصرع الحسين ، مع المعاية بتفصيل مقتله تفصيلاً مؤثراً . صنيع عبد الله بن عبد الله الماري في خطبته التي جاء فيها : « .. ألم تروا وَيَلْفِكُمْ مَا اجْتَرُمْ إِلَى ابْنِ بَنْتِ نَبِيِّكُمْ . أَمَا رأَيْتُمْ إِلَى انتِهَاكِ الْقَوْمَ حِرْمَتَهُ ، وَاسْتِضْهَافُهُمْ وَحَدَّتَهُ ، وَزَرْمِلُهُمْ إِيَاهُ بِالدَّمِ ، وَتَحْرَارُهُمْ عَلَى الْأَرْضِ . لَمْ يَرَاقُوهُ فِيهِ رَبِّهِمْ ، وَلَا قَرَابَتَهُ مِنَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ » . اتخاذوه للنبيل غرضاً ، وغادروه للضياع جزراً^(٣) .

(١) نهاية الأرب ٢٤٩/٧ .

(٢) تاريخ الطبرى ٤/٤٢٨ . تَبَيِّرُوا : تَهْلِكُوا .

(٣) تاريخ الطبرى ٤/٤٣٢ .

٨ — وهذا التحرير يضُن على الثورة مقتول بطلب الثأر لقتل آل البيت . ومنذ مقتل الحسين كان طلب الثأر له شعاراً ينادي به خطباء الشيعة ودعائهم . ثم توالت مصارع الطالبيين وكثير الطلب بدمائهم في خطب أشياعهم ، حتى إن الدعوة العباسية حين قامت كانت تدعى إلى الثأر للحسين وزبد وابنه يحيى . وكان التوابون أشد الداعين إلى الطلب بدم الحسين ، وقد وجدنا مسلمان بن صرد وعبد الله المري يحرضان جماعتها على الثأر له في جميع خطبها ، وفي خطبة لأحد زعماء التوابين ، هو المسيب بن نجيبة ، نجد أيضاً هذه الدعوة فهو يقول ، بعد أن لام جماعته ولام نفسه لخذلانهم حسينا : « .. فما عذرنا إلى ربنا ، وعند لقاء نبينا عليه السلام ، وقد قتل فينا ولدُه وحبيبه وذراته ونسله . لا والله لا عذر لنا دون أن تقتلوا قاتليه والمواليين عليه ، أو تقتلوا في طلب ذلك »^(١) . وحين وفدت جماعة من شيعة أهل الكوفة على محمد بن الحنفية ، ليتحققوا من أمر المختار ، جاء في خطبته التي وجهها إليهم : « .. وأما ما ذكرتم من دعاء من دعائكم إلى الطلب بدمائنا ، فوالله لو ددت أن الله انتصر لنا من عدوتنا من شاء من خلقه »^(٢) .

ومن هذا العرض يتضح لنا أن نقطة الارتكاز في خطب الشيعة هي ادعاؤهم أن الخلافة حقهم وحدهم دون سائر الأحزاب المطالبة بها ، وذلك لأنهم إلى البيت النبوي ، وما يدعونه من أن الرسول أوصى بالأمر لعلي بعده ، ثم حديثهم عن حق آل البيت وتحريضهم على الطلب بدماء من قتل منهم .

ومن خلال الخطاب الذي تركها لنا الشيعة نستجلِّي مدى نقمتهم وسخطهم على بنى أمية الذين سلبوهم تراثهم وغضبوهم حقوقهم وسفكوا دماء آل البيت ، ونكلاوا بزعماء الشيعة وبطشوا بوجوههم ورؤسائهم . فمن الطبيعي إذن أن تخلي صدورهم سخطاً ونقاً عليهم وعلى أعوازهم ، وأن يتند سخطهم هذا فيطوي كل من تخلى عن نصرتهم وخذلهم وأبى أن يكون يداً معهم على أعدائهم . ومع ذلك السخط وهذه النقا يتجلى الأسى والحزن والالم ، ومرد هذا كله إلى شعورهم بالعجز عن استرداد ما يعتقدون أنه حق لهم قد انزع منهم كرهـا ، وإلى شعورهم بما

(١) الطبرى ٤/٤٦٣ .

(٢) المصدر السابق ٤/٤٩٢ .

يشبه اليأس من رجوع هذا الحق إليهم ، ومرده أيضاً إلى كثرة المحن التي حلّت بهم على يد أعدائهم . وقد انتهت بهم هذه المحن المتصلة إلى ضرب من الإذعان لقضاء الله والتسليم لمشيئة ، على أنه إذعان يعازجه الاعتقاد بأن الله سيفتقهم لهم من أعدائهم المستأذنين بالأمر دونهم ، وأن هذا الأمر سيؤول إليهم أخيراً وسيعود الحق إلى نصا به .

(د) خطب سائر المناهضين لبني أمية

١ - إن المحور الذي تدور حوله خطب سائر التأذن في على بني أمية والمعارضين لحكمهم هو أن بني أمية ليسوا أهلاً لتولي شؤون المسلمين ، وذلك للماخذ الكثيرة التي تؤخذ عليهم ، وهي التي تحدث عنها خطباء الخوارج والشيعة أيضاً ، من جور في الأحكام ، وتطويل حدود الله ، واستئثار بالفيء وخروج على كتاب الله وسنة نبيه ، ونحو ذلك من المطاعن التي يجدون فيها مسوغاً لخلعهم طاعة بني مردان والثورة عليهم . ومن نقطة الارتكاز هذه ينتقلون إلى تأليب القوم على الأمويين وأعوانهم ويدعون إلى خلعهم ، ويطلبون إلى ذوي الجمة والغيرة على الدين أن يدعوه بتأييدهم وينصروهم ليقوضوا صرح البغي والمحور والطغيان . هذا ما نجده متلا في خطبة عامر بن وائلة الكنانى حين وقف يدعو جيش أهل العراق لطلع الحجاج والانضمام إلى ابن الأشعث : « إن الحجاج والله ما يبالي أن يخاطر بكم ، فيقتحمكم بلاداً كثيرة اللهوب والاصوب ، فإن ظفرتم ففنتم أكل البلاد وحاز المال ، وكان ذلك زيادة في سلطانه . وإن ظفر عدوكم كنتم أنتم الأعداء البعضاء الذين لا يبالي عنتم ، ولا يبقى عليهم . أخلعوا عدو الله الحجاج ، وبايعوا عبد الرحمن ، فإنيأشهدكم أنني أول خالع ^(١) . » ثم قام عبد المؤمن بن شبت بن رباعي خوف القوم من التجمير ^(٢) ، ولم يكن شيء أشد على نفس الجند منه : « عباد

(١) تاريخ الطبرى ١٤٦/٥ . اللهوب ج لهب : المهاوة بين الجبال . المصوب ج لصب : الشعب في الجبل .

(٢) تجمير الجيش : حبسه في أرض العدو وعدم إفراطه .

الله ، إنكم إن أطعتم الحجاج جعل هذه البلاد بلادكم مابقين ، وحمركم تجمر
فرعون الجنود ، فإنه بلغني أنه أول من حمر البعث ، ولن تعابوا الأئمة فيما
أرى أو يوت أكثركم . بايعوا أميركم ، وانصرفوا إلى عدوكم ، فانقوه عن
بلادكم ^(١) .

وكان زعماء المارضة الداعون إلى الثورة على الحكم الاموي يعدون الناس بالعمل.
بكتاب الله وسنة رسوله وبإرادة أسباب الشكوى التي كانت تدعى القوم إلى الثورة
على بني أمية . وقد بايع ابن الأشعث أنصاره على « كتاب الله وسنة نبيه وخلع
آئية الضلالة وجihad الملوك » ، وكان يزيد بن المهلب يدعو أهل البصرة إلى كتاب
الله وسنة نبيه ويبحث على جihad أهل الشام زاعماً أنه أعظم ثواباً من جihad الترك
والدبليم ^(٢) .

٢ - ولم يكن الخطباء يكتفون بإثارة القوم على بني أمية والدعوة إلى خلع
طاعتهم وتعداد مثالهم ، بل كانوا يتجاوزون هذا كله إلى الدم والشتم والقذف ، مع
إظهار الاستخفاف بهم والاستهانة بقوتهم والنيل من أعواهم ، نجد هذا مثلاً في
خطبة يزيد بن المهلب حين تار على يزيد بن عبد الملك : « أيها الناس ، إني أسمع
قول الرعام : قد جاء العباس ، وقد جاء مسلمة ، وقد جاء أهل الشام ، وما
أهل الشام إلا تسعة » أسباب ، منها سبعة معى واثنان على ، وما مسلمة إلا
جرادة صفراء ، وأما العباس فنسطوس بن نسطوس أتاكم في برارة ، وصفالية ،
وجرامقة ، وجراجحة ، واقبات ، وأنباط ، وأخلاق من الناس ، إنما أقبل إليكم
الفلاحون الأرباش كأشلاء الجهنم ^(٣) .

(١) الطبرى ١٤٧/٥ .

(٢) الطبرى ٣٣٥/٥ .

(٣) البيان والنبىين ٢٩٢/١ . كان مسلمة بن عبد الملك يلقب بالجرادة الصفراء للونه . أراد
بنسطوس بن نسطوس الإشارة إلى أمه الرومية النصرانية . الجرامقة : قوم من العجم نزلوا الموصل .
الجراجحة : نبط الشام . أشلاء الجهام : سبوره ، أراد أنهم متقطعون لا قوة فيهم .

— ونجد في هذه الخطب أيضاً ما وجدناه في خطب الخوارج والشيعة من ذمٍّ لمن تخلوا عن نصرة الشارين وتقريع لمن خذلوهم وغدروا بهم . وكانت تهمة الخذلان تقع أكثر ماقع على عاتق أهل العراق . لما قتل مصعب بن الزبير خطب عبد الله أخيه خطبة قال فيها من أهل العراق الذين خذلوه ومنها يقول : . . . أسلمه الطعام ، الصُّلُمُ الأَذَان ، أَهْلُ الْعَرَاق ، وَبَاعُوه بِأَقْلَمَ مِنَ النَّمَنِ الَّذِي كَانُوا يَأْخُذُونَه مِنْهُ (١) . . . وما ثار ابن المطلب وأخذ الحسن البصري بشيطنة القوم عن نصرته خطب مروان بن المطلب خطبة قال فيها من الحسن ولقبه بالشيخ الضال المرائي (٢) . وكذلك حين ثار قبيطة بن مسلم على سليمان بن عبد الملك وخليمه ودعا قبائل خراسان إلى خليمه فلم تجده قال خطبته المشهورة التي ملاها ذمًا وشتىًّا لسليمان ولقبائل العرب بخراسان التي تخللت عن نصرته ، وهكذا طرفاً منها : « لا أعز الله من نصرتكم ، والله لو اجتمعتم على عَزِّ ما كسرتم قسرنا . يا أهل السافلة ، ولا أقول أهل العالية . يا أبا شر الصدقة ، جمعتكم كما تجمع إبل الصدقة من كل أوب . يا عشر بكر بن وائل ، يا أهل النفح والكذب والبخل ، بأي يوم يمكرون تفخرون ، يوم حربكم أم يوم سلمكم ، فوالله لأننا أعزكم . يا أصحاب مسيمة ، يابني ذميم ولا أقول تميم ، إلخ (٣) . . . » ولقاء ذم الخاذلين والشيطين نجد زعماء الزوارت يتآلفون أذارهم وبمقونهم بالثناء والإطراء ، صنيع ابن المطلب حين دعا أهل العراق إلى نصرته وحرضهم على قتال أهل الشام خاطفهم بقوله : « يا أهل العراق ، يا أهل السبق والسباق ، ومكارم الأخلاق . إن أهل الشام في أفواههم لُقْمَة دَسِّيَّة ، قد زَبَّت لها الأشداق ، وقاموا لها على ساق ، وهم غيرُ تاركها لكم بالمراء والجدال ، فالمتسوا لهم جلد التمُور (٤) . . . »

(١) العقد الفريد ٤/٤٢ ، الصلم ج الأصلم : المقاطع الأذن .

(٢) الطبرى ٥/٤١ .

(٣) الطبرى ٥/٢٧٥ . أهل العالية : من أخاس البصرة وهم قريش وكناة والأزد وبجية وختم وقيس عيلان ومزينة . ولما احتل أهل البصرة خراسان جروا أيضًا على طريقة الأخاس .

(٤) البيان والتبيين ١/١٠٤ وزبَّت الأشداق : اجتمع الريق في جوانبها وتحلب . ليس له جملة الخطابة السياسية - ٨ النهر : أظهر له العداوة .

؟ وقد يشتمل بعض هذه الخطاب على شيء من المفاخرة لبني أمية ، ولا سيما إذا كان الخطيب الداعي إلى الثورة عليهم عريقاً في نسبة وحسبه ، شأن ابن الزبير مثلاً ، فقد كان يرى نفسه أحق بالخلافة من بني أمية ، فمن الطبيعي أن نجد في بعض خطبه بليجاً إلى التحدي والمفاخرة ، كقوله في خطبته يوم بلطفه قتل مصعب : « .. وإن قتل لقد قتل أبوه وعمه وأخوه ، وكانوا الخيار الصالحين . وإنما والله ما نفوت حتف آنافنا ، ما نفوت إلا قتلاً قتلاً ، وقصاصاً قصاصاً ، بين قصد الرماح ، وتحت ظلال السيف ، وليس كما تموتُ بنو مروان ، والله ما قُتِلَ منهم رجلٌ في جاهلية ولا إسلام » .

وتتجلى في هذه الخطاب عاطفة السخط والنقمة على بني أمية المستأذرين بالسلطان والنفوذ والمال ، ويغدو هذا السخط فيشمل جميع المذاcirin لبني أمية والمخاطبين في حيلهم ، كما يتناول أوائلك الذين أعرضوا عن نصرة الثائرين وخدلوهم ، وخلوا بهم وبينهم وبين عدوهم يبطش بهم وينتفهم منهم . ومع أن هؤلاء المعارضين للحكم الأموي كانوا يظرون الغيرة على الدين الذي استبيحت محرماته وانتهكت شرائعه ، فلأنهم لم يكونوا في حبيتهم الدين وانتصارهم له مخلصين لإخلاص الخوارج ولا صادي المقيدة مثلهم ، والحق أن هؤلاء لم ينوروا غضباً لله ودينه وإنما طلبوا الدنيا ورغبة في فسق الخليفة وطمعاً فيها وراءها من مغانم وجاه وترف ، ولهذا لم تخجل خطبهم من النفاق والتملق الكاذب والرياء . وفي خطب الخوارج والشيعة من الغنى في العواطف والسمو في المشاعر والصدق والإخلاص ما لا نجد في خطب غيرها من المناهضين لبني أمية والثائرين على سلطانهم .

ويشتراك الخطباء السياسيون في مصر الأموي في أنهم جميعاً كانوا يهدون إلى تحليق المخاطبين وإرضاء غرورهم بامتداحهم وإطراء شجاعتهم وإخلاصهم ومناقبهم ، وليس أنفذاً إلى قلب المرء من التملق والثناء ، ولو كان كاذباً . ثم تجد خطباء الحزب الأموي يتوجهون إلى طريقة الترهيب والترغيب ، فيثيرون في نفوس المخاطبين عواطف

الخوف والرعب من يطش الأمويين وعمالهم ، ويشارون في الوقت عينه عواطف الرغبة والطمع في العطاء والهبات .

أما خطباء المعارضة فكانوا يرمون إلى إثارة المطاف عليهم لما ينالهم من الاضطراب والآدي من يدهم السلطان والقوة ، والجماهير تحيل بطبيعتها إلى المطاف على العناصر المضطهدة ولو لم تكن على حق ، كما كانوا يحاولون إثارة الشعور بالحزن والرثاء لحالهم ، وذلك عن طريق ذكر المحن التي حلّت بهم وتصوّر الخطوب التي ألمت بهم وتعدد مصادر رجاتهم والاجواء إلى ذكر التفاصيل الدامية التي تهزّ المشاعر وتحرك النفوس . كما كان هؤلاء الخطباء يعملون على إثارة الشعور بالنقدة والسخط على بنى أمية بتمدد مساوئهم ومطاعنهم الكثيرة . وكانوا يلجمون أحياها إلى تحريك الشعور الديني في نفوس الجماهير التي كان يسيطرها انتقام الأمويين للمحارم والمقدسات وخروجهما على أحكام الدين ، ومن هنا كان الخطباء يكترون من ترداد بعض الألفاظ التي تؤدي هذه الغاية لقوة إيحائها وتأثيرها كافظ « الملائكة » مثلاً .

ثانياً : المناظرات السياسية

كان ظهور الفرق والأحزاب السياسية في عصر بنى أمية داعياً لازدهار لون من الخطابة يعتمد على الجدل وقرع الحجة بالحجفة ، فضلاً عن المهارة البيانية ، وهو تلك المناظرات التي كانت تقوم بين خطباء الأحزاب السياسية ، كل منهم يحاول إبراد الأدلة على صواب خطبه وسلامة مبادئه وعلى أنه أحق الأحزاب بتولي أمور المسلمين .

ويكفي أن نشير خطب السقيفية الصورة الأولى لهذا المناظرات ، ثم وجدت بصورة أجي وقوى في خلافة علي حين احتمم التزاع بينه وبين الخوارج . وكان علي وابن عباس بارعيين في رد دعاوى الخوارج ودحض حججهم . ثم انبع نطاق هذه المناظرات في مصر الأموي لاشتداد التزاع حول الخلافة بين الأحزاب المختلفة .

ويجيزنا هنا أن نتبع الأفكار التي كان المتظارون في عصر بنى أمية يعتمدون عليها ويوردونها في سياق الجدل والمناقشة ، وأن بين هؤلء كأن جدلهم مبنينا على معرفة بالمنطق اليوناني وأصول الجدل كما وضحها أرسطو ، أو أنه كان جسداً عفوياً مستمدأً من طبيعة تفكيرهم ومن ثقافتهم العربية الخالصة .

١ - أشهر هذه المذاخرات تلك التي قامت بين بنى أمية وانصارهم من جانب ، وبين بنى هاشم وانصارهم من جانب آخر . ونلحظ أن هذه المذاخرات على الرغم من اشتغالها على مفاخرات كثيرة لم يكن الدافع إليها العصبية العنيفة التي كانت متصلة بين هذين الفرعين النبيلين من قريش والتي تمتد جذورها إلى العصر الجاهلي فحسب ، وإنما كان الدافع القوى إليها تلك الخصومة السياسية العنيفة التي نشببت بين هاتين الأسرتين بسبب التنازع على الحكم . ويلاحظ أن أكثرها يرجع إلى عهد معاوية ، إذ أن الخصومة بين الحزبين كانت على أشدتها في هذه الحقبة .

وأود أن أجمل هنا ما سبق أن ذكرته في صدر البحث وهو أنني لا اطمئن كل الاطمئنان إلى صحة كثير من هذه المذاخرات التي حفظتها لنا المصادر الأدبية والتاريخية ، ولا سيما أن جلها ينتهي بتحول بنى هاشم وظهور حجتهم على بنى أمية ، وأغلبظن أن كثيراً منها قد افتuel منذ أن تمت الغلبة لبني هاشم بقيام الدولة العباسية . وهذا ما يحملنا على التزام الحذر والاحتراس في حديثنا عنها وتبعنا للأفكار الواردة فيها ، وعلى استبعاد ما يرجح افتئاله منها .

وحين نظر في هذه المذاخرات وغيرها نجد جلها يخرج عن الجدل السياسي المحس إلى التهاتر وذكر المطالب والمطاعن والتفاخر بالأنساب والأحساب وهي لذلك ليست مذاخرات سياسية خاصة .

وال فكرة الرئيسية التي تدور حولها أغلب المذاخرات بين بنى أمية وبنى هاشم هي ادعاء كل منها أنه أحق بالخلافة من خصمه ، ويسوق كل من الفرقتين المتنازعين حججه التي تدعم دعواه . ولابد لبني أمية من الإشارة إلى مقتل عثمان ، والمن علي بنى هاشم بهفو معاوية عنهم وكان في وسعه أن يقتلهم أخذأ بناء عثمان ،

والمان عليهم أيضاً بتقريب الأمويين لهم ، ولا سيما معاوية ، ووصلهم بمال والعطاء . ولابد لكل من الفريقيين من الفخر بالأنساب وذكر مناقب أسرته وأيامها التي انتصرت فيها وتعداد مثالب الجائب الآخر ، وقد يبلغ الأمر حد نهش الأعراض وذكر العورات وتناول الخصم بالشتم والقذف وقبح المهجاء . وتمثل لهذا الضرب من المذاشرات بمناظرة جرت بين معاوية وابن عباس ، فقد وجه معاوية القول بجماعة من بني هاشم كانوا في مجلسه فقال : « يا بني هاشم ، والله إنَّ خيري لكم لمنوح ، وإن بابي لكم مفتوح ، فلا يقطع خيري عنكم علة ، ولا يوصد بابي دونكم مسألة ». ولما نظرت في أمري وأمركم رأيت أمراً مختلفاً : إنكم انزون أنكم أحق بما في بيدي مني ، وإذا أعطيتكم عطية فيها قضاءً حرقكم قلتم : أعطانا دون حقنا ، وقصروا بما عن قدرنا . فصرت كالمسلوب ، والمسلوب لا حمد له . وهذا مع إنصاف قائلكم ، وإسراف سائلكم . فأجابه ابن عباس : « والله ما منحتنا شيئاً حتى سألناه ، ولا فتحت لنا بباب حتى فرعناه ، وإن قطعت عنا خيرك الله أوسع منك ، وإن أغفلت دوننا بابك لنكفن أنفسنا عنك . وأما هذا المال فليس لك منه إلا ما لرجل من المسلمين . ولنا في كتاب الله حقان : حق في الغيبة ، وحق في الفيء ، فالغيبة ما غلبنا عليه ، والفيء ما اجتبيناه . ولو لا حقنا في هذا المال لم يأنك من زائر ، بحمله خف ولا حافر » (١) .

٢ - وفي الحقبة الأولى من عصر بني أمية ، وزمن معاوية خاصة ، قامت مذاشرات كثيرة بين الحزب الزبيدي والأحزاب الأخرى ، ونجده أن الناطق بلسان الحزب الزبيدي منها هو زعيمه عبد الله بن الزبير ، وكان له من حضور بيته وفصاحة لسانه وقوه ججه ما أتاح له أن يكون ندائ لأعلام البيان وأنئمة المتن من الأحزاب الثلاثة الأخرى : الحزب الأموي والشيعة والخوارج . وفي هذه المذاشرات أيضاً نجد التهار والتفاخر وذكر المطاعن والمثالب الشخصية وادعاء كل فريق بأنه أحق بالأمر من سواه ، فهي لذلك تخرج عن نطاق المعاشرة السياسية بمعناها الدقيق . وفي

مناظرة جرت بين بني هاشم وابن الزبير يعترف هذا بخروج المناظرة عن حدودها فيقول : « لم يبق يا بني هاشم غير المشائكة والمضاربة^(١) ». وفي مناظرة ابن الزبير لبني هاشم نجده يلح على تفضيل أبي بكر وعمر على علي ، كقوله من مناظرة له مع ابن عباس : « إن ناساً يزعمون أن بيته أبي بكر كانت غلطًا وفاللة ومقالة » ، إلا إن شأن أبي بكر أعظم من أن يقال فيه هذا ، ويزعمون أنه لو لا ما وقع لكان الأمر لهم وفيهم ، والله ما كان من أصحاب رسول الله ﷺ أحد أثبت إيماناً ، ولا أعظم سابقةً من أبي بكر ، فمن قال غير ذلك فعليه لمنه الله بالغ . فيجيبه ابن عباس مفضلاً عليه^(٢) : « على رسلك أنها القائل في أبي بكر وعمر والخلافة ، أما والله ما قال ولا قال أحد منها شيئاً إلا وصاحبنا خير مما قال بالغ^(٣) » .

وفي حين نجد معاوية بتألف بني هاشم وإصطناعهم وإلاطفهم في القول نجد
يوسع ابن الزبير زحراً وتنيفاً وشتماً ، ويصارحه بالمقت والكراهية ويصغر من شأنه في مجالسه ، ويحط من قدره ، وينحاطبه بهؤلئه قوله : قاتلك الله يا بن الزبير ، ما أعياك وأبغاك^(٤) .

والمؤشرة التي جرت بين ابن الزبير والخوارج هي غوذج المناظرات السياسية
الممتازة لمدم خروجها عن نطاق المناظرة إلى المهاورة والتفاخرة ، ولاعتمادها على
المبادئ السياسية والاحتجاج لها والدفاع عنها . فقد عرض الخوارج على ابن الزبير
أن يوافقهم في أقوالهم التي تدعوه إلى التبرؤ من عثمان في سنته السادسة الأخيرة ،
والتبّرؤ من على الذي حكم الرجال في دين الله ، وتکفير أبيه الزبير وصاحبها طلحة
الذين خرجا على علي وهو يومئذ إمام لم يظهر منه كفر بعد ، وإن فعل دخلوا
في جماعته وبايعوه . وكان ابن الزبير ليقاً في مناظرته لإياهم ورده عليهم ، فأخذ عليهم

(١) شرح ابن أبي الحديد ٥٠١/٢ .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٤٩٠/٤ .

(٣) العقد الفريد ١٦/٤ .

تبرر بضمهم بأبيه وبطلمحة هذا التعریض المفيف مع أن الله تعالى أمر بمخاطبة فرعون بالقول اللين ، ثم استأنف الرد عليهم بالمشية فدافع عن عهان واقتصر له وصار حهم بأنه « ولی وليه وعدو عدوه » ، كما دافع ابن الزبير عن أبيه وعن طلحة واتهم المترئين من عائشة بالمرroc من الدين . أما علي فقد تحدث عنده بخير أو شر^(١) . وتعتبر هذه المناظرات من أجود المناظرات السياسية التي خلفها لنا عصر نبی أمية .

٣ - ومن المحقق أن مناظرة عمر بن عبد العزیز للخوارج هي من خير ما وصلنا من المناظرات الأموية ، وهي مزيج من السياسة والدين ، وقد اعتمد الفريقان المناظران فيها على الجدل والمحاجج ، وترفعا عن التهاز والتشاتم . كان عمر ولما بجادلة أصحاب المذاهب فلما بلغه خروج شوذب وجماعة من الخوارج كتب إليه : « بلغني أنك خرجت غضباً لله ولرسوله ، واست أولى بذلك مني » ، فهلم « إلى أناظرتك » فإن كان الحق بآيديينا دخلت فيها دخل فيه الناس . وإن كان في يدك نظراً في أمرك » . فبعث إليه شوذب رجلين من الخوارج يناظرانه ، وقد استهل هذان المناظرة بسؤال عمر عنمن ولاه الأمر ، وهل كانت ذلك عن رضا من الناس ومشورة ، وهو سؤال لا يخلو من إحراج . وأجابها عمر أن رضا الناس عن حكمه بثبات الشورى . فإن حار وخالف الحق فلا طاعة له على الناس . ثم حاول الخارجيان إحراجه ثانية بأن طلبها منه التبرؤ من أهل بيته الذي خالف خطتهم وسلك غير سبيلهم ، فرد عليهم ردًا رویقاً واكتفى بأن سمي أعمال من سبقوه « مظالم » ولم يرض بعلوهم ، ثم مضى ينقض أقوالهم ويظهر لهم على ضلال دعوتهم بالحججة والبرهان ، وانتهت المناظرة بظهور حججه عمر واعتراف الخارجيين بأن الحق في جانبه^(٢) . ومع أن عمر قد ربع الجولة الأخيرة فلنفهمها استطاعاً إحراجه في نقطة واحدة هي إقراره ولایة العهد لیزید بن عبد الملك مع علمه بأنه ليس أهلاً لذلك . وتذكر بعض

(١) نص المناظرة في الكامل للمبرد ٢/١٧٦ .

(٢) خبر المناظرة في العقد الفريد ٢/١٠٤ .

المصادر أن عمر قد فكر فعلاً في خلع يزيد من ولاية العهد، وأن بني أمية احتالوا بذلك في دس السم لعمر ، فلم يلبث ثلاثة حتى مرض ومات^(١).

وكان الخوارج بارعين في الجدل والمناظرة والدفاع عن مبادئهم ، وقد أقر لهم مناظر وهم بهذه البراءة ، وقد روى المبرد أن أحد الخوارج ناظر عبد الملك بن مروان وأخذ يزين له من مذهب الخوارج ودعوتهم بلسان طلاق وألفاظ يينة ، مما حمل عبد الملك على القول : « لقد حكاد يوقع في خاطري أن الجنة خلقت لهم وأني أولى بالجحاد منهم^(٢) ».

إن اعتقاد المناظرات السياسية على الجدل والإقناع بالحججة والبرهان قد يوهم أن المنطق اليوناني كان له أثره في هذه المناظرات وأن المناظرين كانوا يعتمدون على أصول علم الجدل Dialectique كما وضحها أرسطو ، وبهذا تكون الخطابة العربية مدينة للثقافة اليونانية بهذا الفضل . والواقع أن المناظرات السياسية الأموية برئسته من أي تأثير أجنبي ، وهي فن عربي خالص . وربما ظهر بعض الأثر الأجنبي في الجدل الذي قام بين أصحاب العقائد والمذاهب الدينية ، أما في المناظرات السياسية فكان اعتقاد المناظرين على سليقتهم الفطرية ، وعلى ثقافتهم العربية ، وعلى طبيعتهم في التفكير والجدل . ولم يكن منطق أرسطو قد عرف في ذلك الحين ، إذ أن كتب الفلسفة والخطباء الذين هم من أصل غير صربي ، فنمط تفكيرهم قد يفارق نمط تفكير العرب الخالص ، على أن العناصر غير العربية لم تكن لها مشاركة جادة في الخطابة السياسية ، فكان أكثر الخطباء السياسيين صربياً ، وكان أسلوبهم في التفكير والمناظرة لذلك عربياً لا عجبياً ، وكانت ثقافتهم عربية تستمد من القرآن الكريم والشعر العربي وخطب أسلافهم وأقوالهم . وليس عجبياً أن يلحّ الخطباء المناظرون إلى اصطدام المنطق وأسلوب الجدل والاحتجاج ، إذا أردوا بها مدلولها المفوي البسيط لا مدلولها الفلسفى

(١) تاريخ الطبرى ٣١١/٥ .

(٢) الكامل للمبرد ١٤٦/٢ .

المقدّر، فإن أي خطيب نير الذهن متوسط الثقافة قادر على ترتيب أفكاره وإيضاحها والدفاع عنها، يحسن استخدام الأسلوب المنطقي الجدلية بدلوه البسيط، وهذا ما نجده في المظاهرات السياسية التي انتهت إلينا، ونحن لا نجد فيها طريقة خطباء اليونان الجدلية الفلسفية، وهذا ما يفضي بنا إلى تأكيد ما ذهبنا إليه من أن المظاهرات السياسية فن عربى خالص.



ثالثاً : المشاورات السياسية

كانت الأحوال السياسية في عصر بنى أمية كثيراً ما تدعو إلى عقد مجالس للتشاور وتبادل الآراء، وفي هذه المجالس كان يتكلّم من عرف من القوم بر جاحية الفكر وصواب الرأي وبعد النظر، كل يدلي برأيه ويشير بالخاد موقف ما إزاءحدث السياسي الخطير الذي أوجب اجتماع القوم لتبادل الرأي والمشورة. وفي هذه المجالس الشورية كانت تتجلى براعة الخطباء السياسيين في استهالة القوم إلى آرائهم وإقناعهم بصواب نظرتهم. وهذه المداولات شبيهة بال المجالس التي كانت تعقدتها القبيلة في العصر الجاهلي للتشاور فيها بلم بها من أحداث وخطوب. وهي ظاهرة لها شأنها في دلالتها على تشبع العربي بالروح الديوغرافية التي تنافي الاستبداد بالرأي والانقياد الأعمى للموجهين والزعماء.

١ - من مجالس الماظرة المشهورة في عصر بنى أمية، تلك التي عقدها الخوارج للتشاور بشأن الخروج على سلطان بنى أمية، وأكثرها كان في زمن معاوية ابن أبي مفيان. وقد تكلّم في هذه المجالس بعض أعلام الخوارج كالمستورد بن علفة، وحيّان بن ظبيان، ومُعاذ بن جوين، وما قاله ابن جوين في حض جماعته على الخوارج: «يا أهل الإسلام، إنا والله لو علمنا أنا إذا تركنا جهاد الظلمة، وإنكار الجحور، كان لنا به عند الله عذر، لكن تركه أيسر علينا، وأخف من ركبته». ولكننا قد علمنا واستيقتنا أنه لا عذر لنا، وقد جمل لنا القلوب والأسماع حتى نُنكر الظلم،

ونفير الجور، ونجاهد الظالمين^(١) . والأفكار التي نجدها في هذه الخطاب الشوري لا تخرج عما وجدناه في خطاب الخوارج عاملا من مسوغات الخروج والثورة على سلطان بني أمية .

٢ - ولما أراد معاويةأخذ البيعة لابنه يزيد قبيل وفاته لم يشأ أن يبت بالأمر قبل أن يستشير ذوي الرأي ومن لهم مطعم في تولي الخلافة بعده ، ليستوثق من رضى القوم بيزيد وبما ينتهي إياه ، ويعرف المعارضين للفكرة ومن يتوقع منازعاتهم بيزيد الأمر ليحذر جانبيهم . وقد وجدنا معاوية في وصيته ليزيد بحذره أمر هؤلاء الذين ثبت له خلافهم ومعارضتهم ، ويرشهده إلى الخطبة التي ينبغي له سلوكها إزاءهم . وقد روى المدائني أنه لما مات زيد سنة ثلاثة وثلاثين وخمسين « أظهر معاوية عهداً مفتعلًا فقرأه على الناس فيه عقد الولاية ليزيد بعده ، وإنما أراد أن يسهل بذلك بيضة يزيد » ، فلم يزل يروض الناس لبيعته صبعم مدين ، ويشاور ، ويعطي الأقارب ويداني الأبعد ، حتى استوثق له من أكثر الناس^(٢) .

وبعد أن قام معاوية بسيطرة نفوس طائفة كبيرة من المؤيدين والمعارضين وصح عزمه على تولية يزيد عهده كتب إلى وفود الأمصار أن يقدموا عليه ، وأظهر أنه يريد أن يستشيرهم في أمر ولاية يزيد ، وأواعز إلى أصحابه أن يخطبوا في تأييد هذا الأمر . وكان من الخطباء المؤيدين يومئذ الضحاك بن قيس وعمرو بن سعيد الأشدق ويزيد بن المقفع وعبد الرحمن بن عثمان الثقي ، وأكثر هذه الخطاب مداره على أن الزمان العصيب الذي هم فيه يفتقر إلى خليفة حازم أربيب ينهض بالأمر بعد معاوية ، وأن ليس ثمة أصلح للأمر من يزيد لما يتمتع به من مزايا ليست لأحد غيره . إلا أن يزيد بن المقفع سلك في خطبته غير هذا المسلك ، فهو لم يتبع الإقناع والاستهالة وإنما اعتمد على الترهيب فحسب وأكتفى بهذه الخطبة المسرفة في إيجازها : « أمير المؤمنين هذا - وأشار

(١) تاريخ الطبرى ٤/٢٢٩ .

(٢) العقد الفريد ٤/٣٦٨ .

إلى معاوية - ، فإن ذلك فهذا - وأشار إلى يزيد فمن أبي هذا - وأشار إلى سيفه . وقد أعجب معاوية بكلمته هذه فجعله سيد الخطباء^(١) .

ومن عارض في الأمر يومئذ الأحنف بن قيس ، سيد تميم البصرة ، وقد ذكر صاحب العقد أن الناس تفرقوا ولم يذكروا إلا كلام الأحنف . وفي مجلس آخر كان من عارض في ولادة يزيد الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر ، وكان اعترافهم منصباً على أن في المسلمين من هو أجدar من يزيد بتولي الخلافة ، وأن الأولى ترك الأمر شوري بين المسلمين ليختاروا لأنفسهم^(٢) .

٣ - وما هم الحسين بالتوجه إلى الكوفة تلبية لدعوة أهلها أشار عليه أخوه محمد ابن الحنفية وابن عمّه عبد الله بن عباس وغيرها بالمدول عن هذا الأمر خوفاً من أن يغدر به أهل الكوفة ويخذلوه خذلانهم أباه بالأمس . وقد أشار عليه ابن عباس إلا يأتهم إلا إذا نفوا عدوهم عن بلدهم ، وكان مما قاله في معرض النصح : « إني أخوف عليك في هذا الوجه الملاك والاستئصال ، إن أهل العراق قوم غدر ، فلا تقربهم . أقم بهذا البلد ، فإنك سيد أهل الحجاز » ، فإن كان أهل العراق يردونك ، كاذبوا ، فاكتبه إليهم فلينفوا عدوهم ثم أقدم عليهم^(٣) . ولكن الحسين يأبى إلا المضي إلى الكوفة . ثم ما تحقق من خذلان القوم إياه وأنه لا محالة هالك استشار صحبه في الأمر ، وأشار على أنصاره القلائل بأن يفارقوه ، فهم في حل من عهدهم له : « ألا وإنني قد رأيت لكم ، فانطلقوا جميعاً في حِلٍ » ، ليس عليكم مني ذِمام . هذا الليل قد غشيمكم فاتخذوه جَمَلاً^(٤) . . ولكن أنصاره وأهل بيته أبوا فراقه وتكلم عدد منهم فأظهروا أنهم على العهد وأنهم ليسوا بمسليه حتى يهلكوا معه . وكان من أبلغ المتكلمين من جماعته يومئذ زهير بن القين .

(١) العقد الفريد ٤/٤٣٧٠ .

(٢) العقد الفريد ٤/٤٣٧١ .

(٣) تاريخ الطبرى ٤/٤٢٨٨ .

(٤) المصدر السابق ٤/٤٣١٧ .

ع - وبعد مقتل الحسين تداعى الشيعة بالکوفة وتلاوموا بخذلانهم حسينا وتابوا إلى الله مما فرط منهم ، واجتمعوا في منزل رئيسهم سليمان بن صرد ليتشارروا فيما يصنفونه . وفي هذا المجلس خطب عدد من رؤساء التوابين منهم المسیب بن نجاشی ورفاعة بن شداد وسليمان بن صرد ، وقد اتفقت كلّهم في هذه الخطبة على أنّهم أتوا حوباً عظيماً بخذلانهم الحسين والتخلي عن نصرته ، وأن لا شيء يحول ذنهم إلا الأخذ بثاره والطلب بدمه . ثم بايعوا شيخهم سليمان بن صرد واتمدو الاجتماع بالنجيلة المسير إلى أهل الشام . ولما علم أمير حرب الكوفة من قبل ابن الزبير عبد الله بن يزيد بأمرهم جمع الناس في المسجد وقام فخطبهم داعياً الشيعة إلى أن يشاروا للحسين من أهل الشام القادمين نحوهم بقيادة ابن زياد وأنه ومن معه لهم ظهير ونصير : « والذى قتل من ثارون بدمه قد جاءكم ، فامتنعوا به حدكم وشوكتكم ، واجملوها به ولا تجعلوها بأنفسكم . إني لم ألكم نصحاً ، جمع الله لنا كلّمتنا ، وأصلح لنا أممتنا^(١) . وقد تكلم في هذا المجلس أيضاً طائفة من الخطباء ، كل بدلبي برآبه ، واجتمعت كلّة التوابين على الخروج ووحدتهم لقاء جيوش أهل الشام .



وابعاً : الخطبة الحربية

كثرة الفتوح الخارجية والمحروب الداخلية في عصر بيأمية استدعت ازدهار الخطابة الحربية في هذا العصر ، وهي الخطبة التي تحض على قتال العدو وتدكي الخامسة في نفوس المقاتلين وتحمّلهم على الاستبسال والاستشهاد . والأخير بنفس العربي السريعة الانفعال والتاثر ، السريعة الاستجابة للكلام الرائع والبيان الناصع ، يقدّر المنزلة الخطيرة التي احتلّها الخطابة الحربية في العصر الأموي ، ومدى انتفاع قادة الجيوش وزعماء الثوار بالخطباء والقصاص ، ومن هنا كان حرصهم على اصطلاح عدد منهم في كلّ موقعة يخوضونها ، وما كان يغبنهم عنهم وفرة الأبطال والسلاح . وحيث كان عتاب بن ورقاء يقاتل شيئاً خارجي أراد أن يستعين بالقصاص في

(١) تاريخ الطبرى ٤/٤٥ .

استنهاض عزيمة رجاله وإذا كان حماستهم فنادى ، أين القصاص . فلم يجده أحد ، فأمسق طفيلاً في يده وأيقن أنه هالك لا محالة^(١) .

وكان متوقعاً أن تكون الخطب الحربية الأموية التي انتهت إليها متناسبة في وفترتها مع كثرة الفتوح والخروب الداخلية في هذا العصر ، ولكن ما وصلنا من هذه الخطب قليل جدّاً بالقياس إلى عدد الغزوات وال المعارك التي جرت في العصر الاموي . وما يلفت النظر أنها لا تجد خطبة واحدة قيلت إبان غزوات العرب بلاد الروم ، ومن المحقق أن خطبها عديدة قيلت في هذه الفتوح وغيرها ولكنها فقدت فيها فقد من خطب العصر الاموي .

وتقسم الخطب الحربية الأموية إلى الأقسام الثلاثة التالية :

- ١ - خطب الفتوح والمغازي .
- ٢ - خطب الخروب الداخلية .
- ٣ - القصاص .

وسأوجز القول في الأفكار التي يشتمل عليها كل منها .

١ - في خطب الفتوح والمغازي يعمد الخطيب ، وهو في الغالب قائد الجيش ، إلى ترغيب الجندي في المجادلة بتفاءل ثواب الله ، وطمئنة في الغنيمة والكسب ، وإعلاء لكلمة الدين ورایة الإسلام . وهو يذكرهم بالأيات القرآنية التي تعد المجاهدين بالنصر والفالح والثواب العظيم ، ويزين لهم الاستشهاد في سبيل الله ، وبطري شجاعتهم وإقدامهم وبالإثم في الخروب ، ويهدون من شأن الأعداء ويستخف بقوتهم وعدهم ، ويحذرهم غدرهم وبياتهم ، ويخوفهم المهزيمة والفرار وما وراءها من خزي وعار يلتصقان بهم أبداً الدهر . وهذه خطبة قصيرة لقتيبة بن مسلم حين بلغه مسيرة جيوش الشاش وفرغانة نحوه ، وهي نموذج للخطابة الحربية : « إن عدوكم قد رأوا بلاء الله عندكم ، وتأييده إياكم في مزاحمتكم ومكانتكم ، كل ذلك يُفلجكم الله عليهم ، فأجمعوا

على أن يحذوا غرّتكم وبيانكم ، واختاروا دهاقنهم وملوكيهم . وأنتم دهاقن العرب وفرسانهم ، وقد فضلتم الله بدينه ، فأبلىوا الله بلاء حسنا تستوجبون به النواب مع الذب عن أحسابكم^(١) .

وربما عمد الخطيب إلى تبييس الجندي من إمكان الفرار ، وتحييرهم بين الامتناع في مهاجمة العدو وبين الملائكة المحقق بأيديهم ، صنيع طارق بن زياد في خطبته المشهورة بالأندلس : « أين الناس ، أين المفر » . البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم . وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، فإنها لا يُغلّبانوها جنداً منصوراً ، ولا تضرّ منها قلة ، ولا تنفع مع الخور والكسل والفشل والاختلاف والمعجب كثرة^(٢) . . . وفي رواية أخرى لهذه الخطبة نجد طارقاً يلجمأ إلى أسلوب الإغراء فيصف لجنده ما تزخر به الجزيرة من الخور العين ، والجواهر النفيسة ، والفنائيم الوفرة : « وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الخور الحسان ، من بنات الميونان ، الرافلات في الدر والمرجان ، والخليل المنسوجة بالعيقان ، إلخ^(٣) . . . »

٢ - وفي خطب الفتن والثورات نجد خطباء كل فرقه يحضون جماعتهم على القتال ، مدعين أنهم إنما يجاهدون الكفار والمرافق ، وأن الله لذلك معهم ، وهو ناصرهم على عدوهم ، وأن من قتل منهم فهو شهيد مصيره جنة الخلد . وربما استعان الخطيب ببعض الآيات القرآنية لشد العزائم وإذكاء الحماسة والترغيب بالقتال ، ولا بد له من إطراء شجاعة أنصاره وحسن بلائهم ، ومن تحفيز أعدائهم وإظهار الاستخفاف بهم ، وتخويف القوم من سوء العاقبة إذا ما منوا بالهزيمة ولم يذبووا عن أغراضهم وأحسابهم . وهذا هو ذا المؤلب بن أبي صفرة يحضر جنده على قتال الأزارقة فيقول : « يأيها الناس ، إنكم قد عرفتم مذهب هؤلاء الخوارج . وأنتم

(١) تاريخ الطبرى ٢٥٢/٥ . البيات : مهاجمة العدو ليلا . الدهاقن ج دهقان : الرئيس من العجم .

(٢) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ١١٧/٢ .

(٣) وفيات الأعيان لابن خلkan ١٧٧/٢ .

إِنْ قَدْرُوا عَلَيْكُمْ فَتَنُوكُمْ فِي دِيْنِكُمْ . . . فَالْأَيْمَنُ وَهُدُوْجُهُمْ وَحْدَهُمْ
فَإِنَّهُمْ هُمْ مُهَنَّدُكُمْ وَعَبِيدُكُمْ ، وَعَارُ عَلَيْكُمْ وَتَقْصُّ فِي أَهْسَابِكُمْ وَأَدْيَانِكُمْ أَنْ يَغْلِبُكُمْ
هُؤُلَاءِ عَلَى فَيْلَكُمْ ، وَبَطَّلُوا حِرْيَكُمْ ^(١) . وَرَبِّا ضَمِّنَ الْقَائِدُ خطْبَتِهِ الْخُطْبَةُ
الْوَاجِبُ اتِّباعُهَا فِي مُقَاوِلَةِ الْعَدُوِّ ، وَتَحْذِيرُ جَمَاعَتِهِ مِنِ الْبَيَاتِ وَالْغَرَةِ ، وَتَذَكِّرُهُمْ
بِوجُوبِ الْإِحْتِرَاسِ وَالْحَذْرِ . نَحْدُدُ مَثَلًا الْمُسْتُورِدُ بْنَ عَلْفَةَ يَقُولُ مِنْ خُطْبَتِهِ لَهُ يَشْرِحُ
فِيهَا جَمَاعَتِهِ مِنِ الْخُوَارِجِ خُطْبَتِهِ فِي لِقَاءِ الْعَدُوِّ : « إِنِّي قَدْ نَظَرْتُ فِيهَا أَسْتَشِرُكُمْ فِيهِ ،
فَرَأَيْتُ أَلَا أُفِيمُ لَهُمْ حَتَّى يَقْدِمُوا ، وَهُمْ جَامِنُونَ مُتَوَافِرُونَ ، وَلَكِنْ رَأَيْتُ أَنْ
أَمْسِيرُ حَتَّى أَمْعَنْ ، فَإِنَّهُمْ إِذَا بَلَغُوهُمْ ذَلِكَ خَرَجُوا فِي طَلَبِنَا ، فَتَقْطَعُوا وَتَبَدَّلُوا ،
فَعَلَى ذَلِكَ الْحَالِ يَنْبَغِي لَنَا قَتَالُهُمْ ، فَأَخْرَجُوا بَنَا عَلَى اسْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ^(٢) » .

وَقَدْ يَجْنَحُ الْخَطَّابُ إِلَى التَّعْنِيفِ وَالتَّقْرِيبِ ، وَالْإِنْذَارِ وَالْوَعْدِ ، إِذَا آتَى نَاسٌ مِنْ
رِجَالِهِ الْوَهْنَ وَالْمَجْزَنَ ، وَالْتَّرَاخِي فِي قِرَاعِ الْأَعْدَاءِ . فَعَلَى مُسْلِمٍ بْنِ عَقْبَةَ حِينَ وَقَفَ
يَحْرِضُ أَهْلَ الشَّامَ عَلَى قِتَالِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ فِي مَوْقِعَةِ الْحَرَةِ وَيَقُولُ : « يَا أَهْلَ الشَّامِ ،
أَهْذَا الْقِتَالُ قِتَالُ قَوْمٍ يَرِيدُونَ أَنْ يَدْفَعُوا بِهِ عَنْ دِيْنِهِمْ ، وَأَنْ يَعْزِزُوا بِهِ نَصْرَهُمْ .
قَبْحُ اللَّهِ قَاتَلُكُمْ مِنْذِ الْيَوْمِ ، مَا أَوْجَعَهُ لَقَلْبِي ، وَأَغْبَيَظُهُ أَنْفُسِي . أَمَا وَاللَّهِ
مَا جَزَاكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ تُحْرَمُوا الْمَطَاءَ ، وَأَنْ تَجْمَرُوا فِي أَقْاصِيِ الْأَنْتَرُورِ .
شَدَّدُوا مَعَ هَذِهِ الرَّايةِ ، تَرَحَّلَ اللَّهُ وَجْهُوكُمْ إِنْ لَمْ تُعْتَبُوا » ^(٣) .

٣ - تَحْمِلَتْ فِي فَصْلِ الْمُؤْرِثَاتِ الْدِينِيَّةِ عَنْ نَشَأَةِ الْقَصْصِ الدِّينِيِّ فِي الْإِسْلَامِ ،
وَكَانَ الْقَصَاصُ يَتَوَلَّنَ تَفْسِيرَ آيَاتِ الْكَرِيمِ مُسْتَعِينًا بِالْقَصْصِ مُسْتَمدَةٍ مِنْ مَصَادِرِ
شَتِّيِّ ، وَمِنْ هَذَا أَطْلَقَ لِفَظَ « الْقَصْصُ » عَلَى هَذَا الضَّرْبِ مِنَ الْوَعْظِ الدِّينِيِّ
وَالْتَّفْسِيرِ الْقُرْآنِيِّ .

ثُمَّ رَئَى الْإِسْتِعَانَةُ بِالْقَصَاصِ فِي تَحْرِيُّضِ الْقَوْمِ عَلَى الْقِتَالِ ، وَيَسِّدُ مَا أُورِدَنَاهُ

(١) الْكَاملُ لِلْمَبْرُدِ ١٩٢/٢ . الْمَهْنَةُ : الْعَيْدُ وَالْحَدَمُ .

(٢) تَارِيخُ الطَّبَرِيِّ ٤/٤٤٧ .

(٣) الطَّبَرِيِّ ٤/٣٧٥ . أَعْتَبُهُ : أَرْضَاهُ .

قبل من كلام عتاب بن ورقاء أن الاعتماد على القصاص في الحروب والمغازي أصبح شيئاً مألوفاً في عصر بني أمية . وبذكر الطبرى أن ابن الأشعث اصطحب معه حين قار على الحجاج ، ذرا القاص وكساه وأعطاه^(١) . وكانت خطب القصاص يترج فيها الوعظ بالحظر على القتال والرغم في الجماد ، وكان القاص يحرص على التمثيل بآيات من القرآن الكريم تؤدي الغرض المقصود من إثارة حماسة المقاتلين وترغيبهم في القتال وحثهم على الاستشهاد في سبيل الله ، وربما عمد إلى تفسير هذه الآيات وشرحها مستعيناً بقصص الأنبياء وأحاديث الأم المؤابرة . ويختلف القصاص عن الخطب الحربية الخالصة بأنه أكثر انكاء على المعانى الدينية والآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وبامتزاجه بالوعظ والتزهيد في الدنيا ، وبأن عنصر الرغبة فيه معنوي لا مادي ، فالقاص لا يرغب في نيل المغانم الحربية وإنما يرغب في نيل ثواب الله ودخول جنته والتمتع فيها بما وعد الله عباده الصالحين . ومن القصاص الذي وصلنا بعض قصص صالح بن مسرح ، أحد رؤوس الصفرية ، فمن قصصه قوله في خاتمة خطبته له بدأها بالوعظ والتزهيد في الدنيا وتحدث فيها عن حكم رسول الله وخلفائه من بعده : « .. فتيسروا رحيمكم الله ، لجهاد هذه الأحزاب المتجذرة ، وأنتم الضلال الظالمة ، والخروج من دار الفناء إلى دار البقاء ، والاحساق بإخواننا المؤمنين الموقنين الذين باعوا الدنيا الآخرة ، وأنفقوا أموالهم التائس رضوان الله في العاقبة ، ولا تجزعوا من القتل ، فإن القتل أيسر من الموت ، والموت نازل بكم ، غير ما ترجم الظنوون ، ففرق بينكم وبين آباءكم وأبنائكم ، وحلائمكم ودنياكم ، وإن أشتد لذاك كرهكم وجز عكم . إلا فيعموا الله أنفسكم طائفين وأموالكم ، تدخلوا الجنة آمنين ، وتُعافوا الحور العين^(٢) . »

خامساً : الوصايا السياسية والحربية

من خروب الخطابة السياسية هذه الوصايا التي كان الخلفاء وأقطاب السامة يوصون بها ذويهم أو عمالهم أو قادتهم ، برشدونهم فيها إلى الطريق التي ينبغي لهم أن يسلكوها ،

(١) الطبرى ١٤٧/٥ .

(٢) الطبرى ٥٠/٥ .

والسياسة التي يتبعونها ، والخطة التي ينتجهونها . وربما صدرت الوصية عمن عرف بالخبرة السياسية أو المهارة الحربية والدهاء وبعد النظر ، ولو لم يكن من رجال الحكم وأربابه السلطة . وهذه الوصايا منها ما هو سياسي خالص يتناول أسلوب الحكم وطريقة معاملة الرعية نحو ذلك ، ومنها ما هو حربي يتناول خططة القتال وفن الحرب .

١ - الوصايا السياسية تعكس ما يتحلى به الموصي من دهاء وبعد نظر وحنكة سياسية وخبرة بفوس الرعية وطريقة معاملتها ، وهذه الصفات كانت متوافرة في أكثر خلفاء بي أمية ولا سيما في معاوية وعبد الملك . ومن هنا كان حرصهم أن يوصوا أولياء عبدهم وأبناءهم وذويهم بما ينبغي عليهم اتباعه بعدهم ، وترزىدهم بثمرة تجاربهم السياسية ، ووصية معاوية لابنه يزيد من خير الوصايا السياسية التي خلفها لما المصر الاموي ، فهي تكشف عن حنكة سياسية لا توافر إلا لأفذاذ الساسة وعياقرة الحكام ، وتفق منها على صورة حقيقة للخلافة أهل كل مصر : « .. انظر أهل الحجاز ، فهم عصابتك وعشرَتْك ، فمن أتاكم منهم فأكرمه ، ومن قعد عنك فتعذبه ، وانظر أهل العراق ، فإن سلوك عزل عامل في كل يوم فاعزله عنهم ، فإن عزل عامل واحد أهون عليك من مائة ألف سيف ، ثم لا تدري علام أنت عليه منهم . ثم انظر أهل الشام ، فاجملهم الشعار دون الدثار ، فإن رايك من عدو ريب فارمه بهم ، فإن أظفرك الله فاردُّد أهل الشام إلى بلادهم ، لا يُقيموا في غير بلادهم فيتأذوا بغير آدائهم . لست أخاف عليك غير عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، والحسين بن علي . فاما عبد الله بن عمر ، فرجل قد وقذه الورع . وأما الحسين ، فأرجو أن يكفيكه الله بن قتل أباه ، وخذل أخيه . وأما ابن الزبير فإنه خبّض ، فإن ظفرت به فقطعه لربما إربا^(١) . ولما معاوية أيضاً وصايا أخرى تم عن مهاراته السياسية ، منها وصيته للمغيرة بن شعبة حين ولاد الكوفة وأمره فيها بشم علي والترجم على عثمان^(٢) .

(١) العقد الفريد ٤/٨٧ . عترة الرجل : رعاه الأدنون . الشعار : ما يلي الجسد من الثياب . والدثار ما يلي الشعار . وقده : غلبه .

(٢) انظر الطبرى ٤/١٨٨ .

وأعبد الملك وصيحة وجهها لولده قبل وفاته خطط فيها أيضاً سياسة بنى أمية نحو رعيتهم ، منها قوله يخاطب الوليد : « إذا أنا مُتْ فشَّمِرْ واتَّزِرْ ، والبسْ جلد غَرْ » وضع سيفك على عاتقك ، فمن أبدى ذات نفسه المك فاضرب عنقه » ، ومن سكت مات بداعه ^(١) . وعلى الجملة فالوصايا السياسية التي خلفها لنا عشر بنى مروان تبرز الخطوط العامة للأساليب السياسية المتتبعة في ذلك العصر .

٢ - أما الوصايا الحربية فكانت الغاية منها تعريف الموصي له بأسلوب القتال في حاتم الهجوم والدفاع ، وفقاً لأصول فن الحرب (الناكثيك) المتتبعة في ذلك العصر . وليس بين أبداً وصايا خطابية مفصلة دقيقة توضع لنا الخطاط الحربية التي كان قادة الجيوش يبحرون عليها ، وقد روى ابن عبد ربه وصيحة عبد الملك وجهها إلى قائد له سيره إلى بلاد الروم وهي غاية في الإيجاز : « أنت تاجر الله لعباده ، فكن كالمضارب الكيس الذي إن وجد ربحاً انجر ، وإنما تحظى برأس المال . ولا تطلب النفيضة حتى تحرز السلامة . وكن من احتياك على عدوك أشد حذراً من احتياك عدوك عليك ^(٢) . وكان قتيبة بن مسلم يوصي رجاله فيقول : « إذا غزوتهم فأطيلوا الأظفار ، وقصروا الشعور ، والحظوا الناس شرراً ، وكلوهم رمزاً ، وأطعنوهم وخزاً ^(٣) . وقد كانت الوصايا الحربية المكتوبة أكثر شيوعاً ، وأوفر عنایة بالتفصيل والتوضیح ، وأشهرها الوصيحة التي كتبها عبد الحميد الكاتب على لسان مروان بن محمد إلى ابنه عبد الله حين وجده اغتال الصحاك بن قيس الخارجى .

(١) سروج الذهب ١٢١/٢ .

(٢) العقد الفريد ١٥٥/١ .

(٣) العقد الفريد ١٥٨/١ .

الخصائص الفنية للخطابة السياسية

(أ) الطابع البدوي

نوع ظاهرة تلقت النظر في الخطابة الأموية عامه ، والخطابة السياسية خاصة ، هي أن هذه الخطابة لم تسير قام المسيرة حياة التحضر التي انتقلت إلها كثرة العرب في هذا مصر ، فظلت الخطابة بوجه عام تحمل في أسلوبها طابعاً أدق إلى البداءة، سواء في ألفاظها أو في تراكيبها أو في الأبيات التي كان الخطباء يتمثلون بها .

ويبدو لي أن تأثر الخطابة الأموية بهذا الطابع مرده إلى أن البيئة البدوية كانت تعتبر في هذا العصر موطن الفصاحة الأصيلة والبيان العربي الناصع السليم من شوائب اللحن واللکنة ، وكان البلغاء لذلك يقصدون البدائية ليقوموا أسلوبهم بشفافية أهلها . ولما كانت الخطابة فناً قوياً يرتكز على فصاحة اللسان كان المثل الأعلى لهذه الفصاحة يتمثل في فصاحة الأعراب وأهل البدائية ، ومن هنا كان الخطباء الحضريون يحاولون محاكاة خطباء البدائية في أسلوبهم . وقد أثر عن بعض خطباء الحضرة ما يدل على تعمد هذه المحاكاة . كالذي حكي عن خالد بن صفوان من أنه تكلم في صلح فقام أعرابي فأجابه بخطبة أبلغ من خطبته فقال خالد في مجال التعليق على بلاغة الأعراب : « وكيف نجاريهم ، وإنما نحكيهم أم كيف نسايقهم ، وإنما نجري على ما سبق إلينا من أعراقهم »^(١) . وثمة دافع آخر إلى هذه المحاكاة هو إظهار الخطيب نفسه بظهور الرجل الجافي القوي الشديد البطش ، لأن الطابع البدوي يوحى بهذه الفوة . وأنغلب الظن أن هذا الدافع هو ما حمل الحجاج على طبع خطبه بالطابع البدوي الأعرابي الجافي ، وكان لذلك يعتمد أن تكون الأبيات التي يتمثل بها في خطبته مأخوذه عن شعراء البدائية ، وكذلك أمثاله وصوره كانت مستمددة من البيئة البدوية . بل إن المحاكاة قد جاوزت الأسلوب إلى طريقة الأداء فكان خطباء الحواضر يتشاركون وبتفصيل في خطبهم تقليداً منهم خطباء البدائية .

(١) البيان والتبيين ١٧٣/١.

وحيظ الخطاب السياسي من هذا الطابع البدوي يتفاوت باختلاف طبائع الخطاب
وتقافهم وبيئتهم . ومن الطبيعي أن يكون هذا الطابع في خطب البداية أبرز وأقوى
منه في خطب مكانته الحواضر ، ولم يكن خطباء البداية يتحاشون من استعمال
الألفاظ النابية الصريحـة التي كان ذوق أهل الحضـر يأبـي عليهم استعمالـها . وقد أثر
عن الرسول قوله : « من بدا جـفا »^(١) ، وخير ما يمثل الطابع البدوي الفـحـطـبة
وكبـعـ بنـ أبيـ سـودـ الـقـيـدـيـ قـاتـلـةـ بـخـرـاسـانـ عـقـبـ قـتـلـهـ قـتـلـةـ بـنـ مـسـلـمـ ، فـقـدـ اـسـتـهـلـهـ بـأـبـيـاتـ
مـنـ الشـعـرـ فـيـ التـحـدـيـ وـالـمـفـاخـرـةـ ثـمـ قـالـ : « وـالـلـهـ لـأـقـتـلـنـ ثـمـ لـأـقـتـلـنـ ، وـلـأـصـلـبـنـ
ثـمـ لـأـصـلـبـنـ ، إـنـيـ وـالـغـ دـمـاـ . إـنـ مـرـزـبـانـكـ هـذـاـ إـنـ الزـانـيـةـ قـدـ أـغـلـىـ عـلـيـكـ أـسـمـارـكـ ،
وـالـلـهـ لـيـصـيرـنـ » الـقـفـيـزـ فـيـ السـوـقـ غـدـاـ بـأـرـبـعـةـ أـوـ لـأـصـلـبـنـهـ . صـلـوـاـ عـلـىـ نـبـيـكـ »^(٢) .
وـبـيـنـ مـاـ فـيـ هـذـهـ الـخـطـبـةـ مـنـ جـفـاءـ الـأـسـلـوبـ وـبـداـوـةـ التـبـيـرـ وـسـذـاجـةـ التـفـكـيرـ . وـقـدـ
يـكـوـنـ خـطـبـاءـ أـهـلـ الـبـادـيـةـ أـقـدـرـ عـلـىـ الـأـدـاءـ الـفـصـيـحـ مـنـ أـهـلـ الـحـضـرـ ، وـأـبـرـعـ مـنـهـمـ
فـيـ التـبـيـرـ عـنـ أـفـكـارـهـ بـالـبـيـارـةـ الـمـوجـزـةـ ، وـلـكـنـهـ دـوـنـ مـشـكـ يـتـخـلـفـونـ عـنـهـمـ فـيـ مـضـارـ
الـأـفـكـارـ وـالـتـنـسـيقـ الـفـنـيـ وـالـصـنـعـةـ ، وـقـدـ أـشـارـ الـجـاحـظـ إـلـىـ مـاـ يـتـصـفـ بـهـ خـطـبـاءـ
الـأـهـرـابـ الـجـفـاءـ مـنـ سـذـاجـةـ التـفـكـيرـ وـضـالـةـ حـظـهـمـ مـنـ الـقـافـةـ وـالـعـرـفـةـ بـالـدـينـ^(٣) .

وـكـانـتـ الـخـطـابـةـ الـدـينـيـةـ أـذـلـ ضـرـوبـ الـخـطـابـةـ تـأـثـرـاـ بـهـذـهـ الـرـوـحـ الـبـدوـيـةـ لـسـبـيعـينـ :
الـأـوـلـ أـنـ كـثـيرـاـ مـنـ الـخـطـبـاءـ الـدـينـيـنـ كـانـواـ مـنـ غـيـرـ الـمـرـبـ ، وـلـمـ يـكـوـنـواـ قـادـرـينـ
عـلـىـ مـحاـكـاهـ الـمـرـبـ الـخـلـصـ فـيـ أـسـلـوبـهـ . وـالـثـانـيـ : أـنـ الـرـوـحـ الـدـينـيـةـ بـطـبـيـعـتـهاـ تـجـاـفـيـ
الـرـوـحـ الـبـدوـيـةـ ، فـضـلـاـ عـنـ أـنـ الـقـرـآنـ قـدـ لـطـفـ كـثـيرـاـ مـنـ جـفـاءـ الـأـسـلـوبـ
الـخـطـابـيـ الـبـدوـيـ .

(ب) التنسيق

أـوـلـ مـاـ يـفـقـرـ إـلـيـهـ الـأـسـلـوبـ الـخـطـابـيـ التـنـسـيقـ ، وـالـمـرـادـ بـهـ حـسـنـ الـخـبـارـ الـأـلـفـاظـ

(١) البيان والتبيين ١٣/١ .

(٢) الطبرى ٢٨٢/٥ .

(٣) البيان والتبيين ٢٦٣/٢ .

والتعبير الشافه ذات الدلالة الواضحة والمؤدية المعنى المراد التعبير عنه ، دون لبس ولا غموض ، مع العناية بترتيب الألفاظ والعبارات لتكون واضحة الدلالة على المعاني . فلابد من يستمع إلى خطبة ما ينفي أن تصل إليه أفكار الخطيب وواضحة جلية منسقة كي تتحقق الغاية من الخطبة وهي الإقناع العقلي والاستهلاك العاطفية ، وأي غموض أو اضطراب في التعبير يخل بهذا الفرض ، وليس لدى السامع فسحة من الوقت تتيح له إنعام النظر في أقوال الخطيب لاستجلاء معانيه ، وهو بهذا مختلف عن القاريء الذي يتسع له المجال أن يعيد قراءة عبارة الكاتب أكثر من مرة حتى يدرك معناها ، فالخطيب مطالب إذن بترتيب أفكاره وتنسيق عباراته وتجنب التعبير الملتوية والغامضة ، والألفاظ البهمة الدلالة ، وكل ما من شأنه أن يجعل إدراك المعنى عسيراً أو بطيئاً ، كالأكثار من الجمل الاعتراضية ، وإطالة الجملة إطالة مسافة وإبراد الألفاظ الغريبة الحوشية . وعليه أن يرتتب ألفاظه وجمله ترتيباً منسقاً واضحاً يحقق نقل أفكاره إلى السامع تقدلاً سريعاً يفضي إلى سرعة التأثر والاستجابة من جانبه .

والخطباء السياسيون الممتازون في مصر الاموي كانوا شديدي الحرص على هذه الخصلة ، والعربي بطبيعته يؤثر الوضوح ودقة التعبير ، فقلما نجد في خطبهم التواء في التعبير أو اضطراباً في الترتيب أو تعقيداً لفظياً أو معنوياً ، وخطبة زياد البراء خير نموذج يبرز لنا عنصر التنسيق في الخطابة السياسية الاموية .

ولا يشذ عن هذا الحكم العام إلا خطب قليلة ظهر فيها تكافف الغريب من الألفاظ ، وذلك كقول عبد الرحمن بن عثمان الثقفي في خطبته التي يؤيد فيها جعل ولادة العهد ليزيد بعد معاوية : « أصلح الله أمير المؤمنين ، إنا قد أصبحنا في زمن مختلفة أهواه » ، قد احتجد بت علبتها سيساؤه ، واقطوطبت علينا أدواته (١) ..

(٢) الإيجاز

في طامة الداعش التي يقوم عليها الأسلوب الخطابي الإيجاز ، ولا تظهر روعة

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ١٢٢/١ . السياسة: منتظم فقار الظاهر . اقطوطبت : اجتمعت .

الإِدَاءُ الْخَطَابِيُّ إِلَّا فِي مُقْدَرَةِ الْخَطَابِ عَلَى التَّعْبِيرِ عَنْ أُفْكَارٍ تَبَيَّنَ أَمْ كَرِزَ فَإِنْ مِنْ شَأْنَ هَذَا التَّرْكِيزِ أَنْ يَضْفِي عَلَى الْأُسْلُوبِ الْخَطَابِيِّ الرِّشَاقَةَ وَالْحَرْكَةَ وَيَدِهِ بِالْحَيَاةِ وَالْقُوَّةِ ، فَيَكُونُ لَهُ أَلْعَنُ الْوَقْعِ وَأَقْوَى الْأَمْرِ فِي نَفْسِ السَّامِعِ ، وَمَا ظَفَرَ خَطَابُ الْإِغْرِيقِ الْأَشْهَرِ دِيْوَنَتِينِ بِشَهْرِهِ الْخَطَابِيَّةِ الْجَيْدَةِ ، وَيَنْفُوْقُهُ عَلَى أَفْرَانِهِ إِلَّا بِفَضْلِ بِرَاعِتِهِ الْمُجْمِيَّةِ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ أُفْكَارٍ بِالْفَهْظِ الْمُوجَزِ الْيَسِيرِ مَعَ الدَّفَّةِ فِي الْإِدَاءِ .

وَالْإِبْجَازُ مِنْ سَمَاتِ الْبِلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْأُصِيلَةِ مِنْذُ أَقْدَمَ عَصُورُهَا ، وَيَكُادُ تَعْرِيفُ الْبِلَاغَةِ يَرَادُفُ عِنْدَ بَعْضِهِمْ لَفْظَ الْإِبْجَازِ وَلَا يَعْدُوهُ . وَهَذِهِ الْمُوْهَبَةُ الَّتِي عُرِفَّ بِهَا الْعَرَبُ الْخَلْصُ وَالَّتِي هِيَ قَوْمٌ بِلَاغُتِهِمْ ، بَدَا شَأْنُهَا يَضْعُفُ مِنْذُ قَوْيِ الْخُتْلَاطِ الْعَرَبِيِّ بِالْجَمْعِ ، ذَلِكُ الْخُتْلَاطُ الَّذِي كَانَ مِنْ أَظَاهِرِ آثَارِهِ فَسَادَ السَّلَائِقَ الْبَيَانِيَّةَ وَالْلَّغُوَّةَ ، فَمَالَتِ الْعُبَاراتُ مِنْذُئَهُ إِلَى الْطَّوْلِ وَالْإِسْتِفَاضَةِ ، وَبَدَأَتِ الْجَمْلَةُ الْعَرَبِيَّةُ تَتَمَطَّى وَتَتَنَاهَبُ فَتَفَقَّدَ بِذَلِكَ رِشَاقَهَا وَحِيَوْتَهَا . أَمَّا فِي الْعَصْرِ الْأُمُوَّيِّ فَقَدْ كَانَتِ السَّلَائِقُ الْبَيَانِيَّةُ لَمْ تَرُلْ بَعْدَ بِمُنْجَاهَةِ مِنْ الْفَسَادِ لِأَسْبَابٍ كَثِيرَةٍ تَحْدَثَتْ عَنْهَا آنَفَا ، فَفَلَبِتْ سَمَةُ الْإِبْجَازِ عَلَى الْخَطَابَةِ الْأُمُوَّيَّةِ ، وَلَا سِيَّما السِّيَاسِيَّةُ مِنْهَا . فَكَانَ الْخَطَابُ الْمُجَيدُ يَكْتُفِي فِي التَّعْبِيرِ عَنْ فَكْرِهِ بِالْعُبَارةِ الْقَصِيرَةِ الْمُوجَزَةِ يَلْعَنُ بِهَا مِنْ نَفْسِ سَامِعِهِ مَا يَرِيدُ ، فَتَأْتِي لَذَلِكَ خَطَبَتِهِ رِشِيقَةً ، سَرِيعَةَ الْحَرْكَةِ ، نَابِضَةَ الْحَيَاةِ . وَلَوْ أَنَّهُ سَلَكَ غَيْرَ هَذَا الْمَسْلِكَ لَاتَّهُمْ بِالْعَيْ وَالْتَّقْصِيرِ ، وَلَكَانَ خَلِيقًا بِأَنْ يَضْيِقَ بِهِ سَامِعُوهُ ، وَيَنْصُرُوهُ عَنْهُ .

وَمِنْ مَظَاهِرِ الْإِبْجَازِ فِي التَّعْبِيرِ طَرْحُ الْفَضُولِ وَالْإِسْتِغْنَاءِ عَنْ ذَكْرِ كُلِّ مَا يُمْكِنُ فِيهِ مِنْ سِيَاقِ الْكَلَامِ وَدُمُودِ الْخَوْضِ فِي تَفَاصِيلِ الْأُمُورِ ، وَالْإِجْزَاءِ بِالْإِشَارَةِ الْعَابِرَةِ وَالْمُجَمَّعَةِ السَّرِيعَةِ ، وَتَجْنِبُ التَّرَدَادِ وَالْحَشُوِّ وَإِطْلَالِ الْجَمِيلِ . وَخَطَبَ عَتْبَةُ بْنُ أَبِي سَفِيَّانَ خَيْرَ مَا يَمْثُلُ لَنَا سَمَةُ الْإِبْجَازِ فِي الْخَطَابِ الْأُمُوَّيِّ ، وَهَذِهِ خَطَبَتِهِ لَهُ بِعْدَهُ يَحْذِرُ الْقَوْمَ فِيهَا مِنَ الْفَتْنَةِ : « أَنْهَا النَّاسُ ، إِنَّا قَدْ وَلَيْنَا هَذَا الْمَقَامَ الَّذِي يَضَعُفُ فِيهِ الْمُحْسِنُ الْأَجْرَ ، وَعَلَى الْمُسْبِيِّ فِيهِ الْوِزْرُ ، وَنَحْنُ عَلَى طَرِيقِ مَا قَصَدْنَا لَهُ . فَلَا تَمْدُوا الْأَعْنَاقَ إِلَى غَيْرِنَا ، فَإِنَّمَا تَقْطَعُ مِنْ دُونَنَا ، وَرَبُّ مُتَمَّنٍ حَتَّفَهُ فِي أَمْنِيَّتِهِ ،

فأقبلونا ما قبلنا المافية فيكم ، وقبلناها منكم . وإياكم ولوًّا ، فإن (لواً) قد
أتعيت من كان قبلكم ، وإن تربيع من بعدكم . وأنا أسأل الله أن يُعِينَ كلاً
على كُل (١) .

(د) الأسلوب العاطفي

من ميزات الأسلوب الخطابي أنه يهدف إلى إثارة مشاعر المستمعين واللاعب بعواطفهم . ومخاطبة المواطف تحتاج إلى أسلوب خاص هو ما دعوه بالأسلوب العاطفي . ومن ركائز هذا الأسلوب الاتكاء على الأسلوب الإنساني باستخدام صيغ النداء والتوجب والاستفهام والتساؤل والتنبيه والخطاب (الأمر والنهاي) ، مع ما تؤديه هذه الصيغ من معانٍ إضافية كالنحوين والقراءات والتهديد والدعاة والتهييس والتهكم والتحقير ونحو ذلك . ومن ركائز هذا الأسلوب أيضاً البراعة في استخدام الألفاظ القوية الإيحاء أو التي تؤثر في النفس بجرتها ورفتها . ومن ركائزه أيضاً الالتجوء إلى إبراد الصور المثيرة للخيال قصد التهديد أو الإغراء أو التغير أو غير ذلك . ومن ركائزه أخيراً الالتجوء إلى أسلوب التوكيد من طريق استخدام أدوات التوكيد البلاغية والقسم والتكرار . وكل أمثلك من سمات الخطابة السياسية الاممية ، مع تفاوت الخطباء في مدى براعتهم في استخدام الأسلوب العاطفي ، وهذا مقطع من خطبة زiad البتراء يمثل هذا الأسلوب : « أتكونون كمن طرَفت عينيه الدنيا ، وسدّت معاممه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ، ولا نذكرون أذركم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوه إليه ، من ترككم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله . ما هذه المواجهة المنصوبة . والضعيفة المسئولة في النهار المبهر ، والمهدّ غير قليل . ألم يكن منكم نهاية تمنع الغواة عن داجن الليل ، وغارة النهار ... وإنني أقسم بالله ، لا أخذن الولي بالولي ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمسدر ، والمطين بالعاصي ، والصحبج منكم في نفسه بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : انج سعد فقد هلك سعيد ، أو تستقيم لي قنائكم » .

والخطبة المنسوبة إلى السيدة أم كلثوم بنت علي ، والتي يقال إنها خطبت بها أهل الكوفة عقب مقتل أخيها الحسين تقاد تجاري كلاماً على هذا الأسلوب^(١) . وفي خطبة أبي حمزة بالمدينة نجد مثلاً لأسلوب التكرار : « ثم ولـي بعده ابنه يزيد ، يزيد الخور ، ويزيد الصقور ، ويزيد الفهود ، ويزيد الصيود ، ويزيد القرود ، الخ^(٢) » . والملاغيون القدامي يرون في استعمال أسلوب التوكيد تقريراً للفكرة في ذهن الخطاب ، وقد أغفلوا نفسية المتكلم ، فهي التي تدعوه أحياناً إلى استخدام أساليب التوكيد تنفيساً عن شعوره وبدافع عاطفته المتأرجحة لا مراعاة لحال المخاطبين .

(٥) التمثيل بالشعر :

جري خطباء العرب منذ العصر الجاهلي على التمثيل بالشعر في خطبهم ، وهي ظاهرة مميزة في الخطابة العربية ، ولقد أتاحت وحدة البيت في القصيدة العربية أن يختار الخطيب بيتاً أو عدة أبيات يوردها في خطبته دعماً لفكرة أتى بها أو تصويراً لحال من الأحوال . وفي أغلب الأحيان تدرج أبيات الشعر ضمن الخطبة أو في نهايتها . إلا أن الحجاج آثر أن يستهل خطبته المشهورة بالكوفة بالشعر بدلاً من استهلاكه بالبسملة والحمد . والأبيات التي أوردها الحجاج في هذه الخطبة تهدف كلاماً إلى تقديم صورة شريفة عنه تلاؤ نفوس أهل العراق ذرعاً وهلعاً . وقد ألف العرب في جاهليتهم أن يرتجزوا في مواطن التحدى والمفارقة ، ومن هنا حرص الخطباء على الارتجاز ضمن خطبهم حين يكون قصدتهم التحدى والمفارقة وإظهار ما يتعلون به من قوة وعنف وجبروت ، صنيع الحجاج في خطبته المذكورة .

وهذا التمثيل بالشعر في الخطب السياسية من شأنه أن يضفي على الخطبة طابع القوة والبداوة . وأكفر ما نجد التمثيل بالشعر في خطببني أمية وولاتهم ، وقل أن نجده في خطب المخوارج والشيعة .

(١) انظر المهرة ١٢٤/٢ .

(٢) الأغاني ١٠٦/٢٠ .

(و) السجع والتوازن

ليس السجع من الظواهر الفاشية في الخطاب السياسي الأموي ، ومن الملاحظ أنه لم يكن شائعاً في الخطابة الإسلامية وأنه كان يقع في الخطاب القصيرة التي كانت تلقى بين أيدي الخلفاء الراشدين . وكذلك الأمر في عصر بنى أمية فإننا نجد السجع قليلاً في الخطاب السياسية الخالصة ، إلا خطب المختار الثقفي ، فإنه جرى فيها على السجع لدوع خاصة .

والأسباب التي حملت الخطباء في هذا العصر على تجنب السجع هي عين الأسباب التي دعت خطباء مصر الإسلامي إلى تجنبه ، والحياة الحضرية المقدمة المتکلفة في مصر العباسى هي التي أوجبت شیوع السجع في النثر العباسى وتكلفه ، إذ أن كل أسلوب أدبي يمثل عصره .

وفي مصر الأموي كان السجع يقع غالباً في قصار الخطاب وفي الكلام الذي يقال في المحافل السياسية ، وفي العقد الفريد أن معاوية لما طلب إلى ابن الزبير رأيه في تولية يزيد الخليفة قال : « يا أمير المؤمنين ، إني أناذيك ولا أناجييك ، إن أخاك من صدقك ، فانتظر قبل أن تقدم ، وتفكر قبل أن تندم ، فإن النظر قبل التقدم ، والتفكير قبل التندم ». فضحك معاوية وأجابه : « ثعلب روانغ تعلمَ السجع عند الكبير » ، في دون ما سجحه على ابن أخيك ما يكفيك^(١) . وكذلك إذا تبعنا الخطيب التي كانت تقال في مجالس الخلفاء والأمراء نجد أكثرها يشتمل على السجع ، وذلك كخطبة عبيد الله بن زياد التي ألقاها بين يدي معاوية بعد موته أبيه والتي قال في مستهلها : « أَحْمَدَ اللَّهُ عَلَى الْآلاءِ ، وَأَسْتَعِنُهُ عَلَى الْلَاوَاءِ ، وَأَسْتَهِدُهُ مِنْ عَمَى مجْهُدٍ ، وأَسْتَعِنُهُ عَلَى عَدُوِّ مَرْصَدِ الْخَلْقِ^(٢) .. والخطبة كلها مسجوعة على هذا النمط .

وخرับ آخر من الخطاب السياسية كان يقع فيه السجع هو المذاخرات السياسية . ويبدو أن الخطباء كانوا يهدون من تمام الفصاحة ، عند ظاهر البلاء ، الإثبات

(١) العقد الفريد ٤/٣٦٨ .

(٢) العقد الفريد ٤/٨٣ .

بالسجع الذي يضفي على كلام المتناظرين رونقاً وطلاؤة ، وينطق ببراعة المتكلم . وربما كان مرد هذا أيضاً إلى صور المفاخرات الجاهلية القدحية التي كان السجع ملزماً فيها . أما الخطب السياسية الخالصة فلم يقع فيها السجع إلا في النادر ، ولم يكن الخطباء يطّلبوه لذاته ، وإنما كان اللفظ عندهم خادماً المعنى . نجد بعضاً منه مثلاً في خطبة أبي حمزة بالمدينة ، كقوله منها يتحدث عن معاوية : « واتخذ عباد الله خولاً ، ومال الله دولاً » ، وبنى دينه عوجاً ودغلاً^(١) . وأكثر ما نجد هذا السجع في قصار الخطب ، كخطبة يزيد بن المهلب يستنفر أهل العراق لقتال أهل الشام^(٢) .

أما السجع في خطب المختار الثقي في فرده إلى ما كان يدعوه من الكراهة والاطلاع على الغيب ، فكان لذلك يعتمد محاكاة سجع الكواكب والمتباين ليحيط شخصه وكلامه بهالة من القداسة الدينية . وقد ذكر المبرد أن المختار كان يدعى أنه يلهم ضرباً من السجدة لأمور تكون ثم بحثاً في وقها فيقول للناس : « هذا من عند الله عز وجل^(٣) » . ومن سجده قوله ، وقد بلغه أن جماعة ارتابوا في كونه مبعوث ابن الحنفية وقد توجروا إليه ليتحققوا الأمر : « إن نفيراً منكم ارتابوا ، وتحيروا وخاروا ، فإنهم أصابوا ، أقبلوا وأفابوا » وإن هم كبروا وهابوا ، واعترضوا وانجروا ، فقد ثيروا وحابوا^(٤) .

وربما وقع التوارن في خطب الأمويين السياسية ، ولكنه كالسجع لم يكن ملزماً ولا مطلوباً لذاته ، والأسلوب المرسل القصير الفقرات هو الطابع الفالب على الخطابة الأموية عامة .

(١) الخول : العبيد . الدغل : الفساد .

(٢) انظرها في البيان والتبيين ١/٤١٠ .

(٣) الكامل ٢/٦٤ .

(٤) الطبرى ٤/٤٩٣ . أقاب الرجل إلى الله : رجم إيسه بالتوبة : انجابوا : أي انشقوا هنا . ثروا : هلكوا . حابوا : أثروا .

(ذ) الأثر الإسلامي

ما كاد الإسلام يسط ظله على الأمة العربية، وما كاد القرآن الكريم يتل على أسماع العرب، حتى كان النثر العربي يستجيب مسرعاً لهذين المؤثرين الجديدين وبخضم لها. وسرعان ما ظهرت فيه سمات وطوابع مستحدثة لم يعرفها النثر الجاهلي، وسرعان ما اكتسب النثر الإسلامي، والخطابة منه بنوع خاص، طابعاً إسلامياً واضحاً للقسام.

وقد بُرِزَ هذا الطابع قوياً واضحاً في الخطابة الأموية. وكان من أول مظاهره انسام هذه الخطابة بروح إسلامية تتجلى في جميع خروبها وألوانها. وتتجلى هذه الروح في الخطابة السياسية في خطب الأحزاب السياسية على اختلاف منازعها واتجاهاتها، وسبب ذلك ما ذكرته قبل من شدة ارتباط السياسة بالدين في هذا مصر، وادعاء كل فرقه أن هدفها نصرة الدين وإعلاء كلامه. ومن هنا كانت الخطاب السياسية في هذا مصر مزدحمة بالأفكار الإسلامية والمعاني القرآنية.

ومن هذه المظاهر أيضاً استهلال الخطاب بحمد الله وتحمده، فإن خلت من ذلك كانت «بتراء»، وتشبيحها بآيات قرآنية وتربيتها بالصلة على النبي وإلا كانت «شوهاه»^(١)، وقد ذكر بعضهم أن خطبة زياد المشهورة بالبصرة إنما قيل لها بتراء لخلوها من حمد الله والصلة على النبي^(٢).

ومن الحق أن كثيراً من الخصائص الفنية التي تجلت في الخطابة الأموية مصدرها القرآن الكريم، وقد أوثق القرآن سلطاناً مزدوجاً: الأول باعتباره كتاباً دينياً شرع المسلمين أحکام دينهم. والثاني باعتباره آثراً أدبياً أعجز الفصحاء بروعة بيانه وبلاغة نظمه. ولذلك كان المذابون يحرصون أول ما يحرضون على أن يجعلوا كتاب الله مادة مقافهم الأولى. ولم يكن بوسع أي خطيب أن يدرك منزلة مرموقة في الخطابة إذا لم يكن مزوداً بالثقافة القرآنية، فقد أصبح القرآن المنهل الثر الذي يرده الخطباء والكتاب والشعراء ثم لا يلبث أن ينعكس صدأه في آثارهم وإنما جهم الأدبي.

(١) البيان والتبيين ٦/٢.

(٢) البيان والتبيين ٦٢/٢. وسأؤود إلى موضوع بتراء في الفصل الخاص بزياد بن أبيه.

والتأثر القرآني كانت له صور شق منها :

١ - أن تشتمل الخطبة على آية أو أكثر من القرآن، تأييداً لفكرة أو تمثيلاً لحال من الالاحوال، كقول الحجاج من خطبة له يخاطب أهل الشام : « بل أنت يا أهل الشام كما قال الله سبحانه : » ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المتصوروون ، وإن جئننا لهم الغالبون^(١) ». ولصعب بن الزبير خطبة قالها حين قدم البصرة واليابا عليها ، وليس في هذه الخطبة إلا آيات قرآنية من أول سورة القصص مثل بها مصعب حال كل من أهل الشام والحجاج وال العراق فقال : « بسم الله الرحمن الرحيم . طسم . تلك آيات الكتاب المبين . نتلنُ عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق » لقوم يؤمدون . إن « فرعون علا في الأرض وجمل أهلها شيئاً يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحبّي إساءتهم . إنه كان من المفسدين — وأشار بيده نحو الشام — وزيرد أن نَسْعُنْ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم آلةً ونجعلهم الوارثين . — وأشار بيده نحو الحجاز — ونَسْكُنْ لهم في الأرض ، ونُرِي فرعون وهامان وجنودها منهم ما كانوا يحذرون . — وأشار بيده نحو العراق^(٢) » .

٢ - ومن صور التأثر القرآني الاقتباس ، أي تضمين الخطبة شيئاً من القرآن على وجه لا يشعر بأنه منه ، وكأنه جزء من كلام الخطيب . كقول سليمان بن صرد في ختام خطبة له يحرض بها الشيعة على الأخذ بشار الحسين : « ... اشحذوا السيف ، وركبوا الأسنة ، (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) حتى تدعوا وتنشقنفروا^(٣) » .

٣ - ومن صوره الاستمداد من المعاني والقصص والأخبار القرآنية ، كقول الحجاج في خطبته التي قالها حين أرجف الناس بعوته : « وما رأيت الله عزّ وجلّ

(١) شرح ابن أبي الحديد ١١٥/١ .

(٢) البيان والبيان ٢٩٩/٢ .

(٣) الطبرى ٤/٤٢٨ .

كتبَ الخلودَ لأحدٍ من خلقه إلّا لآهونهم عليه : إيليس^(١) ، وأكثر ما نجد المانع القرآنية في خطب الخوارج .

٤ - ومن ألوان هذا التأثير أيضاً اقتباس الصور القرآنية ، وقد جاء القرآن بطائفة كبيرة من الصور المبتكرة ألغت الخيال الغربي ووسعت من آفاقه . وقد تداول الأدباء هذه الصور ولو نوا بها إنتاجهم الأدبي . ومن هذه الصور مثلاً ما جاء في خطبة لأبي حمزة يخاطب بها أهل المدينة : « تحملون قلوبًا في صدوركم كالمجارة أو أشد قسوة من المجارة ، أو لم تلنْ لكتاب الله الذي لو أُنزل على جبل لرأيته خائضاً متصدعاً من خشية الله »^(٢) . ومنها ما جاء في خطبة لعتبة بن أبي سفيان يعنف بها أهل مصر : « يا أهل مصر : خفت على أستكم مدح الحق ولا تغلو فيه وذم الباطل وأنت تأتونه ، كالحار يحمل أسفاراً أثقله حملها ، ولم ينفعه علمها »^(٣) .

٥ - ومحاكاة أسلوب القرآن مظاهر آخر من مظاهر التأثر القرآني ، فقد بلغ من إعجاب الأدباء بهذا الأسلوب أن نهجوا نهجه في بعض عباراتهم وتوخوا محاكاة الفاظه وتماييره وطريقة أدائه ، وربما جعلوا كلامهم على نظام الفواصيل إمعاناً في هذه المحاكاة ، نجد هذا مثلاً في ختام خطبة لصالح بن مسرح يخاطب بها الخوارج فهو يقول : « ألا فيبعوا الله أنفسكم طائفين وأموالكم ، تدخلوا الجنة آمنين ، وتقاتلوا الحور العين ، جعلنا الله وإياكم من الشاكرين الذين يهدون بالحق وبه يعدلون »^(٤) . ، ونجد مثلاً لمحاكاة القرآني أيضاً في خطبة الحجاج بعد وقعة دبر الحجاج إذ يقول فيها : « ثم يوم الزاوية ، وما يوم الزاوية ٠٠٠ ثم

(١) العقد الفريد ٤/٤٢٣ .

(٢) الأغاني ٢٠/٦٠ والتشبيه محاكاة لقوله تعالى : « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالمجارة أو أشد قسوة » (البقرة آية ٦٩) وختام العبارة مقتبس من قوله تعالى : « لو أُنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خائضاً متصدعاً من خشية الله » (الحشر آية ٤١) .

(٣) العقد الفريد ٤/٤٠١ . والصورة مقتبسة من قوله تعالى : « مثل الذين حلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً » (الجنة آية ٠٠) .

(٤) الخطبة في العقد ٤/٤٢٥ .

يُوْمَ دِيرِ الْجَاجِمْ ، وَمَا يُوْمَ دِيرِ الْجَاجِمْ . . وَذَلِكَ مُحاكَاه لِقَوْلِهِ تَعَالَى : « الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ » .

فَكَذَلِكَ نَجِدُ مِنْ أَنْوَانِ النَّاثِرِ الْقَرَآنِيِّ وَمَظَاهِرِهِ مَا يَحْمِلُنَا عَلَى القَوْلِ بِأَنَّ الْخَطَابَةَ الْأَمْوَيَّةَ مَدِينَةً إِلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِنَصِيبِ وَافِ مَا أَصَابَهُ مِنْ ارْتِقاءٍ وَازْدَهَارٍ وَغَنِّيَ فِي عَصْرِهَا الْذَّهِيِّ هَذَا .

(ح) أَسْلُوبُ التَّمثِيلِ وَالْمُوازِنَةِ

كَانَ الْخَطَابَاءُ السِّيَاسِيُّونَ فِي الْعَصْرِ الْأَمْوَيِّ رَبِّا لَحُؤُوا إِلَى أَسْلُوبِ التَّمثِيلِ وَمُوازِنَةِ حَالَةٍ بَخَالَةٍ أُخْرَى لِيَكُونُ كَلَامُهُمْ أَوْقَعَ فِي النَّفْسِ وَأَبْلَغَ ، وَهُمْ يَسْتَمِدُونَ هَذِهِ الْأَمْثَالَ فِي الْغَالِبِ مِنْ أَمْثَالِ الْعَرَبِ الْمَنْدَاوَةِ أَوْ مِنْ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ . فِي خَطَابَةِ الْمَعْمَانِ بْنِ بَشِيرِ الْكُوفَةِ نَجِدُهُ يَسْتَعِينُ بِقَصَّةِ اخْتِصَامِ الْضَّبْعِ وَالثَّمَلَبِ إِلَى الضَّبْعِ لِيَصُورَ حَالَهُ وَحَالَ أَهْلِ الْكُوفَةِ^(١) . وَحِينَ أَبَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ قَبْولَ عَطَاءِ عَبْدِ الْمَلِكِ لِأَنَّهُ أَعْطَاهُمْ مِنَ الصَّدَقَاتِ لَا مِنْ أَفْوَهِهِ . قَالَ فِيهِمْ خَطَابَةٌ مُمْثَلٌ فِيهَا حَالُهُ وَحَالُ قَرِيشٍ بِقَصَّةِ الرِّجَلَيْنِ وَالْحَبَّةِ الَّتِي تَأْتِي بِالدَّنَافِيرِ^(٢) . وَلَا أَرَادَ خَالِدُ الْقَسْرِيِّ شَتَّمَ الْحِجَاجَ تَلْبِيَّةً لِرُغْبَةِ سَلَيْمانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ جَاءَ بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فَقَالَ : « إِنَّ إِبْلِيسَ كَانَ مَلَكَكَّاً مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَكَانَ يَظْهُرُ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ مَا كَانَتِ الْمَلَائِكَةُ تَرَى بِهِ فَضْلًاً » . وَكَانَ اللَّهُ قَدْ عَلِمَ مِنْ غَشِّهِ وَخَبِيَّهِ مَا خَفِيَ عَلَى مَلَائِكَتِهِ . فَلَمَّا أَرَادَ اللَّهُ فَضْيَحَتِهِ بِإِبْلِيسِ الْمَسْجُودِ لَآدَمَ ، فَظَاهَرَ لَهُمْ مَا كَانُ يَخْفِيَهُ عَنْهُمْ ، فَلَعِنُوهُ . وَإِنَّ الْحِجَاجَ كَانَ يُظْهُرُ مِنْ طَاعَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَا كَنَّا نَرَى لَهُ بِهِ فَضْلًاً ، وَكَانَ اللَّهُ قَدْ أَطْلَعَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ غَشِّهِ وَخَبِيَّهِ عَلَى مَا خَفِيَ عَنَّا ، فَلَمَّا أَرَادَ فَضْيَحَتِهِ أَجْرِيَ ذَلِكَ عَلَى يَدِيِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَالْعُنُوهُ لِهِ اللَّهُ . . وَنَجِدُهُ أَسْلُوبُهُ أَيْضًا فِي خَطَابَةِ الْحِجَاجِ قَالُوهُ بَعْدَ مُقْتَلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّبِيرِ ، وَشَبَهَ حَالَهُ بِحَالِ آدَمَ حِينَ عَصَى رَبِّهِ وَأَخْرَجَهُ مِنْ جَنَّتِهِ^(٣) .

(١) سروج الذهب ١٢٩/٢ (البيهقي).

(٢) العقد الفريد ١٣٥/٤ .

(٣) سرح العيون لابن بناته ص ١١٢ .

(ط) الأسلوب التصوّري

الخطيب الماهر يدرك أن من أنسجم السبيل للإثارة شعور المخاطبين والتلاءب بعواطفهم اتباع الأسلوب التصويري في التعبير عن أفكاره ومعانيه . ومن المؤكد أن الصورة الخيالية تفعل في النفس مالا يفعله أداء الفكر أداء حقيقةً مباشراً . وهذه الحقيقة الفنية أدرَّ كُلَّها الخطباء الممتازون ففسحوا للتعبيرخيالي مكاناً رحباً في خطتهم ، واستعنوا بالصور في أداء معانيهم . وها هو ذا عتبة بن أبي سفيان يلتجأ إلى الأسلوب التصويري في مخاطبة أهل مصر فيقول : « يا أهل مصر ، قد طالست معاشرتنا إياكم بأطراف الرماح وظباط السيف ، حتى صرنا شجى في لَهْوَانِكُم ، ما نسيغه حلوة لكم ، وأقداء في أعينكم ما تطير عليها جفونكم » (١) . وهذه صورة الموت يأتي بها ابن الزبير في خطبة له : « أئها الناس ، إن الموت قد تفشاكم ممحابه ، وأحدق بهم رباه ، واجتمع بعد تفرق ، وارجحن بعد تمشق ، ورجس نحوكم رعده ، وهو مفرغ عليكم ودقه (٢) . وأربع خطباء السياسة في عصر بيأمية اصطناعاً للأسلوب التصويري الحجاج ، وهو يعتمد الإتيان بالصور الخفيفة لارهاباً لمعارضيه ، ولا ريب أن مسامعيه قد أخذهم الرعب وهم يسمعونه بشبه رؤوفتهم بالهار اليائنة التي حان قطافها — في خطبته المشهورة بالكوفة — وفي هذه الصورة ما فيها من السخرية بالمعارضين والاستخفاف بأمرهم . وقد شبه نفسه في هذه الخطبة بالسموم القوي قد اختاره الخليفة بين سهام كثيرة تختلي بها كذاذته ليرمي بها اعدائهم ، وخطبته هذه مزدحمة بالصور والأخيلة وأكثرها مستمد من البيئة البدوية .

(٤) حرارة الأسلوب وعئنه

يُقسّم أسلوب الخطابة السياسية في هذا العصر – على وجه الإجمال – بالحرارة والحياة والعنف والقوة والتوفّر المُصيّ ، ويصور في سماته هذه اندفاع العاطفة وقوّة الشعور ، ويعكس طبيعة العربي الفضوب السريعة الافتخار والتأنّ ، وهو قل أن

(١) المقد الفريد ٤/١٣٨ .

(٢) العقد الفريد ٤١٨ . ارجعن : اجتماع وفشل . التمشق : التمزق والتفرق .
رجس : رعد شديداً . الودق : المطر .

يتجه إلى العقل أو يخاطب الفكر ، فهو ليس من قبيل الأسلوب المنطقي المحدى ، الذي يتوجه إقناع المخاطب من طريق الحجة والدليل المقلبي ، وإنما هو أسلوب عاطفي ملتبس يتوجه قبل كل شيء التأثير الوجداني والاستهلاك العاطفية .

* * *

تلسمك هي أبرز السمات الفنية المشتركة في الخطابة السياسية الأممية ، وينبغي أن أشير هنا إلى تفاوت أسلوب الخطاب السياسي بتفاوت أقسامها من ناحية ، وبتفاوت منازع الخطباء وأشخاصهم وبيئاتهم من جهة أخرى . فأسلوب خطباء الشيعة مختلف مثلاً عن أسلوب خطباء الخوارج ، وأسلوب الحجاج يفارق أسلوب زياد . وفي خطب الخوارج تمثل قوة الأسلوب أكثر منها في أساليب الأحزاب الأخرى ، بالإضافة إلى بروز الأثر الإسلامي والطابع البدوي في خطبهم ، ذلك لأن جل خطباء الخوارج قد جمعوا بين التأثير العنفي بالثقافة الدينية القرآنية وبين النشأة البدوية .

ومن وجوه الخلاف بين أقسام الخطابة السياسية غلبة الطابع الجدي على أسلوب المناظرات السياسية . وفي الخطاب الحرية نلاحظ شدوع الفاظ وتباير خاصة ، فكان القائد كثيراً ما يخاطب جنده بقوله : « ياشرطة الله » . وإذا أراد التهوي من شأن الأعداء وتصوير قلة عددهم قال إنما هم « أكلة رأس » . وربما أهاب القائد بجنده أن « يعيروه جماجهم ساعةً من نهار » ، وهو تعبير طريف كان يحمل المقاتلين على الابتسام على رغم عبوس المعركة ، لما ينطوي عليه من المفارقة في جعل الجماج تستuar ، وكأنها قدر أو مواعين ^(١) .

٤ - منزلة الخطابة السياسية في عصر بنى أمية

لعبت الخطابة السياسية دوراً خطيراً في عصر بنى أمية يسوع ما حظيت به من منزلة عظيمة في هذا العصر . ولا غرو فقد وجدنا أنها كانت من أمضى الأسلحة

(١) انظر مثلاً الطبرى ٤٨٢/٤

اتي استخدمتها الفرق السياسية المتنازعه ، وقد استطاع الولاة المعروفوون بفضاحتهم أن يرموا القوم بلسانهم كما راضوهم بمحاسيمهم ، صنيع عتبة بن أبي سفيان بأهل مصر ، وزياد والحجاج بأهل العراق . ولهذا كان الخلفاء يحرسون على أن يكون عمامتهم وولاتهم من الخطباء المفوهين ، وكانت البراعة الخطابية من مؤهلات الرجل لتولي منصب الإمارة .

وكان لبعض الخطب الحربية فعل السحر في الغزاة ودفعهم إلى الاستماتة في مواجهة العدو ، شأن خطب قتيبة في فتوح ما وراء النهر ، وخطبة طارق حين فتح الأندلس . وقد وجدنا قادة الجيوش يستعينون بالقصاص ويحرسون على اصطحاب عدد منهم كلما توجهوا للقتال ، لما كان لهم من الشأن في إدراك المزاعم وإهاب حماسة المقاتلين .

وكان الخطيب الماهر ربما صور الأمور على غير حقيقتها فيصدقها سامعوه بفضل مهاراته البيانية وذلاقة لسانه وقوه حجته . وقد روي عن مالك بن دينار قوله : « ما رأيت أحداً أبين من الحجاج ، إن كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق ، وصفحه عنهم ، وإساءتهم إليه ، حتى أقول في نفسي : لأحسبه صادقاً ، وإنني لأظنه ظالماً له (١) ». وكان خطباء الخوارج من أقدر خطباء الفرق السياسية على الجدل ، وأبينهم لساناً ، وأقواهم حجة . وكان لكلامهم وخطبهم أبلغ الواقع في النقوص . وقد وصف مالك بن أنس خطبة أبي حمزة بالمدينة بأنها شكت المستبصر وردت المُرتاب (٢) ، وروى المبرد أن عبد الملك بن مروان أتى بأحد الخوارج فسأله عن مذهبـه فجعل يسطـ له من قول الخوارج ويزينـ له من مذهبـهم بلسان طلق ، وألفاظ بيته ، ومعان قريـة . فقال عبد الملك ، لقد كـد يـقع في خاطـري أـن الجـنة خـلقت لـهم ، وـأـنـي أـولـي بـالـجـهـاد مـنـهـم ، ثمـ أمرـ

(١) البيان والتبيين ٢٦٨/٢ .

(٢) العقد الفريد ٤/٤ .

بسجنه بعد ذلك وقال له : « لولا أن دُفِنْت بألفاظك أكثرَ رعيتي ما جسستك ». وقد سوغ عبد الملك مسلكه هذا بقوله : « من شَكَّني ووهَنَّي حتى مالت بي عصمه » الله فغيره يصد أن يستهوي من بعدي ^(١) . وقد كان الخطباء السياسيون قادرين حقاً على الاستهواء وعلى استهلاك الناس إلى مذاهبهم بفضل براعتهم البينية ، ولم يكن مقدراً لأية دعوة أن تلقى التأييد والنجاح إذا لم يضطلم بآمرها خطباء مصاقع يدعون إليها ويستميلون الناس إلى نصرتها .



٤

الصنعة والأداء في الخطابة الأموية

أولاً : الصنعة في الخطابة الأموية ومظاهرها

إن المزلاة الفنية الراقية التي بلغتها الخطابة في العصر الأموي لتتبىء بأن كثورتها كانت ثمرة الجهد الطويل والصنعة الفنية ، ولديت وليدة المفوية والارتفاع . ومن الحق أن الخطاب الأموية الممتازة لم يكن ليتاح لها أن تبلغ ما يبلغه من الجودة الفنية ، وأن يكون لها ذلك النقاد وقوة التأثير في نفوس المخاطبين لو لا ما كان يبذله الخطباء من جهد في تحبير خطفهم وتزويدها وتنميقتها . ولئن كنا نذكر على الجاهلين ابتداء الخطيب لما فعله من افتقار كل عمل في متقد إلى الجهد والعناء ، لنجعل بإمكاننا هذا الابتداء على الخطباء الأمويين أحدر وأحق . وحسبنا أن ندقق النظر في هذا التراث الخطابي الذي خلفه لنا العصر الأموي لندرك بيسر أن جله لم يصدر عن قائله عفو البديهة ، وإنما أخذ بالتشقيق والتحكيم ومعاودة النظر حتى يكون قمينا بإرضاء الذوق الفني ويحظى بإعجاب المخاطبين ويستهوي أولادتهم .

وبين أيدينا أدلة وفرة من أقوال الخطباء والنقاد تؤيد ما ذهبنا إليه ، من ذلك ما روي للبيهقي من قوله : «إني والله ما أرسل الكلام قضيبياً خشيناً وما أريد أن أخطب يوم الحفل إلا بالبائت المحكك» .^(١) ، ولما أراد الخوارج عبد الله بن وهب الرامي على الكلام يوم جعلوا له الرئاسة قال : «وما أنا والرأي الفطير ، والكلام القاصي»^(٢) . وكان خوف الخطباء من أن يعتريهم الحسر والرجح حين يمتهلون منابر الخطابة من دواعي عنائهم أيضاً بتحبير خطفهم وتزويدها قبل إلقائها ،

(١) البيان والتبيين ٢٠٤/١ .

(٢) المصدر السابق ٢٠٥/١ .

وقد كان أربع الخطباء وأفصحهم معرضين لامن يغلق عليهم باب القول حين يقصدون للخطابة ارتجاعاً وابتداءها .

وحين يتحدث الباحث عن الدوافع التي كانت تحمل الخطباء الممتازين في هذا العصر على توخي التجبيـر والتزويـر والتجويـد الفـني ينبغي له ألا يغفل ما يخص منها الجـاهـير التي توجه إلـيـها الخطـاب . وما لا ريب فيه أن رقي فـن الخطـابة مقتـنـة بـنـمـو الإـحـسـاس الـأـدـبـي والـذـوقـي الـفـنـي في هـذـه الجـاهـير . وقد كانت الجـاهـاتـ التي توجه إلـيـها الخطـاب في عـصـرـ بـنـيـ أـمـيـةـ عـلـىـ حـظـ وـافـرـ مـنـ هـذـيـ الـأـمـرـيـنـ ، ومنـ هـنـاـ كانـ لـهـاـ مـشـارـكـةـ قـوـيـةـ فيـ تـوجـيهـ الحـيـاةـ الـأـدـبـيـةـ عـامـةـ فيـ هـذـهـ العـصـرـ ، إـذـ كـانـتـ تـقـبـلـ عـلـىـ سـمـاعـ الشـعـرـ الجـيدـ وـالـخـطـبـ الـمـتـازـةـ وـكـانـتـ تـصـدـرـ أحـكـامـاـ الـنـقـدـيـةـ طـلـىـ الشـعـراءـ وـالـخـطـباءـ وـتـوازنـ بـيـنـ الشـعـراءـ الـمـتـازـينـ حـتـىـ كـانـ أـمـرـ هـذـهـ الـمـواـزـنـاتـ رـبـماـ شـفـلـ الـقـومـ وـهـمـ فيـ سـاحـةـ الـمـعرـكـةـ يـقـتـلـونـ ، فـكـانـ الـخـوارـجـ وـالـمـسـلـمـونـ يـتـوـاقـفـونـ فيـ حـرـبـ الـمـلـبـ وـقـطـرـيـ لـيـتـسـأـلـوـاـ عـنـ جـرـرـ وـالـفـرـزـدقـ وـأـيـهـاـ أـشـعـرـ (١)ـ . وـلـمـ يـكـنـ يـقـدـ مجلسـ منـ الـجـاهـالـ إـلـاـ وـيـدـورـ الـحـدـيـثـ فـيـ عـنـ الـمـواـزـنـةـ بـيـنـ الـفـحـولـ الـثـلـاثـةـ :ـ جـرـرـ وـالـفـرـزـدقـ وـالـأـخـطلـ .ـ فـالـحـقـ أـنـ الـجـهـورـ فـيـ الـعـصـرـ الـأـمـوـيـ لمـ يـكـنـ جـمـهـورـاـ ذـوـاـقـاـ لـلـأـدـبـ وـنـقـادـاـ خـيـبـ ،ـ وـإـنـماـ كـانـ مـنـ الـجـاهـيرـ الـتـيـ يـصـرـ لـأـرـضـاؤـهـاـ فـيـنـيـاـ ،ـ فـكـانـ لـذـلـكـ كـثـيرـاـ مـاـ يـقـسـوـ فـيـ أحـكـامـهـ عـلـىـ الشـعـراءـ وـالـخـطـباءـ .ـ وـهـذـاـ عـمـرـانـ بـنـ حـطـانـ يـحـدـثـنـاـ عـنـ نـفـسـهـ فـيـذـكـرـ لـنـاـ أـنـ خـطـبـتـهـ الـمـتـازـةـ الـتـيـ أـلـقاـهـاـ فـيـ مجلسـ زـيـادـ لـمـ تـرضـ بـعـضـ مـنـ سـمـهـاـ خـلـوـهـاـ مـنـ الـقـرـآنـ (٢)ـ .ـ وـلـاـ أـدـلـ عـلـىـ تـقـدـيرـ الـخـطـباءـ الـأـمـوـيـنـ لـلـجـاهـيرـ مـنـ كـثـرةـ تـعـرـضـهـمـ لـلـحـصـرـ عـنـدـ الـخـطـابـةـ وـتـهـيـبـهـمـ اـعـتـلـاءـ الـمـنـابرـ تـهـيـباـ شـدـيدـاـ حـدـثـنـاـ عـنـهـ طـائـفةـ مـنـ أـلـمـعـ خـطـبـائـهـمـ .ـ فـقـدـ روـيـ عـنـ الـكـيـمـ قـوـلـهـ :ـ «ـ إـنـ لـلـخـطـبـةـ صـدـاءـ ،ـ وـهـيـ عـلـىـ ذـيـ اللـبـ أـرـمـيـ (٣)ـ .ـ وـكـانـ زـيـادـ يـرـىـ أـنـ اـعـتـلـاءـ أـعـوـادـ الـمـنـابرـ مـاـ يـفـسـدـ عـلـىـ الـأـمـرـاءـ .ـ

(١) شـرـحـ اـبـنـ أـبـيـ الـحـدـيـدـ ٣٩٢/١ـ .ـ

(٢) الـبـيـانـ وـالـتـبـيـنـ ١١٨/١ـ .ـ

(٣) الـمـصـدـرـ السـابـقـ ١٣٤/١ـ .ـ وـالـصـدـاءـ :ـ الـشـفـةـ .ـ

اغتنى طها بعيشها^(١) . ، وقال ابنه عبد الله بن زياد ، وهو من كانت القلوب تهلهل لرأه : « نعم الشيء الإمارة لولا فعمةُ اليرد ، والتشرين لخطب^(٢) ». حتى عبد الملك بن مروان لم ينفع من رعشة المنابر ، فقد قال له بعضهم : « بعجل عليك الشيب يا أمير المؤمنين » . فأجاب : « وكيف لا يتعجل على وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة مرة أو مرتين^(٣) » .

فقد توافر للجمهور عصر قد قسط واف من الإحساس الأدبي والروح النقدية والمعرفة بأسرار البلاغة القولية جعل الخطباء يتبعون إقامه وتقديرهم الرعشة حينما يخطبون أمامه ، وربما اعتزام الحصر وارتجاع عليهم ، وربما تصيب العرق منهم الشدة اضطرابهم ، فلا غرو أن نجدهم يعنون بتروير الكلام وتحييره وتوخي إجادته ليكون قميئاً بإرضاء هذا الجمهور الذواق النقاد ، ولا غرو أن نجدهم يحفلون في خطبهم بالصنعة وتزويق الكلام ليتاح لهم التأثير في جمهورهم وأسمائه إليهم .

ومن أدلة عنابة الخطباء بتحيير خطبهم وإعدادها هذا الكلام الكبير الذي نجده في البيان والتبيين وقد الفثر والصناعتين وغيرها من الكتب التي عنيت بفن القول عن ضرورة تنقيح الخطاب وتهذيبها . وهذه الاقوال لا تتطبق على المصر العباسي وحده ، وهو المصر الذي ألفت فيه هذه الكتب ، بل تتطبق كذلك على المصر الأموي ، لأن هؤلاء النقاد استمدوا خطبهم وتوجيههم من آثار أعلام الخطباء في المتصريين وطريقتهم في الخطابة . وقد شجع الجاحظ في البيان والتبيين ذوي الموهبة الخطابية على خوض غمار هذا الفن وبلغه أسمى مراداته ، ولكنه أوصاهم بمحاجنته الارتفاع واقتضاب الكلام ، كما أوصاهم بالتريث في عرض إنتاجهم الأدبي على الناس ليتأكدوا أولاً من إعجاب النقاد به ورضاهم عنه . وما قاله في هذا الصدد : « فإن أردت أن تتكلف هذه الصناعة ، وتنسب إلى هذا الأدب ، فقرضت قصيدة ،

(١) ابن عساكر ٤٦/٥ .

(٢) البيان والتبيين ١٣٤/١ . والتشرين : التبيؤ .

(٣) المصدر السابق .

أو حبرت خطبة ، أو ألفت رسالة . فإنك أن تدعوك هنفتك بنفسك ، أو يدعوك عجبك بثمرة عقلك إلى أن تتعجله وتدعيه ، ولكن اعرضه على العلامة في عرض رسائل أو أشعار أو خطب . فإن رأيت الأسماع تصفي له ، والعيون تتجدج إليه ، ورأيت من يطالبه ويستحسنـه ، فاتتعجله ^(١) ، على أن أبا عثمان إن دعا إلى التهذيب والتقييم ، فهو لا يدعو إلى الإسراف فيها ، وهو يوصي بمحاجنته التكاليف الذي يفسد الكلام ويذهب برؤقه ، ويدعو إلى القصد والاعتلال ، فالقصد في ذلك أن تتجنب السوق والوحشى ، ولا تتجهـل همك في تهذيب الألفاظ ، وشغلـك في التخلص إلى غرائب المعانـى ، وفي الاقتصاد بلاغـ ، وفي التوسط محاجنة للوعورة ^(٢) .

ولاحـفالـ القوم بالخطابة وعـنايـتهم بـلـجاجـتها كـثـرـ كذلكـ حدـيثـ النـقـادـ عنـ الـبـلـاغـةـ وـشـرـوطـهاـ ، وـماـ قـيلـ فيـ تـعـرـيفـهاـ ، وـلمـ يـكـتـفـواـ بـأـنـ يـسـوقـواـ كـلـامـ فـصـحـاءـ الـمـرـبـ فيـ هـذـاـ الصـدـدـ بلـ أـورـدـواـ أـيـضاـ أـقوـالـ فـصـحـاءـ الـهـنـدـ وـالـوـرـومـ وـالـفـرـسـ وـغـيرـهـ . وـحـينـ غـدتـ الفـصـاحـةـ الـخـطـابـيةـ رـكـنـاـ مـنـ أـرـكـانـ الـجـدـلـ الـكـلـامـيـ أـخـذـ الـمـتـكـلـمـونـ يـعنـونـ بـتـعـلـيمـ أـقـاعـهـمـ أـصـوـلـ الـخـطـابـةـ وـطـرـقـ الـإـقـنـاعـ وـالـجـدـلـ . وـقـدـ ظـهـرـتـ هـذـهـ الـعـنـاـيـةـ بـأـجـلـىـ صـورـهـاـ فـيـ الـمـصـرـ الـعـبـاسـيـ الـذـيـ اـزـدـهـرـ فـيـ عـلـمـ الـكـلـامـ ، وـفـيـ أـوـسـاطـ الـمـهـنـزـةـ اـشـتـهـرـتـ صـحـيـفةـ بـشـرـ بـنـ الـمـعـتـمـرـ الـتـيـ اـقـنـعـ فـتـيـانـ الـمـعـتـلـةـ أـصـوـلـ الـخـطـابـةـ وـأـسـالـيـبـ الـجـدـلـ وـالـإـقـنـاعـ ^(٣) . وـمـنـ الـمـؤـكـدـ أـنـ عـنـاـيـةـ الـمـتـكـلـمـينـ بـالـصـنـعـةـ وـتـرـزـيـرـ الـكـلـامـ تـفـوـقـ عـنـاـيـةـ سـائـرـ الـخـطـابـاءـ ، لـأـنـهـمـ مـاـ كـانـواـ يـعـتمـدـونـ فـيـ جـدـلـهـمـ عـلـىـ المـنـطـقـ خـسـبـ ، وـإـذـاـ كـانـواـ يـعـتمـدـونـ أـيـضاـ عـلـىـ جـمـالـ التـبـيـرـ وـرـوـقـ الـكـلـامـ وـالـخـلـابـةـ الـلـفـظـيـةـ ، أـسـوـةـ بـمـاـ كـانـ يـصـنـعـهـ السـفـهـاطـائـيـونـ مـنـ فـلـاسـفـةـ الـأـغـرـقـ مـنـ قـبـلـ ، وـلـذـاكـ نـجـدـ فـيـ خـطـبـهـمـ مـنـ الـعـنـاـيـةـ بـالـصـنـعـةـ أـكـثـرـ مـاـ نـجـدـهـ فـيـ خـطـبـ غـيرـهـ . آـئـهـ هـذـاـ خـطـبـةـ وـاـصـلـ الـتـيـ تـعـتـبـرـ

(١) البيان والتبيين ٢٠٣/١ .

(٢) المصدر السابق ٢٥٥/١ .

(٣) أورد الجاحظ هذه الصحيفة في البيان والتبيين ١٣٥/١ .

غودجاً ممتازاً من عناصر الصنعة الخطابية ، نجد فيها حسن التنسيق وترتيب الأفكار ، وإحكام التسلسل ، وتقسيم الخطبة إلى أقسام واضحة متباينة ، من العناية بالبدء والختام ، وبدقة التعبير عن الأفكار ، وفي الخطبة بعد سجع مقصود ، وجمل متراصة ، وتوازن موسيقي ، وفيها فوق ذلك كله هذه الخاصية التي أوجبت شهرتها وهي نزع الراء منها . ولم يكن ليتوافر في هذه الخطبة كل ألوان الصنعة المذكورة هذه لو لم يكن واصل قد أعد نفسه لهذا المقام الخطابي وهي خطبته قبل إلقائها . وهذا يقفنا على بطلان ما ذهب إليه بشار بن برد حين مدح واصل وأشاد بخطبته هذه فقال :

تكلّفوا القول والأقوامُ قد حفَّلُوا
وَحِبَّرُوا خطباً فاهيك من خطبٍ
فقام مرتجلأ تغلي بدأهته
كمير جل القين لما حفَّ باللهب
و جانب الراء لم يشعر به أحد
قبل التصفّع والإغراف في الطلبِ
وقال أمضا :

فهذا بَدِيهٌ لا كُتْجَبَّيرُ قائلٍ إذا ما أراد القول زَوْرٌ شَهْرٌ^(١)
خطبة واصل هذه بعيدة كل البعد عن الارتجال والبداهة ، وما قال بشار هذا
القول إلا تمهيماً لصاحبها واصل - وذلك قبل أن تقع المداوة بينهما - وإظهاراً
لفضلها على منافسيها في مجلس عبد الله بن عمر . وإذا كان سائر المتكلمين في هذا
المجلس قد حبروا خطبهم وزوروها ، على ما ذكر بشار ، وهم من ألمع الخطباء ،
فليس من المعقول أن يتصدى واصل لتحديهم ومنافستهم دون أن يهد نفسه لهذا
الموقف إعداداً كافياً ، ولا سيما أنه وطن نفسه على مجازية الراء وإمساقها من
كلامه ، وقد علق الحافظ على أبيات بشار هذه بقوله : « لأنَّه كان مع ارتجاله
الخطبة التي نزع منها الراء ، كانت مع ذلك أطْوَلَ من خطبهم . » ، إلا أنه اعترف
في موضع آخر بأن خطب واصل تحتمل الصفة ، فقال معلقاً على ما أخذ به واصل
نفسه من مجازية الراء ، وهو أمر لم يتأتِ إلا بعد رياضة طوبية ومعاناة شاقة :

... ولست أعني خطبه المحفوظة ورسائله الخلدة ، لأن ذلك يحتمل الصنعة ، وإنما عنيت بمحاجة الخصوم ومناقلة الأكفاء ومفاوضة الإخوان ...)١()
هذا والجاحظ منهم أيضاً بالنصب لواصل ، لما بينها من الاتفاق في المذهب
والقول بالاعتزال ، ومع ذلك فهو لم ينفع الصنعة عن خطبه .

ولا يفهم من كلامنا أننا ننفي عن الخطباء الأمويين المقدرة على ارتجال الخطب
وابتداءها ، فربما أقدم الخطيب على الارتجال في الموقف التي لا تتحتمل إعداد
الخطب وتزويرها ، ولا سيما إبان الواقع الحرية التي كثيراً ما توجب على القائد
ارتجال الخطب لتحميس الجند على القتال . ولكننا فيها ذكرناه من غلبة الصنعة على
الخطابة الأموية نصدر حكمًا عامًّا ينطبق على الكثرة الغالبة من خطب هذا المصر ،
وخروج طائفة من الخطب عن هذا الحكم لا يطعن في صحته . ولم تكن خطب
الأعراب خالية من الصنعة ، كما قد يقادر إلى الذهن ، ولا أدل على عنايتهم بها
من تكاليفهم التشادق والتقرير في خطبهم ، وقد أشار الجاحظ إلى هذا الأمر وذكر
بأن هذه الصفات في أهل الوبر أكثر منها في أهل المدر)٢(.

فمن مظاهر الصنعة في الخطابة الأموية :

(أ) العناية باستهلال الخطبة وختامها ، وبتقسيمها إلى أجزاء متتابعة ، وتسلسل
الأفكار وارتباط بعضها ببعض . وأظهر ما تجلى هذه الصفات في خطبة زياد
البراء . وقد أخذوا عليه أنه لم يبدأها بحمد الله ، وذكروا أنها سميت « براء »
لهذا السبب . ولكن بعضهم يذكر ما ينافق هذا الرأي ويقول إنه استهلها بحمد
الله والثناء عليه)٣(. فإن صع هذا القول تكون خطبة زياد غير خارجة في
استهلاها عن أصول الخطابة في ذلك المصر . ونجده قد قسم خطبته أقساماً أربعة ،
قرع في الأول منها أهل البصرة لركوبهم مطية الجهة والضلال وانغماسهم في الفجوق
والشهوات . وفي القسم الثاني يوضع لهم منهجه الذي يسير عليه : لين في غير

(١) البيان والتبين ١٥/١ .

(٢) المصدر السابق ١٣/١ .

(٣) البيان والتبين ٦٢/٢ .

ضعف وشدة في غير عذف ، وبتمدهم باتباع خطة البطش والمسف إن لم يسلكوا سبيل الاستقامة . وفي القسم الثالث يوضع لهم ما ينبغي تجنبه من الأمور ، ويحدد لهم أنواع العقوبات التي يميزها عن يعنون بالأمن وينالون الناس بأذاتهم . وفي القسم الأخير يدعو القوم إلى نزوم الطاعة والخضوع لأئمهم ، وهو يعدهم بتحقيق العدل وإعطائهم حقوقهم من الفيء ، ويضمن لهم السير على السياسة التي يرضون عنها ، على أن يلزموا جاذب بني أمية : فإنهم ساستهم المؤدون ، وكيفهم الذي إليه يأولون . ثم يجعل ختام خطبته تحذيراً ووعيداً ليملا قلوب الناس رعباً : « وَإِنَّ اللَّهَ أَنْ لِي فِيكُمْ لِصْرَاعَى كَثِيرَةً » ، فليحذر كل أمرىء منكم أن يكون من صراعي . . . فقد كانت خطبة زياد هذه نموذجاً ممتازاً لحسن التقسيم وترتيب الأفكار وإحكام الصنعة ، وبلغ من إعجاب الناس بها أن شهد له عبد الله بن الأهيـم ، حين سمعها بأنه أوى الحكمة وفصل الخطاب^(١) .

على أننا لا ينبغي أن نسرف في تقدير عناية الخطباء الأمويين بالتقسيم والترتيب فهم لم يبلغوا من ذلك مبلغ خطباء اليونان القدامى مثلـاً ، والسبب الأول لذلك ، فيما يبدو لنا ، هو أن التفكير المنطقي عند اليونان وافق نهضة الخطابة ، أما عند العرب فالتفكير المنطقي ، بمفهومه الدقيق ، كان متاخراً في وجوده على العصر الأموي ، وهو العصر الذهبي للخطابة العربية ، لأن العرب لم يتع لهم الوقف على التراث الفلسفي اليوناني إلا في العصر العباسي ، وهو العصر الذهبي لازدهار الحياة الفكرية والثقافة الفلسفية عند العرب .

(ب) ومن مظاهر الصنعة في الخطاب الأموية أيضاً مراعاة التائق والدقة وحلاؤه الجرس في اختيار الألفاظ . . . وخطب أبي حمزة الخارجي تعمـل هذه الناحية غالباً جداً ، فهي تفـي عن براعة جديرة بالإعجاب في اختيار الألفاظ القوية الإيماء ، العذبة الجرس ، التي تطرب لها الأذن ويرتاح لها السمع ويهتز لها حس العربي المولع ب أناقة التعبير . وهذا جانب من خطبة له يظهرنا على هذه الخاصة في أسلوبه : « ثـم

لقينا رجالكم بقُدْرِيد ، فدعو ناهم إلى طاعة الرحمن ، وحُكْم القرآن ، ودعو نا إلى طاعة الشيطان ، وحُكْم مروان وآل مروان . فشنان ، لعمر الله ، ما بين الغي والرشد . ثم أقبلوا يهرون ويزفون ، قد ضرب الشيطان فيهم بجرانه ، وغلت بهمائهم مراجله ، وصدق عليهم إبليس ظنه ، وأقبل أنصار الله عصائب وكثائب ، بكل منهند ذى رونق ، فدارت رحانا ، واستدارت رحاهم ضرب برقاب منه المطلون ^(١) . ، والحق أن عنابة خطباء الخوارج بالصنعة لم تكن لتقل عن عنابة سائر الخطباء بها .

(ج) ومن مظاهرها أيضاً العناية بالزخرف اللغظي ، والحلية البدعية ، كالسجع والتوازن الموسيقي والعكس ونحو ذلك ، ولكن خطباء بي أمية لم يكونوا يسرفون في هذه العناية إسراف من أتي بعدهم . وقد تحدثنا عن السجع مفصلاً في مميزات الخطابة الأممية ، ولا حظنا ثمة قلة السجع في الخطاب السياسية الخالصة ، باستثناء خطب المختار التي كانت تلتزم به وتكلفه . ويلاحظ أن السجع في الخطاب الدينية أكثر شيوعاً منه في الخطاب السياسية ، ولا سيما القصص الديني منها . ونجده السجع يقع في بعض ضروب الخطابة الاجتماعية كخطب المحافل والمفاخرات وخطب التأبين والتعزية . وإذا خلت الخطابة من السجع فهي قلما تخلي من التوازن والتلاطم الموسيقي بين الفقرات والجمل ، فانخطباء الأميون كانوا حريصين على الانسجام الموسيقي سواء في ألفاظهم أو في تراكيبهم . ومن الزخارف البدعية التي كانت تقع في بعض خطب هذا العصر : العكس ، وهو يقوم على إبراد العبارة ثم عكسها ، وذلك كقول مسلمان بن عبد الملك من خطبة له في وصف الدنيا : «... تُضحك باكيا ، وتُمسكي ضاحكا ، وتخفف آمنا ، وتؤمن خائفا ، وتقرئ مثريا ، وتهري مفترأ ^(٢) . » وكقول وائل من تمجيده في خطبته : « الذي علا في دنه ، ودنا في علوه » .

(١) الأغاني ٢٠/١٠٠

(٢) العقد الفريد ٤/٩١

(د) والمنابه بالتصوير مظاهر آخر من مظاهر الصنعة في الخطابة الاموية ، وقد تحدثت عنه أيضاً في ميزات الخطابة السياسية ، ووضحت غة مدى عنانة الخطباء الامويين بهذا الاسلوب التصويري ، وبرع منهم في ركوب هذا الاسلوب المجنح الحجاج و أبو حمزة وعبيدة بن أبي سفيان .

على أن عنانة خطباء بني أمية بالصنعة كانت مع ذلك عنانة متذلة مقبولة لم تبلغ حد الإسراف الممقوت والتكلف الماجوج المذنب غالباً على أسلوب النثر منذ العصر العباسى . وعلى رغم عنانة الخطباء الامويين بالتألق اللغظى وجمال التعبير كان رائدهم الأول التعبير عن أفكارهم تعبيراً يجمع بين الإيجاز والدقة والوضوح . وقد لخص أحد الخطباء شروط الخطابة الجيدة في نظره بقوله : « رأس الخطابة الطبع ، وعمودها الدررية ، وجناحها رواية الكلام ، وحلبها الإعراب ، وبهاوها تخثير الألفاظ ، والمحبة مقرونة بقلة الاستكراء (١) . » ، وما زال النقاد يجهرون على بخانة التكلف والجريان مع الطبع ، ومن كلام قدامة بن جعفر في ذلك قوله : « ومن الأوصاف التي إذا كانت في الخطيب سمى سديداً ، وكان من العيب منها بسيداً ، أن يكون في جميع ألفاظه ومعانيه جارياً على سجنته غير مستكره لطبيعته ، ولا متتكلف ما ليس في وسعه . فإن التكلف إذا ظهر في الكلام هجنه وقع موقفه (٢) . » ويرى الحافظ أن المولدين من الخطباء والبلديين المتتكلفين قد أفسدوا الخطابة العربية لافتقارهم إلى السليقة الخطابية الأصيلة التي جعلت العرب الأقحاح يجانبون في خطفهم الألفاظ المسخوطة والمافي المدخلولة والأقوال المستكرهة (٣) .

* * *

ثانياً : الأداء الخطابي

لا يكفي لإجاده فن الخطابة أن تكون الخطابة مستوفية شروط الإجاده والإتقان

(١) البيان والتبيين ١/٤٤ والكلام لأبي داود بن حريز .

(٢) نقد النثر المنسوب إلى قدامة بن جعفر ص ٩٤ .

(٣) البيان والتبيين ٢/٨ .

من حيث أفكارها وأسلوبها وميزاتها الفنية ، بل ثمة أمر آخر له شأن خطير في هذا الفن لا بد من إجادته لكي يكون الخطيب ممتازاً ، ذاك هو الأداء الخطابي أي فن الإلقاء - وقد يكون الأداء في الشعر بعض الشأن ، والقصيدة قد تزداد بهاء ورونقاً بالإلقاء الجيد ، ولكن الشعر يمكن أن يستغني عن الأداء الشفهي وبقرا مكتوباً ، أما الخطابة فهي فن مخاطبة الجماهير ، ولا بد من إلقاء الخطبة على مسامع الناس لتؤدي الغاية منها ، ولذلك كان الأداء فيها كل الشأن . وحين يقف الخطيب ليخطب أمام جماعة من الناس ، فإن أنظارهم تتلقفه وأسماعهم تتوجه إليه ، وهو مطالب بأن يرضي أنظارهم ويطرأ أسماعهم في وقت معـاً ، ومن هنا كان للأداء شروط تتصل ب الهيئة الخطابية ، ووقفته ، وحركاته ، وصوته ، ونطافه ، وآخر فيها يلي أبرز شروط الأداء التي كان على الخطيب الأموي مراعاتها .

(١) كان الخطيب في عصر بي أمية يخطب إما على منبر ، وقد اتخذت المنابر في المساجد منذ عهد الرسول عليه السلام ، وإما على أي مكان مرتفع ليراها الناس . وكان يشترط قيام الخطباء في جمل ضروب الخطابة ، لأن الوقوف في الخطابة هو الأصل ، إلا أنهم جروا على أن يخطبوا جالسين في خطب الإملاء وبعض الخطب الدينية ، وكذلك كان بنو أمية يقدمون في إحدى خطبتي الجمعة والعيدين ويقومون في الأخرى . وقد جرت عادة خطباء العرب منذ العصر الجاهلي على أن يخطبوا على رواحلهم في المواسم العظام والجماع الكبير . ولا يملك دليلاً على أن هذه المادة قد ظلت قائمة في العصر الأموي ، ونحو نرجح أنأخذ العرب بأسباب الحياة الحضرية في هذا العصر قد باعد بينهم وبين عادة الخطابة على الرواحل . وفي الجامع الحافلة كان الخطيب يتلزم لوث العمامـة ، كائناً هي شارة يعرف بها . وقد حدثنا الجاحظ عن لزوم الخطباء العمامـة في أيام الجمـوع (١) . وكذلك كان لا بد للخطيب من اتخاذ مخرصـة ، وهي من العادات الموروثة أيضاً عن العصر الجاهلي . ويحدثنا الجاحظ أن الخطيب ربما استغنى عن الجبة أو الرداء

ولكنه لا يستغني عن العممة والمحصرة، وقد تكون المحصرة قضيئاً أو عصاً أو قناء^(١)، وقد يتکىء الخطيب على قوس أنتهاء الخطابة، وقد أصبح اتخاذ المحصرة من الأمور التي لا يستطيع الخطيب الاستفادة عنها، لطول إلقاءها، وقد روى الجاحظ عن عبد الملك بن مروان قوله: «لو ألقيت الخيزرانة من يدي لذهب شطر كلامي»^(٢). . ، وربما أله الخطيب عصاً بيدها، فقد جاء في سرح الميون أن سجحان وائل لما دعى للخطابة في مجلس معاوية قال لهم: «انظروا إلى عصا تقوّم من أودي». قالوا: وما تصنع بها وأنت بحضور أمير المؤمنين. قال: ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربّه، وعصاه في يده. فضحك معاوية وقال: هاتوا عصاً. جاءوا بها إليه، فركلها برجله ولم يرضها، وقال: هاتوا عصاً فأنروا بها»^(٣). . . وقد اشار بعض الشعراء إلى عادة اتخاذ المخادر فقال كثير: إذا قرعوا المنابر ثم خطّوا بأطرافِ المخادر كالغِضاب^(٤)

وقال صفوان الأنصاري يدبح خطباء العزلة:

يصيرون فصل القول في كل خطبة إذا وصلوا أيّاً منهم بالمخادر^(٥)
وكان اتخاذ المخادر من الأمور التي عاها الشعويون على العرب في العصر العباسي، وقد أفرد الجاحظ جانباً كبيراً من كتاب البيان والتبيين المرد عليهم وأبيان فضائل المصا. وحمل المصا عنده دليلاً على التأهب للخطابة، والتهيؤ للإطالة، وذلك شيء خاص في خطباء العرب، ومقصور عليهم ومنسوب إليهم^(٦).

وما نحسب أن الخطباء كانوا يرون لاتخاذ المصا فائدة معينة، وإنما هي عادة

(١) البيان والتبيين ٩٢/٣ .

(٢) المصدر السابق ١١٩/٣ .

(٣) سرح الميون ص ٨٧ .

(٤) البيان والتبيين ٩/٣ .

(٥) المصدر السابق ٣٧١/١ .

(٦) المصدر السابق ١١٧/٣ .

ألفوها وبات من المثير عليهم التخلص عنها ، ومن ثم أصبحت المخضرة من سمات الخطيب الازمة له . وإن التزام الخطباء الأمويين لهذه العادات الموروثة عن العصر الجاهلي يبيّنا أن الإسلام لم يكن له أثر في تغيير شارات الخطباء وعاداتهم وزبدهم ، إلا ما كان من اتخاذ المنابر بدلاً من الوقوف على نشر من الأرض أو الخطابة على الرواحل .

ومن المحقق أن هيئة الخطيب لها أثرها في الجاهير ، فانخطيب إذا كان قصيراً ثقيناً زري المنظر اقتنعه أعين الناس ، وعلى تقدير ذلك إذا كان فارعاً الطول عظيم الهمة حسن السمع ، فإن منظره خليق بأن يجعل الانظار تتعلّق به وبأن يعلّق قلوب الناس هيبة وتقديراته . وقد كان الحجاج خبيراً بما يتركه منظر الخطيب من أثر في نفس الجاهير ، فاختار حين قدم الكوفة طريقة مسرحية يفجّر بها أنظار الناس ، روى عبد الملك بن عمير القيسي قال : بينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة ، وأهل الكوفة يومئذ ذوقوا حال حسنة بخرج الرجل منهم في العشرة والعشرين من مواليه ، إذ أتى آت فقال : هذا الحجاج قد قدم أميراً على العراق ، فإذا به قد دخل المسجد معتماً بهمة قد غطى بها أكثر وجهه ، متقدلاً مسيفاً ، متسلكاً قوساً ، يؤمّن المنبر . فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر ، فشكّت ساعة لا يتكلّم . فقال الناس بعضهم لبعض : قبّع الله بي أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق ، حتى قال عمير بن ضابي البرجمي : ألا أحصبه لكم . فقالوا : أمهل حتى ننظر . فلما رأى عيون الناس إليه حسر اللثام عن فيه ونهض فقال :

أنا ابن جلا وطلائعُ الثنايا مق أضم العامة تعرّفوني^(١) .

فقد أراد الحجاج أن يقدم نفسه لأهل العراق ، فاختار هذه الطريقة المسرحية الطريقة ، و « أخرج » خطبته « إخراجاً » ففيه يلمّع موضوعها : جاءهم في هذا الزي البدوي ، مفعماً قد غطى أكثر وجهه ، ثم أمهلهم حتى نهدى صبرهم وتعلقت أنظارهم به ، ثم حسر اللثام عن وجهه فجأة ، وابتدرهم يديت سليمان وشيل المشهور ، ولم تكن

(١) *الكامل للعبد* ٢٢٣/١ .

عليه الحجاج من الظهور بهذا المظاهر إلا طبع صورته الخبيثة في نفوس أهل العراق، وملء قلوبهم رعباً وهماً. وقد تحقق له ما أراده فأصبح اسمه وحده كافياً لبث الذعر والهلع في قلوب أهل العراق.

على أن من الخطباء من كانت جودة كلامه تعوض عن قبح منظره، وذلك شأن الأحنف بن قيس مثلاً، فقد كان قبيح الهيئة أشدق ولكنه كان إذا تكلم جلى عن نفسه^(١). وروى الجاحظ أن أبا وائلة إيس بن معاوية المازني أتى حلقة من حلق قريش في مسجد دمشق، فاستولى على المجلس، ورأوه أحمر دمياً باذ الهيئة قشفاً، فاستوقفوا به، فلما عرفوه اعتذروا إليه وقالوا : «الذنب مقسم بيننا وبينك ، أتيتنا في زي مسكنين ، تكلمنا بكلام الملك»^(٢).

(ب) وكان الخطيب الأموي يستعين بالإشارة أثناء خطبه، والإشارة من مستلزمات الخطابة عامة، وهي تعبير عن شدة انفعال الخطيب. ولا يستحسن في الخطيب أن يقف ثابتاً كصنم منحوت، فإن هذا الجمود يوحي ببرود عاطفته وجود إحساسه وعدم انفعاليه بوضع خطبته، وذلك كله خليق بأن يجرد خطبته من نبضة الحياة وقوتها التأثير. وكان الخطباء الأمويون بشيرون، كما قدمنا بالمحضرة والمعاصي، وليس في هذا ما يسيئهم. إلا أنهم كانوا يعيرون على الخطيب أن يصدر عنه من الحركات، أثناء الخطابة، ما يشي باضطرابه ووجله، فالخطيب الممتاز عندهم ينبعي أن يكون ثابت الجنان، رابط الجأش، قليل التلفت. وقد جعل أبو هلال العسكري علامه مكون الخطيب ورباطة جأشه هدوءه في كلامه وتمثيله في منطقه^(٣). وكان اضطراب الخطيب وفقدانه السيطرة على أعصابه يؤديان إلى أن يأتي بحركات تفضح حالته النفسية المضطربة. كأن ينظر في عيون الناس، أو يمس مبالغه، أو يسخ عنونه^(٤)، أو يسمع سعالاً مصطنعاً، أو يرتعش، أو يفتل أصابعه، أو يكثر من التلفت. وقد نقل الجاحظ كلام بعض

(١) البيان والتبيين ١/٥٦.

(٢) المصدر السابق ١/٩٨.

(٣) الصناعتين العسكري ص ٢٢.

(٤) السبال ج سبله : مقدم الماجية وما استرسى منها ، والعثون : ما نبت من اللجة على الذقن .

النقد في عيوب الخطابة، فروى عن أبي داود بن حريز قوله: « تلخيص المعانى رفق ، والاستعانة بالغريب عجز ، والتشادق من غير أهل البداية بغض ، والنظر في عيون الناس عي ، ومس اللحمة هلك ، والخروج مما بني عليه أول الكلام إسهاب ^(١) ». وعاب شاعر أحد الخطباء فقال :

مليء يمئور والتفقات وستعملة ومسحة عثرون وقتل الأصابع ^(٢)

وربما اعترى الخطباء الخوف والاضطراب أثناء الخطابة لسبب خارجي ، فانعكس صدى اضطرابهم في حركاتهم ، شأن زيد بن جنبد خطيب الازارقة المفوه ، فقد أخرجته قعقة رماح المعركة عن اتزانه وهدوئه ، وهو يخطب ، فإذا به يسعل وينحنح ، وأشار إلى ذلك الاشل الازرقى - وهو من شعراء الخوارج - فقال :

نحن زيد وسعل لما رأى وقع الأسل

وبل امه إذا ارتجل ثم أطال واحتفل ^(٣)

أما خالد بن عبد الله القسري فقد جعله الخوف يخلط في كلامه ويأتي بحركات لا تليق بخطيب مفوه مثله ، روى المبرد أن خالداً كان يخطب مرة ، فخرج عليه المغيرة ابن سعيد بالكوفة في عشرين رجلاً ، فعطموه به ، فاضطرب خالد وقال : أطعموني ماء ، وغيره أحد الشعراء بما أصابه من الخوف والتخليط فقال :

بل المنابر من خوف ومن وهل واستطعموا الماء لما جد في الهرب ^(٤)

(ج) ولم يكن هذا كل ما كان يعتري الخطيب نتيجة الاضطراب النفسي الذي كان يتعرض له أحياناً حين يتصدى للخطابة ، هذا الاضطراب الذي سمي به « رعشة المنابر » ، وإنما كانت يعتريه أحياناً أعراض أخطر من ذلك ، كالهرب وهو انقطاع النفس بسبب الاضطراب والإعياء ، وقد يتسبب العرق منه . رروا أن صعصعة بن

(١) البيان والتبيين ١/٢٤ .

(٢) السكامل المبرد ١/٢٠ . البير : انقطاع النفس من الإعياء .

(٣) البيان والتبيين ١/٤٢ .

(٤) السكامل ١/٢٠ . عطموه به : من العططة وهي تتابع الأصوات واحتلاطها في الهرب .

صوحان تكلم عند معاوية مرة فمرق ، فقال معاوية : بهرك القول ، فأجاب صعصعة : « إن الجياد لضاحكة بالماء ». (١) على أن أخطر ما يتعرض له الخطيب من هذه الأعراض الإرتجاج والخصر : يقف الخطيب ليخطب وقد ازدحمت الأفكار في ذهنه فإذا بالاضطراب يدهمه فيشل مقدرته على تركيز أفكاره ، ويجهز عن الكلام عجزاً مطلقاً فكأنما قد عقل لسانه ، يبحث عن الالفاظ فتفر منه ، وعن الجمل فتتأبى عليه ، ويلتمس المعاني التي كانت منذ قليل جاهزة في فكره فلا يجد لها وإنما يجد الضباب يغشى قواه الفكرية ، ويقول إذ ذاك كلاما لا يمت إلى الموضوع الذي يريد الكلام فيه بصلة . وقد يقول ما يحمل الناس على الضحك ، وربما نزل دون أن يقول شيئاً . ولحظة الخصر هذه من أتمس الاحظات التي يمر بها الخطيب في حياته ، وهي ترك في نفسه آثاراً سيئة لا يسهل محوها . وقد حدثنا أن عبد الله بن عامر خصر مرة على منبر البصرة فشق ذلك عليه كثيراً ، وحاول زياد أن يسرى عنه بقوله إن ما اعتراه من الخصر يهترى أكثر الناس (٢) . وأكثر ما يتعرض الخطيب للارتجاج والإجبار حين يتصدى للخطابة ارتجلاناً وابتداها دون إعداد مسبق . ولم يكن الخصر وقفاً على ضعاف الخطباء بل كان الخطباء المفوهون عرضة كذلك لهذا الموقف المؤلم . روى الجاحظ أن عدي بن أرطاة صعد المنبر يوماً فلما رأى جماعة الناس خصر فقال : « الحمد لله الذي يطعم هؤلاء ويسقيهم » ، وخطب مصعب بن حيان خطبة نكاح فخصر فقال : « اقروا موتكم قول لا إله إلا الله » ، فقالت أم الحاربة : عجل الله موتك ، أهذا دعوتك (٣) ؟ وربما استطاع الخطيب أن يلوك زمام نفسه بعد حين وبخلاص من حرج موقفه بلباقة ، صنيع ثابت قطنة حين أراد أن يخطب بسجستان ذات مرة فخصر ، فلما نزل عن المنبر قال :

فإلا أكن فيكم خطيباً فلما نزلي بسيفي إذا جدّ الوغى الخطيب

(١) البيان والتبيين ١/١٤٣ .

(٢) البيان والتبيين ٢/٢٥١ .

(٣) المصدر السابق ٢/٢٥٠ .

فقييل له : لو قلت هذا على المنبر لكتت خطيباً^(١) . وأرجح على معاویة في خطبته حين ولی فقال معلقاً على ما أصابه من حصر : «أيها الناس ، إني كتبت أعددت مقالاً أقوم به فيكم فخجلت عنه ، فإن الله يحول بين المرء وقلبه ، كما قال في كتابه ، وأنتم إلى إمام عدل أشوج منكم إلى إمام خطيب ، وإنني آمركم بما أمر الله به ورسوله ، وأنهاكم عما نهَاكم الله ورسوله ، وأستغفر الله لي ولكلمك^(٢) ، فكان لبقاً في تخلصه من موقفه بهذا الكلام . وقد وصف خالد القسري حال من يرتجع عليه وما ينبغي له حيثئذ من التأني والتريث . وذلك أنه أراد الكلام مرة خضر ، فشكث مليتاً لا يتكلم ، ثم لما ثابت إليه نفسه وزال عنه اضطرابه وتهما له الكلام قال : «أما بعد ، فإن هذا الكلام بمحبيه أحياها ، ويعزب أحياها فيسيبح عند مجده مسييه ، وييُعزّ عند عزوبه طلبه ، ولو بمن كثور فايي ، وعُوج فنائي ، فالتأني لجيئه خير من التعاطي لأبيته ، وتركه عند تذكره أفضل من طلبه عند تذرره ، وقد برزج على البلبل لسانه ، ويحتاج من الجريء جناه ، وسأعود فأقول إن شاء الله^(٣) .

(د) والصوت والنطق من العناصر ذات الشأن الكبير في الأداء الخطابي ، فإن حسن الأداء وجهازه الصوت ، وسلامة النطق ، مما يزيد في رونق الخطابة وحسن موقعها في النفوس ، والخطيب لا يؤثر في المستمع من طريق الأفكار فحسب وإنما يؤثر أيضاً في حاستي السمع والبصر ، وتنصافر هذه المؤثرات كلها لتكون لدى السامع فكرته عن الخطيب . والحكم على الخطيب من خلال آثاره وحدها حكم ناقص أبتر ، ولا بد من تقدير حظه من الأداء الخطابي ليكون الحكم مستوفياً شروط الصحة والمدقّة . وقد عني الفقاد ببيان ما للصوت والنطق من عظيم الشأن في الخطابة والفصاحة ، فقال قدامة : « وما يزيد في حسن الخطابة وجلال موقعها جهازه الصوت ، فإنه من أجل أوصاف الخطباء ». إلا أن قدامة لم يشترط حلاوة النغمة في الخطابة : « وليس يلتفت في الخطابة إلى حلاوة النغمة إذا كان الصوت

٤٨٦/٠ (١) الطبرى .

(٢) المقـدـمـة الفـرـيدـة ١٤٨/٤

(٣) المصدر السابق .

جَهِيرًا ، لَأَنْ حَلَوةَ النُّفُمَةِ إِنَّمَا تَرَادُ فِي التَّلْحِينِ وَالْإِنْشَادِ دُونَ غَيْرِهَا^(١) ، وَقَالَ الْجَاحِظُ : « وَكَانُوا يَدْحُونُ الْجَهِيرَ الصَّوْتَ ، وَيَذْمِنُونَ الضَّبْيلَ الصَّوْتَ ، وَلَذِكْ تَشَادَّقُوا فِي الْكَلَامِ ، وَمَدْحُوا سَعْيَ الْفَمِ ، وَذَمُوا صَفْرَ الْفَمِ »^(٢) . وَقَدْ أَشَادَ الشُّعُرَاءُ أَيْضًا بِجَهَارَةِ الصَّوْتِ فِي الْخُطَابَةِ فَقَالَ أَحَدُهُمْ يَعْدِجُ مَعَاوِيَةَ بِذَلِكَ :

رَكَوبُ الْمَنَابِرِ وَثَابِرًا مِعَنْ بِخُطْبَتِهِ بِجَهَيرِ ^(٣)

وَالْخُطَيبُ الْمَاهِرُ هُوَ الَّذِي يُسْتَطِيعُ أَنْ يَتَصَرَّفَ بِصَوْتِهِ الْخَفَاضَةِ وَالْأَرْتِفَاعَةِ ، مَسَارِيًّا مَوْضِعَ الْخُطَابَةِ وَالْأَنْفَعَالِ السَّامِعِينَ ، فَإِنْ مِنْ شَأْنٍ هَذَا التَّلْوِينُ الصَّوْتِيُّ أَنْ يَبْعَدَ السَّآمِمَةَ عَنِ الْمُخَاطَبِينَ وَيَجْنِبَ خُطْبَتِهِ الرِّتَابَةَ الْمُعَلَّةَ . وَالْخُطَيبُ يَبْدأُ خُطْبَتِهِ عَادَةً بِصَوْتٍ خَفِيفٍ لَأَنَّ نَفْسَهُ تَكُونُ إِذَا ذَاكَ هَادِهَةً ، فَإِذَا مَضَى فِي خُطْبَتِهِ تَفَاقَمَ اتِّفَاعُهُ وَانْدَفَاعُهُ ، وَازْدَادَ بِالْتَّالِي صَوْتِهِ ارْتِفَاعًا وَهَدِيرًا . وَكَانَ الْجِجَاجُ جَهِيرًا بِأَثْرِ الصَّوْتِ فِي الْجَاهِيرِ ، وَكَانَ مِنْ تَمَامِ طَرِيقَتِهِ الْمُسَرِّجَةُ فِي التَّأْثِيرِ فِي سَامِعِيهِ أَنَّهُ كَانَ إِذَا صَدَ الْمَنْبِرَ تَكَلَّمَ رُوِيدًا حَتَّى لَا يُكَادُ يُسْمَعُ ، ثُمَّ يَتَزَبَّدُ فِي الْكَلَامِ حَقَّ يَخْرُجُ يَمْدُهُ مِنْ مَطْرُفِهِ وَيَزْجُرُ الزَّجْرَةَ فَيَفْزُعُ بِهَا أَقْصَى مَنْ فِي الْمَسْجِدِ^(٤) .

وَمِنْذِ الْمَصْرِ الْجَاهِلِيِّ عُرِفَ كَثِيرٌ مِنَ الْخُطَابِيِّينَ ، وَلَا سِيَّما الْأَعْرَابُ مِنْهُمْ ، بِضَربِ مِنْ الشَّكَافِ فِي النُّطُقِ وَالتَّزِيدِ فِي جَهَارَةِ الصَّوْتِ ، وَالتَّصْرِيفُ بِخُارِجِ الْحُرُوفِ بِغَيْرِهِ التَّفَاصِحِ وَتَضَخِيمِ الصَّوْتِ ، وَهُوَ الَّذِي عُرِفَ بِالْتَّشَادِقِ وَالْأَنْقَمَرِ^(٥) . وَقَدْ أَثْرَ عَنِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَقْوَالٌ يَنْهَا فِيهَا عَنِ التَّشَادِقِ كَفَوْلَهُ : « إِيَّاهُ وَالْتَّشَادِقُ » . وَذَكَرَ الْجَاحِظُ أَنَّ الرَّسُولَ عَابَ « الْمُتَزَبِّدِينَ فِي جَهَارَةِ الصَّوْتِ وَأَنْفَعَالِ سَعْيَ الْأَشْدَاقِ وَرَحْبِ الْفَلَاصِمِ وَهَدْلِ الشَّفَاهِ »^(٦) . كَمَا أَثْرَ عَنِ الرَّسُولِ كُرْهَهُ التَّخلُّلِ بِالْإِسَانِ : « إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَنْفَعُ الرَّجُلَ الَّذِي يَتَخلُّلُ بِإِسَانِهِ كَمَا تَتَخلُّلُ الْبَاقِرَةُ

(١) نَقْدُ النَّثَرِ ص ٩٥ .

(٢) الْبَيَانُ وَالْتَّبَيِّنُ ١/١٢٠ .

(٣) الْمُصْدَرُ السَّابِقُ ١/١٢٧ . الْمَعْنَى : الَّذِي تَعْنَى لَهُ الْخُطَابَةُ وَتَنْفَدَ إِلَيْهِ .

(٤) الْكَامِلُ ١/١٧٩ .

(٥) التَّشَادِقُ وَالْتَّشَدِيقُ : لِيَ الشَّدَقُ لِلنَّفْصِحِ . وَالتَّقْرُرُ : التَّشَدِيقُ ، وَالْتَّكَلُّمُ بِأَقْصَى الْفَمِ .

(٦) الْبَيَانُ وَالْتَّبَيِّنُ ١/١٣ . وَالْفَلَصَمَةُ : رَأْسُ الْمَلْقُومِ .

الخليل بمساندتها^(١) . على أن هذه المادّة الأعرابية ظلت معروفة في العصر الأموي وتتكلّفها جل الخطّباء فكانوا يتشادقون ويتقدّرون ، وقد مرّ بما قول الجاحظ إن العرب كانوا يمدحون الجَيْر الصوت فلذاك تشادقاً في الكلام ، ومدح شاعر عمرو بن سعيد الأشدق بالتشادق فقال :

تشادق حتى مال بالقول شيدقه وكل خطيب لا أبا لك أشدق^(٢)
ومن عرف بالتشادق من خطّباء بني أمية خالد بن عبد الله القسري ، وفيه قال الشاعر بحبي بن نواف :

وأحن الناس كل الناس قاطبة^(٣) وكان يواع بالتشديق في الخطيب فسعة الأشداد كانت صفة محمودة في الخطيب لأنّها معينة على جهارة الصوت ولكن تكلّف هذه السعة بالتقدير والتشادق ، وهو من قبيل الصناعة في الاداء الخطابي ، لم يكن صفة محمودة في نظر من يكره التكاليف والتصنّع من النقاد والبلغاء . وقد ذم الجاحظ صاحب التشديق ، ولكنه جعله أذر من عبيبي يتصدّى للخطابة : « ثم أعلم - أبقاك الله - أن صاحب التشديق والتقدير والتفصيّب من الخطّباء والبلغاء مع سمّاجة التكاليف ، وشدة التزييد ، أذر من عبيبي يتكلّف الخطابة »^(٤) .

وئمة عيوب في النطق لا يد للخطيب فيها لأنّها ترجع إلى عيوب في الخلقة وتكون الأعضاء ، أو إلى أسباب عارضة كتساقط الأسنان ، فمن هذه العيوب الخلقيّة المؤدية إلى اختلال مخارج الحروف وتشويه النطق ، الشغاف ، والفلع ، والضجم والروق ، والفقام ، والشدق^(٥) . وهذه العيوب كانت في عدد من خطّباء بني

(١) البيان ١/٦٣ . والخليل : الرطب من الحشيش .

(٢) المصدر السابق ١٢١/١ .

(٣) المصدر السابق ١٢٢/١ .

(٤) المصدر السابق ١٣/١ .

(٥) الشغاف : اختلاف بنيّة الأسنان طولاً وقصراً ، ودخولاً وخروجاً . الفلع : شق في لفحة العلبة . الضجم : اعوجاج في الفم . الروق : طولاً الثنایا المليأة على السفل . الفقم : تقدم الثنایا العلبة فلا تقع على السفل . الشدق : ميل الفم واعوجاج الشدق .

آمية ، وقد ذكر الجاحظ أن زيد بن جندب ، خطيب الأزارقة ، كان أشغى أذناع ، وأنه لو لا ذلك لكان خطيب العرب قاطبة^(١) ، وكان الأخفف بن قيس أشد فتراكب الأسنان^(٢) .

وما يفسد النطق سقوط بعض ثنايا الخطيب ، روى أبو عثمان أن الجاحظ خطيب خطبة نكاح أصاب فيها معاني الكلام ، وكان في كلامه صفير يخرج من موضع ثناياه المزروعة ، فأجابه زيد بن علي بكلام في جودة كلامه ، إلا أنه فضل محسن الخرج والسلامة من الصفير^(٣) . وذكر أيضاً أن مماوية لم يتكلم على منبر منذ سقطت ثناياه ، وأن عبد الملك بن مروان شد أسنانه بالذهب وبين الدافع إلى ذلك بقوله : « لولا المثابر والنساء ، ما باليت متى سقطت^(٤) » . ويرى الجاحظ أن سقوط الأسنان جيئها لا يفسد النطق كسقوط بعضها ، واستدل على ما ذهب إليه بأن سفيان بن البارد الكلبي تساقطت جميع أسنانه وكان مع ذلك خطيباً يينا^(٥) .

ومن أبرز عيوب النطق الخلقيـة المائنة ، وللجاحظ كلام كثير في المائنة وأنواعها في الجزء الأول من البيان والتبيين ، والمائنة تقع على الأـكـثـرـ في أربعة أحرف : الراء ، واللام ، والسين ، والقاف . وأشهر من عرف بالمائنة من خطباء مصر الـأـمـويـيـ وـأـصـلـ بـنـ عـطـاءـ . وقد حدثـناـ الجـاحـظـ «ـ أـنـ وـاـصـلـ لـمـ رـأـيـ قـبـحـ لـثـنـتـهـ ،ـ وـأـنـ خـرـجـ ذـلـكـ مـنـ شـنـيعـ ،ـ وـأـنـ إـذـ كـانـ دـاعـيـةـ مـقـالـةـ ،ـ وـرـئـيـسـ نـحلـةـ ،ـ وـأـنـ هـيـرـيدـ الـاحـتـجاجـ عـلـىـ أـرـبـابـ النـحلـ وـزـعـمـاءـ الـمـلـلـ ،ـ وـأـنـ لـاـ بـدـ لـهـ مـنـ مـقـارـعـةـ الـأـبـطالـ ،ـ وـمـنـ الـخـطـبـ الطـوـالـ ،ـ وـأـنـ بـيـانـ يـحـتـاجـ إـلـىـ تـبـيـزـ وـسـيـاسـةـ ،ـ وـإـلـىـ تـرـتـيبـ وـرـيـاضـةـ ،ـ وـإـلـىـ تـعـامـ الـآـلـةـ وـإـحـكـامـ الصـنـعـةـ ،ـ وـإـلـىـ سـهـولةـ الـخـرـجـ وـجـسـارـةـ الـنـطـقـ ،ـ وـتـكـيـلـ الـحـرـوفـ وـإـقـامـةـ الـوزـنـ ،ـ وـأـنـ حـاجـةـ الـنـطـقـ إـلـىـ الـخـلـاوـةـ وـالـطـلـاوـةـ كـاجـتهـ إـلـىـ الـحـزـالـةـ

(١) البيان والتبيين ١/٥٥ .

(٢) المصدر السابق ١/٥٦ .

(٣) المصدر السابق ١/٥٨ .

(٤) المصدر السابق ١/٦٠ .

(٥) المصدر السابق ١/٦١ .

والفحامة . . . لخ ، رام أبو حذيفة إسقاط الراء من كلامه ، وإخراجها من حروف منطقه ، فلم يزل يكابد ذلك ويقاومه ، ويناضله ويساجله ، ويتأتى لستره والراحة من هجته ، حتى انتظم له ما حاول ، واتسق له ما أمل^(١) . ولما است حماولة واصل هذه التخلص من لفنته بدعى لم يسبق إليه ، فقد سبقه إلى ذلك خطيب الإغريق الأشهر ديموستين الذي لم يتأت له أن يصبح سيد خطباء اليونان إلا بعد معاقة طويلة ومكافحة مضنية في سبيل التخلص من آفاته في النطق ، وكان يلأ فاه بالحصى ثم يضي وحده في إلقاء الخطاب الطويلة ، حتى استقام نطقه وسلم من العيوب .

ومن عيوب النطق أيضاً : التمتمة ، وهي رد الكلام إلى الناء والميم ، والفاء ، وهي تتعذر اللسان في الفاء ، يقول أبو الزحف ، وهو من شعراء العصر الأموي :

لستُ بِفَائِفَاءٍ وَلَا تَنْتَامْ ولا كثير الْمُبْحَرِ فِي الْكَلَامِ^(٢)

ومنها التجلجة ، وهي التردد والاضطراب في النطق ، قال الهمي :

لَيْسْ خَطِيبَ الْقَوْمَ بِالْمَجْلَاجِ وَلَا الَّذِي يَرْجِلْ كَالْمَلْبَاجِ^(٣)

ويذكر الحافظ بعض عيوب اللسان الأخرى فيقول : « ويقال في لسانه جبسة ، إذا كان الكلام يشق عليه ، ولم يبلغ حد الفاء والتنتام ، ويقال في لسانه عقلة إذا تعقل عليه الكلام . ويقال في لسانه لكتنة ، إذا أدخل بعض حروف المعجم في حروف العرب وجذبت لسانه العادة الأولى إلى المخرج الأول . فإذا قالوا في لسانه حكلة فإنما يذهبون إلى تقصان آلة المنطق وعجز أداة اللفظ ، حتى لا تعرف معانيه إلا بالاستدلال^(٤) . »

(١) البيان والتبيين ١٤/١ .

(٢) المصدر السابق ٣٨/١ .

(٣) المصدر السابق ٣٩/١ . والهمي الفضل بن العباس من شعراءبني هاشم في العصر الأموي . الملجاج : الأحق .

(٤) البيان والتبيين ٣٩/١ .

ومن خطباء العصر الأموي الذين عرّفوا باللكنة عبد الله بن زياد ، وذلك أنه لشأ بالأساورة ، وهم قوم من المعجم نزلوا البصرة ، إذ كان شريوه زوج أمه مرجانة منهم ، فظهرت في لسانه لكتنة المعجم ، على فصاحته . ومن لكتنته قوله لهاـنـي بن قبيـصـة : أـهـرـوـرـي^(١) ، يريد : أـهـرـوـرـي^(١) .

وقد عرف بعض خطباء العصر الأموي بافة أخرى من آفات اللسان الناجمة عن مخالطة العرب الأعاجم هي اللحن . وقد تحدثت في فصل المؤثرات الاجتماعية عن هذه الظاهرة وسبب انتشارها في هذا العصر . وقد نسب اللحن إلى طائفة من ألمع خطباء العصر الأموي ، منهم خالد بن عبد الله القسري وخالد بن صفوان والوليد ابن عبد المطلب ، بل لم ينفع من هذا المطعن شيئاً الفصاحة في العصر الأموي : الحجاج والحسن البصري .

فإن الخطيب الممتاز عندهم من سلم من هذه العيوب التي ذكرناها سواء في هيئة ومضئره ، أو في حركاته وإشاراته ، أو في صوته ونطقه . وكانوا يمدحون في الخطيب ثبات الجناح ، ورباطة الجأش ، وقلة التلفت ، وشدة العارضة وحضور المديمة ، وكثرة الماء والريق ، وجهازه الصوت ، وفصاحة المنطق ، ونحو ذلك من الصفات .



القسم الثالث

أعلام الخطابة السياسية في عصر بنى أمية

مشاهير الخطباء والأسر ذات الشهرة الخطابية

١ - كثرة الخطباء في هذا العصر وسببها

لم يكُن الخطباء في عصر من العصور كثُرَتهم في عصر بنى أمية ، وعدهم في هذا العصر يكاد يوازي جميع ما عرفه العرب من الخطباء في ماضي العصور . على أن ما اتَّهَى إلينا من الخطيب الأموي لا يتناسب مع عدد الخطباء الأمويين الضخم الذين عرفناهم ، ومن المؤكد أن جانباً كبيراً من الخطيب الأموية قد فقد . وثمة خطباء تشهد المصادر الأدبية ببراعتهم الخطابية ومع ذلك لا نجد بين أيدينا شيئاً من خطبهم . وللتعليل كثرة الخطباء في هذا العصر حسبنا أن نرجع إلى ما ذكرناه في الفصول السابقة من دواعي ازدهار الخطابة بشق خروجها في عصر الأمويين ، ونشاط الخطابة مقترن بوفرة الخطباء ، ونحن نستطيع أن نجمل مختلف الأسباب الداعية إلى تضخم عدد الخطباء في هذا العصر في العوامل التالية :

١ - كثرة الأحداث الداخلية والخارجية .

٢ - ظهور الفرق السياسية والدينية .

٣ - نشاط الحياة الاجتماعية .

٤ - احتفاظ جل العرب بسلالاتهم الخطابية لقرب عهدهم من مصر الجاهلي عصر الفصاحة الفطرية ، ولتأثيرهم بالبلاغة القرآنية ، ولأن اختلاطهم بالمناصر غير العربية لم يكن قد استفحَل أمره بعد ، فلم يكن له كبير أثر في إفساد السلاطنة . وإن فساد هذه السلاطنة فيما بعد هو السبب الأول في تناقص عدد الخطباء وتدهور شأن الخطابة العربية والخطاطها .

٣ - أشهر الخطباء السياسيين في هذا العصر

أ - خطباء بني أمية وأنصارهم

كان خلفاء بني أمية يجيدون الخطابة ، ولا سيما معاوية ويزيد ابنه وعبد الملك ، وسلیمان بن عبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز . وقد أشاد طعلاء الشاعر بفصاحة معاوية فقال :

ركوب المنابر ونماها مصنف خطبته مجده
ترفع إليه هوادي الكلام إذا ضل خطبته المهدى^(١)

وقد روى ابن أبي الحديد جانباً من مفاخرات بني أمية وبني هاشم ، وكان مما تفاخروا به كثرة الخطباء ، وقد نفر بنو أمية بمعاوية بن أبي سفيان : « أخطب الناس قائماً وقاعدًا وعلى منبر وفي خطبة نكاح . » ويزيد ابنه « وكان أعرابي اللسان ، بدوي الملة » . ونفروا كذلك بعد الملك وسلیمان والوليد بن يزيد ويزيد الناقص كما نفروا من عرف بجادحة الخطابة من سائر الأسرة الأموية وأنصارها^(٢) .

ومن ألم خطباء البيت الأموي عتبة بن أبي سفيان ، وأجود خطبه ما قاله في مصر . وعمر بن سعيد الأشدق ، وهو من أسرة اشتهر أكثر أفرادها بالخطابة فأبوه سعيد بن العاصي خطيب مشهور وكذلك ابنه سعيد بن عمرو ، ومن أربع خطباء هذه الأسرة أيضاً عمرو بن خولة ، وسندود إلى هؤلاء حين تحدث عن الأسر التي اشتهرت بالخطابة .

ومن خطباء البيت الأموي أيضاً خالد بن يزيد ، وقد ذكر الجاحظ أنه كان خطبياً شاعراً وقصيحاً جاماً^(٣) .

وكانت جملة ولادة بني أمية خطباء مصاقع ، وفي طليعتهم زياد بن أبيه وابنه

(١) البيان ١/١٤٧ . ترجم إليه : ترجع . هوادي الكلام : أوائله .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٣/٤٧٧ .

(٣) البيان والتبين ١/٣٢٨ .

عبيد الله بن زياد ، على لكنه كافت فيه ^(١) . والحجاج بن يوسف وقد شهد أكثر النقاد ببلاغته وفصاحتها فقال أبو عمرو بن الصلاء : « لم أر قرويين أفصح من الحسن والحجاج ^(٢) » ، وقال مالك بن دينار : « ما رأيت أحداً أبى من الحجاج ، إن كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق وصفحه عنهم وإساءتهم إليه حتى أقول في نفسي : لا تحسبه صادقاً وإنما لا يظنه ظالماً له ^(٣) » . ومنهم خالد بن عبد الله القسري ، وهو بيت إلى أسرة اشتهرت بالخطابة فكان جده يزيد بن أسد خطيباً مشهوراً ، وقد خطب يوم صفين بحرض الناس على قتال علي ، وكان يلقب خطيب الشيطان . ويدرك أبو الفرج أنه كان أكذب الناس في كل شيء ، ثم نشأ ابنه عبد الله فسلك منهجه في الكذب ، ثم نشأ خالد ففاق الجماعة ، إلا أن رياسته وسخاءه كانا فيه مترا ذلك من أمره ^(٤) . ولما استعمل خالد على العراق قبل له « خطيب الله ^(٥) » . وعلى أنه عرف باللحن كان من ألم خطباء الحزب الاموي ، وقد شهد له المبرد أنه كان : « متقدماً في الخطابة ومتناهياً في البلاغة ^(٦) » . وقد عرف خالد بالقشادق في خطبه وإلى هذا أشار يحيى بن نوبل إذ قال بهجوه :

وأنحن الناس كل الناس قاطبة ^{وكان يُولَّع بالتشنديق في الخطاب} ^(٧)

وكذلك عرف من ولادة بني أمية بالخطابة قتيبة بن مسلم ، وقد اشتهر بخطبه الحربية التي كان يحضر بها جنده على القتال في غزوات ما وراء النهر ، والنعيم ابن بشير ، ويوسف بن عمر التقي ، وعثمان بن حيان المرادي والمدينة من قبل

(١) البيان والتبيين ١/١٣٤ .

(٢) البيان والتبيين ١/٦٣ .

(٣) المصدر السابق ٢/٢٦٨ .

(٤) الأغاني ١٩/٥٢ . ويدرك الجاحظ (البيان ٢/٢٧٥) أن لقب خطيب الشيطان كان يطلق على أبي يزيد وهو أسد بن كرز ، ورواية الأغاني أصح لأن أسداً هذا كان شاماً جاهلاً .

(٥) البيان ٢/٢٧٥ .

(٦) السكامل ١/٢٠ .

(٧) البيان والتبيين ١/١٢٢ .

الوليد بن عبد الملك ، والضحاك بن قيس الفوري ، وكان والياً على دمشق قبل أن ينقلب على بني أمية ، ورَوْحَ بْنِ زِبْنَاعَ وَالِي فِلَسْطِينِ أَيَّامَ يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةِ . وقد روى الجاحظ أن عبد الملك بن مروان سأله خالد بن سلمة المخزومي : « من أخطب الناس ، فقال : أنا . قال : ثم من . قال : سيد جذام - يعني روح بن زبناع - . قال : ثم من . قال : أَخْيَفْشْ تَقِيفْ ، يعني الحجاج . قال : ثم من ، قال : أمير المؤمنين . قال : ويحك جعلتني رابعاً أربعاً . قال : نعم ، هو ما سمعت^(١) » ومنهم نصر بن سمار أمير خراسان في الحقبة الأخيرة من العصر الأموي ، وكان من جمعوا بين إجاده الخطابة والشعر . ومنهم أسد بن عبد الله أخو خالد القسري ، ومنهم عبد الله بن عامر أول ولادة البصرة من قبل معاوية وبلال بن أبي بردة الأشعري والي البصرة وقاضاها ، وفيه يقول ذو الرمة :

فصلت بمحكمة فأصبت منها فصوص الحق فانفصل اتفصالاً^(٢)

وهو الذي فاق الخطباء في شتم الحجاج حين اجتمعوا في مجلس سليمان بن عبد الملك . ومنهم عبد الله بن عبد الله بن الأهتم والي خراسان ، وهو من آل الأهتم الذين حملوا لواء الخطابة في عصر بني أمية .

واشتهر من قادة بني أمية بالخطابة المطلب بن أبي صفرة هازم الأزارقة ومشتى شملهم ، وله خطب جيدة في الحث على قتال الخوارج ، ووصية مشهورة أوصى بها بنيه قبيل وفانه^(٣) . وطارق بن زياد وهو من الموالى ، وخطبته بالأندلس مشهورة . ومسلم بن عقبة المعربي صاحب وقمة الحرة ، وسفيان بن الأبرد قائد جيوش الشاميين في قتال الخارجين على بني أمية بالعراق ، وقد ذكر أبو عنان أنه كان يجمع بين الحار والقار فتساقطت جميع أسنانه وكانت مع ذلك خطيباً يينا^(٤) . وعتاب بن

(١) البيان والتبيين ٣٤٦/١ .

(٢) البيان ١٤٨/١ .

(٣) تاريخ الطبرى ١٦١/٥ .

(٤) البيان ٦١/١ .

ورقاء وكان يقص على جنده قصصاً كثيرةً محضًا على قتال شبيب الخارجي (١) وزائدة بن قدامة وهو أيضاً من قاتلوا شبيباً وكان يحرض أصحابه بخطبه على مناجزته (٢).

ومن وقف في صف بني أمية من الخطباء المشهورين مصقلة بن كرب بن رقبة وهو من أسرة عريقة في الفن الخطابي ، وقد دخل الكوفة مع الحجاج بعد وقعة دير الجاجم وأمره الحجاج أن يشم كل أمرىء بما فيه (٣). ويزيد بن المقفع صاحب الخطبة الموجزة المشهورة يوم دعا معاوية الناس لباتمة يزيد ، وقد دعاه معاوية سيد الخطباء (٤). وخالد بن سلمة الخزومي الذي كان يعرف بذى الفرس وذى الشفة (٥) وهو من أربع خطباء قريش ، وحين سأله عبد الملك من أخطب الناس قدم نفسه على الخطباء . وعبد الرحمن بن عثمان الثقفي وهو من الخطباء الذين شاركوا في الدعوة لباتمة يزيد . وزياد بن ظبيان التميمي وابنه عبيد الله بن زياد قاتل مصعب ابن الزبير ، وكان من أفتوك الناس وأخطبهم (٦). وزرعة بن ضمرة ، وهو الذي قيل فيه : « لو لا غلو فيه ما كان كلامه إلا الذهب ». وقد فاخر به معاوية أهل الشام حين خطب في مجلسه وقال : يا أهل الشام ، هذا خالي فاثتوبي بمخال منه (٧). وعبد الأعلى بن عبد الله بن عامر ، وكانوا يشبهونه بعمرو بن سعيد الأشدق بنفحة صوته وجهازته ، وكان سلمة بن عبد الملك أو هشام يقول : « إني لأنجح كور العامة عن أذني لأسمع كلام عبد الأعلى (٨) » ، وهو من فاخر بنو أمية منهم بنى هاشم . والفضيان بن القبيسي (٩) ، وكان من أنصار بي مروان في العراق الذين

(١) الطبرى ٨٩/٥ .

(٢) الطبرى ٧٤/٥ .

(٣) الطبرى ١٦٩/٥ .

(٤) العقد ٤/٣٧٠ .

(٥) اليان ٣٠/١ .

(٦) اليان ٣٢٥/١ .

(٧) اليان ٣٥٤/١ .

(٨) اليان ٤٤٤/١ .

كاثبهم عبد الملك حين قدم لقتال مصعب^(١) : دلما هلك بشر بن مروان وولي
الحجاج مكانه خطب في أهل الكوفة يحرضهم على قتال الحجاج ويدعوهم إلى أن
« يتغدووا به قبل أن يتعشوا بهم » . فلما قدم الحجاج الكوفة ظفر به خبره ثم
خلى سبيله^(٢) .

وثلاثة خطيب لم يحفظ بلون ميامي واحد هو شبت بن ربي فهـ تارة من أنصار علي ، وتارة من الخوارج ، وتارة ثالثة من أنصار الحزب الأموي .

ب - خطباء الخوارج

إن الفصاحة العربية الأصيلة إنما نجدها في خطباء الخوارج ، وقد عرف أكثر رجالهم بمهارة البيانية والبراعة في مجادلة خصومهم وفي الدفاع عن عقیدتهم ومبادئهم . وقد شهد عبيد الله بن زياد بفصاحتهم وأثر كلامهم في النفوس فقال : « الكلام هؤلاء أسرع إلى القلوب من النار إلى اليراع ^(٣) ». واشتهر من خطبائهم في صدر العصر الأموي المستورد بن علقة ، وقد أثرت عنه خطب كثيرة وطائفة من الأقوال الحكيمية . ومن عرف بالخطابة من جماعته حيان بن ظبيان السلمي ومعاذ بن جوين الطائي .

وكان في صفوف الأزارقة عدد وفر من الخطباء منهم قطري بن الفجاعة ، وقد نسب إليه الجاحظ خطبة طويلة تحدثنا عنها آنفاً ، وذكر الجاحظ أيضاً أن له كلاماً كثيراً محفوظاً (٤) . ومنهم عبد ربه ، و وزير بن علي وقد أورد المبرد شيئاً من خطبتهما (٥) . وعبيدة بن هلال البشكنري ، وهو الذي فاطر عبد الله بن

(١) الطبرى ٥/٦

(٢) مرسوج الذهب ١٤٦/٢

١٥٥ / ٢) الكامل (٣)

(٤) البيان ١/٤٤٢ .

(٥) الـكـامل ٢٤٣ ، ٢٠٠ / ٢

الزبير ، وقد وصف بعضهم بلاغة عبيدة في هذه الماظرة فقال : « ما سمعت فاطمة
قط ينطق كان أبلغ ولا أصوب قوله منه ، وإن كان ليجمع القول الكبير في المعنى
الخطير في اللفظ اليسير ^(١) ». وزيد بن جنديب الإيادي خطيب الأزارقة وشاعرهم
وقد أشاد الجاحظ بفضائحه وأورد بعض ما قيل في وصف بلاغته التي أصبحت
مضرب الأمثال فقال أحد شعراء إياد في معرض رثائه لـ أبي دواد الإيادي : ^(٢)

كفس إياد أو اقيط بن مبند وعدرة والمنطيق زيد بن جنديب ^(٣)
وذكر الجاحظ أنه كان أشغى أفلح ، وأنه لو لا ذلك لكان أخطب العرب ^(٤)
على أنها لا نجد فيها بين أيدينا من مصادر شيئاً من خطب زيد هذا ، وقد فقدت
فيها فقد من خطب الخوارج ، ولم ينته إلينا إلا ثتف من أشعاره أوردها الجاحظ
في البيان والتبيين . ومنهم المقصطل قاضي عسكر الأزارقة أيام قطري ^(٥) .

واشتهر من خطباء الصفرية عمران بن حطّان الذهلي ، وكان شاعر الصفرية
وخطيبهم ورئيس القعد فيهم وصاحب فتاوئهم ، ومفزعهم عند اختلافهم ^(٦) . وقد
خطب عند زياد خطبة انتزعت إعجاب سامعيها ، وقال أحدهم معلقاً عليها : « هذا
الفقي أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن ^(٧) ». وخطب ابن حطّان
ما فقد أيضاً ولم يصلنا إلا طائفة من أشعاره . ومن خطباء الصفرية الذين جموا
بين الشعر والخطابة الطرماح بن حكيم الطائي ، وكان صديقاً للكعبي شاعر الشيعة
وخطيبها ، وقد ذكر الجاحظ أن أحدهم أنسد الكعبي قول الطرماح في نفسه بن

إذا قبضت نفس الطرماح أخلفت عرى المجد واسترخي عنان القصائد
قال : « إني والله ، وعنان الخطابة والرواية ^(٨) ». ومن أشهر خطباء الصفرية

(١) الطبرى ٤/٤٣٧ .

(٢) البيان ١/٤٢ .

(٣) البيان ١/٥٥ .

(٤) البيان ١/٣٤٧ .

(٥) الكامل ٢/١٠٨ .

(٦) البيان ١/١١٨ .

(٧) البيان ١/٤٦ ، والمدائى يجعل الطرماح من الأزارقة لا من الصفرية .

صالح بن مُسْرَّح ، وقد ذَكَر الطبرى أَنَّهُ كَانَ لِهِ أَصْحَابٌ يَقْرَئُونَ الْقُرْآنَ وَيَفْقِهُونَ وَيَهْتَضُّ عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ رُوِيَ جَانِبًاً مِّنْ قَصْصِهِ^(١) . وَمِنْهُمُ الصَّحَّاكَ بْنُ قَيْسَ الشَّيْبَانِيُّ الَّذِي خَرَجَ فِي أَوَاخِرِ أَيَّامِ بَنِي أُمَّيَّةِ وَمَلَكَ الْعَرَاقَ حَقْبَةً مِّنْ الزَّمْنِ . وَمِنْ خُطَبَاءِ الْصَّفْرِيَّةِ الَّذِينَ ذَكَرُوهُمُ الْجَاحِظُ وَلَمْ يَصِلْنَا شَيْءٌ مِّنْ خُطَبِهِمْ شَبُّيْشَلَ بْنُ عَزْرَةَ الْضَّبْعَى . وَكَانَ فِي مِبْدَأِ أَمْرِهِ رَافِضِيَا ثُمَّ صَارَ صَفْرِيَا^(٢) .

وَمِنِ الْإِبَاضِيَّةِ ظَهَرَ أَبُو حِمْزَةَ الشَّارِيُّ أَبْرَعُ خُطَبَاءِ الْخُوارِجِ قَاطِبَةً . وَمِنْ حَسْنِ الْحَظِّ أَنَّ الْمُؤْرِخِينَ عَنْهُمْ نَعْنَوْا بِخُطَبَهُ فَلَمْ تَفْقَدْ شَأْنَ أَكْثَرِ خُطَبِ الْخُوارِجِ . وَخُطَبَهُ الَّتِي اتَّهَمَتْ إِلَيْنَا تَضَعُفَهُ فِي مَصَافِ الْمُعْلَمِ خُطَبَاءِ الْمَصْرِ الْأُمُوَيِّ . وَمِنَ الْمُجَبِّبِ أَنَّ الْجَاحِظَ أَغْفَلَ ذَكْرَ أَبِي حِمْزَةِ حِينَ عَدَدَ خُطَبَاءِ الْخُوارِجِ مَعَ أَنَّهُ ذَكَرَ أَسْمَاءَ خُطَبَاءِ لَمْ يَدْرِكُوا بَعْضُ مَا أَدْرَكَهُ أَبُو حِمْزَةُ مِنَ الْمَقْدَرَةِ الْخَطَابِيَّةِ وَالْمَهَارَةِ الْبَيَانِيَّةِ . وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَحْيَى طَالِبُ الْحَقِّ رَأْسُ الْإِبَاضِيَّةِ فِي عَصْرِهِ خُطَيبًا مُجِيدًا ، وَقَدْ أَوْرَدَ أَبُو الْفَرْجِ طَرْفًا مِّنْ خُطَبِهِ^(٣) .

ج — خُطَبَاءُ الشِّيَعَةِ وَبَنِي هَاشِمٍ

عُرِفَ جَلَّ رَجُلُ بَنِي هَاشِمٍ بِفَصَاحَةِ الْلِّسَانِ وَإِجَادَةِ الْخُطَابَةِ وَبِخُضُورِ الْبَدِيهِيَّةِ عَنْدَ تَفَاظُرِ الْأَقْرَانِ وَتَبَارِيِّ مُقاوْلِ الْكَلَامِ . وَقَدْ شَهَدَ لَهُمْ بِهَذِهِ الْبَرَاعَةِ الْفَوْلَيْةِ أَفْسَارُهُمْ وَخُصُومُهُمْ عَلَى السَّوَاءِ . رُوِيَ صَاحِبُ الْمَعْدَدِ أَنَّ مَعَاوِيَةَ بْنِيْهَا كَانَ جَالِسًا فِي أَحْصَابِهِ إِذْ قِيلَ لَهُ إِنَّ الْحَسْنَ بِالْبَابِ ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : « إِنْ دَخَلَ أَفْسَدُ عَلَيْنَا مَا نَحْنُ فِيهِ » . فَقَالَ لَهُ مَرْوَانُ : « ابْذُنْ لَهُ ، فَلَوْنِي أَسْأَلُهُ مَا لَيْسَ عَنْهُ قِيَةً جَوَابٌ » . فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : « لَا تَفْعَلْ ، فَلَوْنِهِمْ قَوْمٌ قَدْ أَهْمَمُوا الْكَلَامَ^(٤) » .

(١) الطبرى ٥٠٥.

(٢) البيان ٣٤٣/١.

(٣) الأغاقي ٩٨/٢٠.

(٤) المقد المفرد ٤/٢٠.

وقد ورث الحسن بن علي وأخوه الحسين بن علي عن أبيها فصاحة الناس والبراعة الخطابية ، إلا أنها لم يبلغوا في ذلك مبلغ أبيها صيد خطباء عصره . وعلى الرغم مما عرف به الحسن من ثقل الناس كان خطيباً مجيداً حاضر البديبة ، وقد أراد عمرو بن العاص أن يظهر عليه الناس فأشار على معاوية أن يطلب إليه الخطابة، يوم عقد الصلح بينهما ، فقام الحسن خطب وأجاد ، ولم تخسل خطبته من بعض التعریض بمعاوية ، فلم يزل معاوية حافظاً على عمرو بسبب مشورته هذه ^(١) . وشهد له معاوية ، فيها يروي ابن أبي الحديدة ، أنه « من لا تطاق عارضته ^(٢) » . ولم يكن محمد بن الحنفية دون أخيه بلاغة وفصاحة لسان .

و كذلك كان زيد بن علي من الخطباء المفوهين ، وقد شهد له الكثيرون
بالمهارة الخطابية ، وذكر الجاحظ أنه كان خطيباً لا يجارى (٣) . ومن المؤسف أنه
لم يصلنا شيء من خطبه نستدل به على مبلغ فصاحته ، وحين قدم علي هشام بن
عبد الملك رأى فيه « رجلاً جدلاً لسناً خليقاً لتمويه الكلام وصوغه واجترار
الرجال مخلوة لسانه ، وبكثرة مخارجه في حججه (٤) ... »

ومن خطباء بني هاشم الذين ملکوا فاصية القول عبد الله بن عباس وقد عدده
المجاھظ من الخطباء الذين لا يضاهون ولا يجارون ، وروى عنه أنه خطب بمكة
خطبة لو سمعتها الترك والديلم لأسلحتنا ، ثم روى قول حسان بن ثابت فيه :
إذا قال لم يترك مقاولا لقائلا بملائكة طات لا ترى بينما فضلا

إلى آخر الأبيات (٥) . وقد استطاع ابن عباس بذلاقة لسانه وقوه جته إفحام
الخوارج حين ناظرهم ودحض أقوالهم ، وقال له الخوارج حين ناظرهم في السماء
وغلبهم : « أمسك عنا غرب لسانك يا بن عباس ففانه طلق ذاق غواص على موضع

(١) الطري ٤/١٢٤.

(٢) شرح ابن أبي الحميد ١٠١/٢

٣٥٣/١) الیان (٤)

الطبري ٤٨٩/٥ (٤)

(٥) المیان ۱/۳۴۰.

الحجفة^(١) . وكان ابن عباس بطل حمل المفاحرات التي جرت بين بنى هاشم وبنى أمية ، وكذلك المفاحرات التي وقعت بين بنى هاشم وابن الزبير ، وكانت جميع هذه المفاحرات تنتهي بتغلب ابن عباس وظهور حجمه على خصوصه . وما قدمناه بين يدي البحث من شرائطنا في صحة كثير من هذه المفاحرات لا يطعن في بلاغة ابن عباس ومهارته الجدلية ، ومن الحق أن الحزب الهاشمي لم يعرف خطيباً أربع منه في الجدل والمحاجة ومناظرة القرآن .

ومن خطباء البيت الهاشمي اللامعين عبد الله بن جعفر ، وحفيدته عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ، وكان شاعراً بينما وخطيباً لسنا ، وحين دعا يوسف ابن عمر خطباء الطالبيين إلى التبرؤ من زيد بن علي خطب عبد الله فأطلب وانصرف الناس وهم يقولون : ابن الطيار أخطب الناس^(٢) . ومتهم عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي ، وأنخوه جعفر بن الحسن ، وقد ذكر الجاحظ أنه كان أحد من ينافع زيداً في الوصية ، فكان الناس يجتمعون ليسمعوا محاوراتهما^(٣) .

وكانت في شيعة علي وأنصار الطالبيين طائفة من الخطباء المفوهين في طليعتهم ضميمة بن سوحان الذي كانت له محاورات مشهورة مع معاوية وابن عباس . واشتهر من خطباء الشيعة أيضاً المختار الثقفي ، وقد رأيناه يسلك في خطابته مسلكاً يتميز به من بين سائر خطباء عصره ، في حرشه على السجع ومحاكاة كلام الكهان والمتقبلين . وكان في التوابين عدد من الخطباء والداعية المجيدين منهم شيخهم مسلمان ابن صرد والمسيب بن نحبة ورفاعة بن شداد ، وعبيد الله بن عبد الله المري ، وقد شهد له بعض من سمعه بأنه لم يكن أبلغ منه في منطق ولا عظة^(٤) . وكان زهير ابن القين ، بلقيعاً مفوهاً نصر الحسين بسيفه ولسانه ، ومن أنصار العلوين الذين جمعوا بين إجاده الشعر والخطابة الكبيرة بن زيد ، قوله خطبة مشهورة يستعطف

(١) السكامل للمرد ١٤٩/٢ .

(٢) البيان ٣١٢/١ .

(٣) البيان ٣٣٤/١ .

(٤) الطبرى ٤٣٢/٤ .

بها هشام بن عبد الملك^(١) ، والحارود بن أبي سبرة المهدلي الذي قال فيه الحجاج حين سمع حدثه وحسن بيانه : « ما ظننت أن بالعراق مثل هذا ». وكان الحارود يقول : « ما أمكنني والقط من أذنه إلا غلبت عليه^(٢) » .

وحيث قامت الدعوة العباسية شد أزرها عدد من الخطباء والداعية منهم مسلمان ابن كثير وطلحة بن رزيق . وقد أشاد الطبرى بفصاحتها^(٣) ، وخطبة بن شبيب ، وله خطب يشير بها الخرامانين على بي أمية والعرب . والقاسم بن مجاشع ، وكان يصلى بشيعة بي العباس ثم يقص الفحص فذكر فضل بي هاشم ومهما يب بي أمية^(٤) . وكل هؤلاء من النقباء الائتى عشر الدين اختارهم محمد بن علي ليكونوا دعاة لبني العباس .

د — سائر الخطباء المناهضين لبني أمية

ظهر في صفوف سائر الأحزاب والثائرين على بي أمية طائفة من الخطباء اللامعين وفي طليعتهم عبد الله بن الزبير ، رأس الحزب الزبيري ، وقد شهد له بعضهم بأنه كان من أحسن الناس حدثاً ، وأن من الفصحاء من كان يحرص على محاكاته^(٥) . ولما مُثُل سعيد بن المسيب عن أبلغ الناس جعل معاوية وسعيد بن العاص وابنها عبد الله بن الزبير في مرتبة واحدة ، ولكن كلام ابن الزبير ، عنده ، كان يفتقر إلى الطلاوة^(٦) . ونبغ في آل الزبير طائفة من بحيري الخطباء منهم مصعب ابن الزبير ، وعمان بن عروة بن ازبير ، وأخوه عبد الله بن عروة ، وكان هذا من أربع الخطباء وكأنوا يشبهونه في بلاغته بخالد بن صفواف^(٧) . ومن خطباء

(١) الأغاني ١١٣/١٥ .

(٢) البيان ٣٢٩/١ .

(٣) الطبرى ٤٤/٦ .

(٤) الطبرى ٣٤/٦ .

(٥) البيان ١٧٣/١ .

(٦) البيان ٣١٤/١ .

(٧) المعارف ص ٩٨ .

الحزب الزبيدي اثنان من ولاء ابن الزبير على الكوفة هما عبد الله بن يزيد الأنصاري وعبد الله بن مطیع المدّوی .

ولما ثار ابن الأشعث على بني أمية ظاهره عدد من الخطباء وكان عبد الرحمن ابن الأشعث نفسه خطيباً وكان في جيشه كثير من الفحاص والخطباء بمحرضون القوم على قتال أهل الشام اشتهر منهم عامر بن وائلة الكنافی ، وعبد المؤمن بن شبات ابن ربعی ، وكان علماً من أعلام الخطابة ، وذر بن عبد الله ، وكان من أبلغ الناس في الفحص ^(١). وأیوب بن القریۃ وكان بمحرض الناس على الحجاج ويقول لهم: قدروا الجدی قبل أن يتقدّم ^(٢) ، ولما قتله الحجاج أدركه الندم وتنى لو استبقاه ليسمع من كلامه ^(٣) ، وعلى الرغم من أنه كان أمیئاً كانت له منزلة خطابية كبيرة، ويدکر الجاحظ أنه كان عند العامة أشهر في الخطابة من سبیان وائل ^(٤) . ومنهم أعشی کھدان وهو من جمع بين الشعر والخطابة ، وكان من قتله الحجاج خروجه مع ابن الأشعث ^(٥) . وعمران بن عاصم العنزي ، وكان خطيباً شاعراً ظاهر في أول أمره بني أمیة ، وكان من أشار على عبد الملك بخلع أخيه عبد العزیز عن ولایة العهد ، ويدکر الجاحظ أنه قال بهذه المناسبة خطبة مشهورة وقصيدة ^(٦) ، ثم خرج مع ابن الأشعث وظفر به الحجاج فقتله ^(٧) . ومنهم النمان بن زرعة بن ضمیرة ، وقد ظاهر ابن الأشعث على الرغم من أن آباءه كان من أنصار بني أمیة وترتبطه بعماوية آصرة القریۃ . ولما وقع النمان في يد الحجاج استطاع التخلص من القتل بلطیف اعتذاره ^(٨) .

(١) طبقات ابن سعد ٦/٢٠٥ .

(٢) البيان ١/٤٥٠ .

(٣) الطبری ٥/١٨٦ .

(٤) البيان ١/٢٠ .

(٥) الطبری ٥/١٨٠ .

(٦) البيان ١/٤٨ .

(٧) الأغاني ٦/٥٨ .

(٨) البيان ١/٣٥٤ .

ولم يتحقق لابن المهلب أن يضم إليه خطيباء كثييرين كالذين وجدوا في ثورة ابن الأشمت ، وكان يزيد بن المهلب نفسه خطيباً ، وكذلك كان أخوه مروان بن المهلب محمد الخطابة .

ومن الخطباء الذين بطنهم الحجاج مُشجّور بن عَيْلان بن خَرْشة ، وقد ذكر الجاحظ أنه كان من خطباء بني ضبة وعلمائهم وفيه يقول أحد الشعراء :
إذا قال بِنْدَ القائليين مقاله ويأخذ من أكفاءه بالمحقق^(١)

وَثِيَّةُ خطيب لم يكن له لون سياسى ثابت ، شأن شبث بن ربي ، هو صبرة ابن شهان الأردي ، كان رئيس الأزد يوم الجمل طالباً بشار عثمان ، ثم مال إلى شيعة علي وقت قومه على إجازة زياد في فتنة ابن الحضرمي ^(٢) ، ثم مشى في دركب بنى أمية لما صار الأمر إليهم ، وكان خطيب قومه يفخر بهم في مجالس الخلفاء ، وقد روت كتب الأدب خطبته القصيرة التي قالها في مجالس معاوية مفاخرًا خطباء نزار ^(٣) .

٣- الأمر الذي اشتهرت بالخطابة في هذا العصر

حين ننظر في الخطابة الجاهلية والإسلامية نلاحظ أن ثمة قبائل كانت الملكة الخطابية فيها أكثر شيوعاً منها في القبائل الأخرى ، ولذلك كثُر فيها الخطباء المخلون وهي قبائل إباد وتميم وعبد القيس . وقد ظلت هذه القبائل الثلاث شهرتها الخطابية في العصر الأموي ، على أنها لم تختكر وحدها البراعة الخطابية فقد نافستها في هذا المضمار قبائل قريش المضوية ، وتقيف القيسية ، ومشيغان الربعية ، والأزد اليمنية ، فكانت كثرة الخطباء الأمويين من هذه القبائل التي ذكرناها .

وفي بعض هذه القبائل لم تكن الممارسة البيانية شائعة في أفرادها جمِيعاً وإنما كانت تتجلى في أسر دون غيرها، وكانت الموهبة الخطابية فيها إرثاً يتوارثه الأبناء

(١) البيان ٣٤٦/١

٣٤٨/١ المحدث ابن أبي شرحبيل

١٨/٥) الكامل للمرد .

عن الآباء . ففي قبيلة عبد القيس الربعية نجد في هذا العصر أسرة عريقة في الفن الخطابي هي أسرة آل رقبة . وفي قبيلة تميم حملت لواء الخطابة أسرة ظفرت بقسطط كبير من الشهرة الخطابية في هذا العصر وفي العصر العباسي هي أسرة آل الأهم . وفي الدوحة القرشية نجد عدداً من الأئم مالقاً نجومها في الفن القولي منها الأسرة الماشمية والأسرة الاموية وآل الزبير وآل العاص .

ومنقف وقفة قصيرة عند الأسر غير القرشية ، أما قريش فقد أعطتنا الفضول السابقة فكرة واضحة عن خطبائها البارزين ، ولا سيما خطباء بي هاشم وبي أمية ، ولذلك سنجترىء بالكلام على أسرة واحدة منها هي أسرة آل العاص .

وكذلك نجد في هذا العصر ظاهرة جديدة هي ظهور خطباء من العناصر غير العربية ، ولا سيما في مجال الخطابة الدينية ، وقد برعت في هذه الخطابة أسرة فارسية الأصل هي أسرة الرقاشيين .



آل رقبة

تنتمي هذه الأسرة إلى قبيلة عبد القيس الربعية ، وهي من الأسر العريقة في الفن الخطابي . وقد ذكر الجاحظ أن قبيلة عبد القيس تفرقت بعد محاربة إياها فرقتين نزلت إحداهما عمان وهم خطباء العرب ، واستوطنت الثانية البحرين وهم من أشعر قبائل العرب ، ويظهر أبو عثمان عجبه لظهور هذه المواهب فيهم بعد فراقهم موطنهم الأول ، مع أنها لم تتجلى فيهم حين كانوا في « سرقة البدية ومعدن الفصاحة »^(١) . وذكر الجاحظ أسماء عدة من خطباء آل رقبة ولكنه ، كذابه ، لم يعن بيان تسلسلهم الزمني ، فذكر منهم : مصقلة بن رقبة ، ورقبة بن مصقلة ، وكرب بن رقبة^(٢) . ولم يذكر ابن دريد إلا واحداً من هذه الأسرة هو مصقلة بن كرب

(١) البيان ٩٦/١ .

(٢) البيان ٣٤٨/١ .

بن رقبة بن خوتة، وقال إنه الخطيب^(١). ويظهر أن الذين ترجموا خطباء هذه الأسرة قد اضطربوا في ذكر أسمائهم، وربما كان من دواعي هذا الانضطراب اشتراك أكثر من خطيب منهم في اسم واحد.

ولعل أول من اشتهر بالخطابة منهم هو كرب بن رقبة ثم جاء بعده ابنه مصقلة بن كرب بن رقبة وهو أشهر خطباء هذه الأسرة، وقد ذكره ابن قتيبة ولكن دعاه مصقلة بن رقبة وذكر أنه كان أخطب الناس زمن الحجاج^(٢). وذكر الطبرى أن الحجاج لما دخل الكوفة بعد هزيمة ابن الأشعث بدير الجاجم أجلس مصقلة بن كرب بن رقبة إلى جنبه وأمره أن يخطب فيشتم كل أمرىء بما فيه^(٣). وكان المصقلة لهذا ولدانها: كرب بن مصقلة ورقبة بن مصقلة، وكان لكرب خطبة يقال لها «المجوز»^(٤)، وكان آن رقبة يفخرؤن بهذه الخطبة «ومق نكلموا فلا بد لهم منها أو من بعضها»^(٥). ومن المؤسف أن هذه الخطبة لم تصلنا كلاماً مكتوباً أية خطبة لآل رقبة. وقد عرف رقبة بن مصقلة بالتفوى وعده ابن حجر في رواة الحديث الثقات، ووصفه أنه كان خطبياً مفوهاً، ونقل عن ابن الأثير أن وفاته كانت سنة ١٢٩^{هـ}^(٦). ولرقبة هذا أخبار متفرقة في البيان وغيره يستدل منها على ما عرف به من درع وتفوى. ولما كاتبه ألف المدائني كتاباً في أخباره^(٧). ونستدل من خبر أورده المحافظ على أن ما عرفت به هذه الأسرة من المسن والفصاحة لم يكن وفقاً على الرجال فحسب بل عرف به نساؤها أيضاً^(٨).

(١) الاشراق لابن دريد ص ١٩٦ .

(٢) المعارف ص ١٧٧ .

(٣) الطبرى ١٦٩/٥ .

(٤) المعارف ص ١٧٧ .

(٥) البيان ١/٣٤٨ .

(٦) تهذيب التهذيب لابن حجر ٢٨٦/٣ .

(٧) فهرست ابن الدجيم ص ١٠٠ .

(٨) البيان ٢/١٠٠ .

آل الأهم

أنجيت قبيلة قيم أسرة تعتبر من أعرق الأسر العربية في الفن الخطابي وهي أسرة آل الأهم المنقرية . وقد تجلت براعة آل الأهم الخطابية منذ العصر الجاهلي ، وتوارث أفراد هذه الأسرة الموهبة البيانية فتألق نجم خطبائها طوال العصرين الإسلامي والأموي وفي الحقبة الأولى من العصر العباسي .

وأول من انتهت إلينا أخباره من خطباء هذه الأسرة عمرو بن الأهم ، وهو الذي قال الرسول حين سمع كلامه وأعجب بيلاعنه : « إن من البيان لسحرا (١) » ، وكان أخوه عبد الله بن الأهم ، خطيباً ذا مقامات ووفادات (٢) ومن نسل عبد الله هذا ظهر سائر خطباء آل الأهم ، فكان له ولدان اشتهرتا بالخطابة هما : صفوان بن عبد الله بن الأهم وعبد الله بن عبد الله بن الأهم ، وقد أصاب هذا منزلة رفيعة في عصر بني أمية فولي خراسان ووقد على الخلفاء وخطب عندهم ، وحدثنا أنه دخل على عمر بن عبد العزيز مع العامة فألقى بين يديه خطبة طويلة حرض فيها بأصلاف عمر ، وصارحه فيها بأنه منذ قضى أبو بكر وعمر لم يجتمع أمر المسلمين إلا على « ضلع أوج » (٣) ، وكان عبد الله هذا في جملة من أوفرهم عدي بن أرطاة إلى المهابة حين خلعوا طاعة يزيد بن عبد الملك (٤) .

وفي الحقبة الأخيرة من عصر بني أمية ظهر من هذه الأسرة خطبيان أصبايا خطئاً بعيداً من الشهرة الخطابية ، هما خالد بن صفوان بن عبد الله بن الأهم وشبيب ابن شيبة بن عبد الله بن الأهم . وكان هذان الخطبيان في جملة الخطباء الذين تباروا في مجلس عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، وكانت بينهما منافسة شديدة في مضارب البلاغة والخطابة ، وأشار الجاحظ إلى هذه المنافسة التي كانت

(١) البيان ٥٣/١

(٢) البيان ٣٥٠/١

(٣) البيان ١١٧/٢ ، والعقد ٤/٩٣ وفي بعض الروايات : « على ظلم » مكان « على ضل أوج »

(٤) البيان ١٧٣/٢

لبنها « الذي اجتمع فيها من اتفاق الصناعة والقرابة والمحاورة »^(١) ، وكان من آثار هذا التنافس أن كلا منها كان يحاول أن يعرض بصاحبه ، فكان خالد يقول في شبيب مثلا : « ليس له صديق في السر ، ولا عدو في العلانية »^(٢) .

وقد شهد الجاحظ ببلاغتها فقال : « وما علمت أنه كان في الخطباء أحد كان أجواد خطبائنا من خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة الذي يحفظه الناس ويدور على ألسنتهم من كلامهم ، وما أعلم أن أحداً ولد لها حرفًا واحدًا »^(٣) .

وعلى ما اتصف به خالد من البلاغة واللسان كان من عروفا بالحن ، وكان يدخل على بلال بن أبي بردة ، والي البصرة ، يمدحه فيلحن فيقول له بلال : « أتحدثي أحاديث الخلفاء وتلحن لحن السقاءات » ، فـكان هذا فيها ذكروا سبب إقباله على تعلم الإعراب^(٤) . وكانت صلة خالد وثيقة بهشام بن عبد الملك ، كان يفد عليه وبمحدهه وربما وعظه فأبكاه^(٥) . ويستخلص من بعض الأخبار أن بصره كف في ولادة بلال بن ابن بردة على البصرة^(٦) . وشهد خالد انهايار الحكم الأموي وقيام الدولة العباسية ، وكانت صلته وثيقة بأبي العباس السفاح ، وكان من سماره وأهل المنزلة عنده ، فيها يروي الجاحظ^(٧) . وقد فاخرة بعض اليمنية في مجلس أبي العباس فرد عليهم ردًا مفحمًا^(٨) ، وعلق الجاحظ على هذا الرد بقوله : « فائن كان خالد قد فكر وتدبر لهذا الكلام ، إنه المراوية الحافظ والمؤلف المجيد . ولئن كان هذا شيئاً حضره حين حرك وبسط فماله نظير في الدنيا »^(٩) .

(١) البيان ٤٧/١ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) البيان ٣١٧/١ .

(٤) الكامل للبرد ٤٦٢/١ .

(٥) عيون الأخبار ٤٤١/٢ .

(٦) الكامل ٤٦٢/١ .

(٧) البيان ٣٣٩/١ .

(٨) زهر الأدب ١٣٠/٤ .

(٩) البيان ٣٣٩/١ .

وأدرك خالد زمن المنصور فقد ذكر المبرد أن جفوة وقعت بينه وبين سليمان بن علي عم الخليفة المنصور ووالي البصرة من قبله ، وأن سليمان أعرض عنه لذمه ولديه ^(١) . وقد أطري بلاغة خالد كثير من النقاد والأدباء ، وكان الجاحظ من أشد المعجبين ببيانه وذلاقة لسانه ووصفه بأنه « ذكر الناس لأول كلامه وأحفظ لهم لكل شيء سلف من منطقه ^(٢) ». وجمله المبرد « أحد من إذا عرض له القول قال ^(٣) » ، وقال فيه الشاعر مكي بن سوادة :

علیم بتنزيل الكلام ملقن ذکور لما سداده أول أولا
بین قریع القوم في كل محفل وإن كان سجیان الخطیب ودغفل
تری خطباء القوم يوم ارتجاله كانواهم الكروان عین آجدلا ^(٤)

وكان شبيب قريباً لابن عميه خالد في البلاغة والخطابة ، ولكنه لم يكن في منزلة خالد بلاغة وبياناً . قال الحصري : « و كان شبيب من أفعى الناس وأخطبوthem ويشبه بخالد بن صفوان ، غير أن خالداً كان أعلى منه قدرًا في الخاصة والعامة ^(٥) ». وكان شبيب من خطباء المحافل المعدودين ، وقد أثر عنه كلام يوصي فيه الخطباء بالحرص على السلامة من الخطأ حين يتصدرون للخطابة في المجالس والمقامات ^(٦) . وحدثنا الجاحظ عن مهارة شبيب في هذه المقامات فقال : « إنهم لم يروا قط خطيباً بلديئاً إلا وهو في أول تكلفه لتلك المقامات كان مستيقلاً متكلفاً أيام رياضته لها ، إلى أن يتوقع و تستجيب له المعاني ، ويتمكن من الألفاظ . إلا شبيب بن شيبة فإنه كان قد ابتدأ بحلوة ورشاقة ، وسهولة وعدوابة ، فلم يزل يزداد فيها حتى صار في كل موقف يبلغ بقليل الكلام مالا يبلغه الخطباء المصاقع بكثيره ^(٧) . »

(١) الكامل ٢٦٣/١ .

(٢) البيان ٣٣٩/١ .

(٣) الكامل ٢٦٣/١ .

(٤) البيان ٢٤٠/١ الأجدل : الصغر

(٥) زهر الأدب ٣٢/٤

(٦) البيان ١١٢/١

(٧) المصدر السابق .

وتشبيب أيضاً كان من مخضري الدوامين ، وكان مقرباً من المهدى ، يجادله ويعظه ويصحبه في بعض أسفاره ^(١) ، ولما توفيت الياقوتة بنت المهدى واشتهر جزءه عليها دخل المزون واجتهدوا في القول فلم يلغ أحد منهم مبلغ شبيب في ذلك ^(٢) . وقد حدثنا أن أحد الأمراء أو الخلفاء - وعلمه المهدى - أراد أن يتحقق بداعه شبيب ، وقد ذكر له أنه يستعمل الكلام ويستعد له ، فأمر رسوله فأخذ بيده فأصعده المنبر ، فابتداه خطبة في الثناء على الخليفة برهن فيها على مقدرته على ابتداء الكلام ^(٣) . ولما توفي شبيب عزى صالح المري أهله وأبن شبيباً بقوله : « رحمة الله على أديب الملوك ، وجليس الفقراء ، وأخي المساكين » ^(٤) .

ثم توالت الخطباء من آل الأهم بعد خالد وشبيب ، وقد ذكر الجاحظ طائفة منهم في البيان والتبيين ^(٥) .

آل العاص

من الأسر القرشية التي كانت لها أصالة في الفن الخطابي آل العاص ، واشتهر بالخطابة منها في العصر الأموي سعيد بن العاص وكان سعيد هذا وابنه عمرو من فاخر بني بني أمية الهاشميين ^(٦) . وقد ولـي سعيد هذا المدينة لـعاوية أكثر من مرة وكان أحد الأجواد المعادون . وابنه عمرو بن سعيد الأشدق ، أشهر خطباء هذه الأسرة ، وقد قيل إنه لقب بالأشدق لشادقه في كلامه أو لبلاغته ، أو لأنـه كان أفقـم مـائل الذـقـن ، ولذلك قـيل له « لـطـيم الشـيـطـان » ^(٧) ، وفيه يقول أحدـ الشـعـراءـ : شـادـقـ حـتـىـ يـالـ بـالـقـوـلـ شـدـقـهـ وكلـ خطـيبـ، لاـ أـبـالـكـ، أـشـدقـ ^(٨)

(١) البيان ٢/١٠٠ ، ٢٥٩ .

(٢) الطبرى ٦/٤٠٥ .

(٣) زهر الأدب ٤/٣٢ والعقد ٤/١٣٦ .

(٤) البيان ١/١١٣ .

(٥) انظر البيان ١/٣٥٥ .

(٦) شرح ابن أبي الحديد ٣/٤٧٧ .

(٧) البيان ١/١٢١ .

(٨) البيان ١/٣١٥ .

وجاء بعده ابنه سعيد بن عمرو وكان خطيباً ناصباً ، دخل على عبد الملك مع قريش وأشرفهم ، فتكلموا من قيام ، وتكلم وهو جالس ، فتبسم عبد الملك وقال: « لقد رجوت عترته ، ولقد أحسن حتى خفت عترته » (١) .

ومن ولد سعيد بن العاص عمرو بن سعيد المعروف بعمرو بن خولة ، نسبة إلى أمه ، وكان من الخطباء الذين فاخر بهم فهو أمية الماشيين ، وقد روي عن ابن عائشة أنه مامن خطيب شاهد عمراً هذا إلا وجلجح هيبة له ومعرفة باتفاقاته (٢) ، وذكر الجاحظ أنه كان ناسكاً يجتمع إليه القراء والعلماء (٣) .

الرقاشيون

في ميدان الخطابة الدينية ، والقصص خاصة ، اشتهرت أسرة فارسية الأصل تسمى بالولاء إلى قبيلة رقاش البدوية ، وقد ذكر أبو عبيدة شيئاً من تاريخ هذه الأسرة فقال لهم كانوا خطباء الأكاسرة ، فلما سبوا وخالفوا العرب ، نزعهم ذلك العرق « فقاموا في أهل هذه اللغة كفاماهم في أهل تلك اللغة ، وفيهم شعر وخطب ، وما زالوا كذلك حتى أصهروا إليهم الفرباء ففسد ذلك العرق ودخله الخوار » (٤) .

وأول من ذاع صيته في العصر الأموي منهم يزبد بن أبان الرقاشي ، كان من أصحاب أنس بن مالك والحسن البصري ، وكان من الخطباء المدوين والقصاصين الجيدين ، وقد روى ابن قتيبة والجاحظ جانباً من كلامه في الزهد والموعظة (٥) . وتكلم مرة في مجلس الحسن ، وأعرابيان حاضران ، فقال أحدهما لصاحبه : كيف رأيت الرجلين . فقال : « أما الأول فقاوس مجید ، وأما الآخر - أبي الحسن -

(١) البيان ٣١٦/١ .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٤٧٧/٣ .

(٣) البيان ١٧٣/٣ .

(٤) البيان ٣٠٨/١ .

(٥) عيون الأخبار ٢٩٥/٣ وما بعدها والبيان في مواضع متفرقة .

غوري محكك^(١) . وهذا الخبر ينبعنا بظهور الطابع الفارسي في خطب هذه الأسرة ، وقد يكون لأصلهم الفارسي أثر في توجيههم السجع في خطبهم وقصصهم .

وفي بعد يزيد بن إبان ابن أخيه الفضل بن عيسى بن إبان ، وهو أحد الخطباء الذين تكلموا في مجلس عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، وقد عرف كذلك بالسجع في قصصه ، وكان عمرو بن عبيد من يحضر مجلسه ، وكان رئيس إحدى طوائف المعتزلة^(٢) .

وكان ابنه عبد الصمد بن الفضل ، أغزر من أبيه وأبنه وأخوه^(٣) ، وكان كأبيه ميالا إلى السجع في كلامه ، وله كلام يعلل به سبب إشارته الأسلوب المسجع على المرسل^(٤) ، وكان عبد الصمد هذا من مخضر مي الدولتين^(٥) .



(١) البيان ٢٠٤/١ .

(٢) البيان ٣٠٦/١ .

(٣) البيان ٣٠٨/١ .

(٤) البيان ٢٨٧/١ .

(٥) يرجح أن تكون وفاته حوالي منتصف القرن الثاني الهجري إذ أن ابن الفضل بن عبد الصمد شاعر البرامكة ، توفي في حدود المائتين ، وفقاً لذكره الكتبى في فوات الوفيات (١٢٥/٢) .

زياد بن أبيه

فاتحة أمره

ولد زياد في مدينة الطائف ، موطن قبيلة ثقيف التي أنجحت ألم ولة بني أمية وقوادهم . وليس بين أيدينا من الأخبار عن الحقبة الأولى من حياة زياد ما فيه غباء ، فإن الفموض يحيط بأخبار مولده ونشأته وما أصابه من ألوان المعرفة والعلم في موطنه الأول . ومنذ عهد عمر يبدأ الضباب الذي يغشى أخبار نشأته في التفاصي فلذا بنا نجد زياداً حاسباً ماهراً بكل إليه الولاة وقادة حملات الفتوح أمر الكتابة وتوزيع الغنائم على الجندي . ولكننا لانعلم من الذي علمه الكتابة والحساب ومن هم أساتذته الذين أخذ عنهم معارفه . ومهما يكن من أمر فإننا سنحاول أن نتعمق طريقنا وسط هذا الضباب ، معتمدين على بعض الأخبار التي انتهت إلينا من جهة وعلى الاستقراء والاستنتاج من جهة أخرى ، ريثما يبلغ المرحلة التي تتوافر فيها أخبار زياد فتضمن بها معلم الطريق .

وأول اضطراب وقع فيه الذين أرخوا لزياد هو في تحديد مدة ولاده . فأبو عبيدة وأكثر المؤرخين يجعلون ولادته في عام الهجرة ^(١) ، وقد رأى بعض المستشرقين أن في هذا التحديد ما يبعث على الشك وأن مدة الهجرة تلتب في جهة بعض مشاهير المسلمين نفس الدور الذي لعبه عام الفيل في سيرة الرسول عليه السلام ^(٢) . وبعضاً منهم يؤخر مدة ولادته إلى ما بعد الهجرة قليلاً فيجعلها في السنة الثانية للهجرة ^(٣) ، عام غزوة بدر . ويذهبها بعضاً دفعه أخرى فيجعلها عام فتح مكة

(١) تاريخ ابن عساكر ٤٠٦/٥ .

(٢) Lammens : Etudes sur le Siècle des Omayyades , P. 41 .

(٣) أسد الوفاء لابن الأثير ٤١٥/٤ .

(٨) (١). ويرى لا منس في تأخير سنة مولده إلى هذا العام محاولة لإخراج زيد من ذمة الصحابة (٢)، ولا مفر لنا هنا من اللجوء إلى الاستنتاج لتحديد سنة ولادته، فنحن إذا أخذنا بأرجح الروايات في تحديد سنة وفاته، والتي تذكر أنه توفي عام ٥٣ هـ، وإذا لاحظنا ما جاء في الطبرى في وصف أحدهم لزيد من أنه كان أليض المحبة (٣)، وإذا أخذنا بعين الاعتبار ما جاء في بعض الأخبار من تكليف عمر زيداً بهمة في اليمن لا يمكن أن ينطليع بها غلام صغير (٤)، آخرنا الرجوع بتاريخ مولده قليلاً إلى الوراء، إلى ما قبل الهجرة بسنوات قلائل. يؤيد هذا الافتراض ما جاء في بعض الروايات من أنه ولد قبل الهجرة (٥)، وما ذكر في رواية أخرى من أنه هلك وهو ابن خمس وخمسين (٦).

ونقع في اضطراب آخر حين نحاول البحث عن الأسرة التي ينتهي إليها زيد، فهو تارة يدعى زيد بن سمية، نسبة إلى أمّه، وتارة أخرى زيد بن عبيد، وتارة ثالثة زيد بن أبي سفيان، ودعاه بعضهم زيد ابن أبيه إقراراً منهم بعجزهم عن معرفة الأب الذي ينتهي إليه.

وكان عمر بن عبد العزيز يفتر من هذا كله فلا ينسب زيداً وإنما يقول صاحب البصرة (٧). والذي لاشك فيه أن هذا الاضطراب في نسبة زيد لم يحدث إلا بعد أن استتحققه معاوية بنسبه، أما قبل ذلك فلم يكن يقال له إلا زيد بن عبيد (٨). ومن الحق أيضاً أن الساخطين على زيد، ومنهم بعض المؤرخين المتشمرين إلى المدرسة

(١) ابن سعد ٧٠/١

(٢) لامنس ص ١٥٠

(٣) الطبرى ٤/٢١٦

(٤) شرح ابن أبي الحديد ٤/٦٧

(٥) أسد الغابة ٢/٢١٥

(٦) المسعودي، صروج الذهب ٢/٦٨

(٧) ابن عساكر ٥/٤١١

(٨) شرح ابن أبي الحديد ٤/٦٨

العراقية ، كان لهم يد في الفوضى والاضطراب المذين اكتنفا أخبار أسرة زياد . ونحن نسوق ما جاء من الأخبار في أصل أبيه وأمه ثم نحاول استخلاص ما يبدو لنا أدنى إلى الحقيقة التاريخية .

فسمية ، أم زياد ، كانت ، فيما يذكر ، أمة للحارث بن كلدة طبيب العرب . وقد ذكر بعضهم أنها كانت لدهقان من الفرس عالجه الحارث من مرض ألم به فوهب له سمية ^(١) . وذكر ابن عبد ربه أنها كانت لأبي الخير بن عمرو الكندي فوهبها للحارث بن كلدة ، فولدت له نافعاً ثم أباً بكرة ، فأناكلر لونه ، وقيل له إن جاريتك بني ، فانتفى من أبي بكرة ومن نافع وزوجها عبيداً — وكان عبيداً لابنته — فولدت على فراشه زياداً ^(٢) . وقيل إن الحارث تزوج صفية بنت عبيد بن أسد الثقفي ومهرها سمية ، فزوجتها صفية عبيداً لها رومياً يقال له عبيد فولدت منه زياداً ^(٣) ، وذكر ابن قتيبة أن سمية من أهل زندورد ، وكان كسرى وهبها لأبي الخير ، أحد ملوك اليمن ، فلما رجع إلى اليمن من مرض بالطائف ، فدواه الحارث فوهبها له ^(٤) . ومع قول أكثر المؤرخين بأن أم زياد هي سمية جارية الحارث لم نعدم من يخالف هذا القول فيدعى أن أمه عربية تدعى أسماء بنت الأعور ^(٥) ومن خلال هذا الفيض من الأخبار المتناقضة نستطيع أن نستخلص أن أم زياد سمية كانت من أصل فارسي ، وأن زياداً ولد على فراش عبيد ، وأن نافعاً وأباً بكرة أخواه لامه .

أما عبيد فقد جعله بعضهم عربياً من ثقيف ^(٦) ، وذهب أكثر المؤرخين إلى أنه كان عبيداً رومياً ^(٧) ، وجاء في بعض المصادر أنه بقي إلى أيام زياد فابتاعه

(١) ابن عساكر ٤٠٩/٤ .

(٢) العقد الفريد ٤/٥ .

(٣) أنساب الأشراف ١/٤٨٩ .

(٤) المعارف لابن قتيبة ص ١٢٥ .

(٥) المعارف ص ١٥١ تقللا عن أبي الفاظان .

(٦) ابن أبي الحديد ٤/٦٧ .

(٧) ابن عساكر ٤٠٩/٥ .

وأعتقده (١) . فلذا سلمنا أن عبيداً كان عبداً رومياً ، وأن نسبة زياد إليه صحيحة ، تكون بذلك قد جرنا زياداً من نسبته العربية ، وليس هذا بالأمر الذي يسهل الجزم به . وقد أعطى زياد صفات الموالي تأكيداً لهذه الدعوى فوصفوه بحمرة اللون (٢) . وزعم بعضهم أن زياداً كان أول من ألف كتاباً في مطالب العرب وأنه دفعه إلى ولده وقال لهم : انتظروا به على العرب فإنهم يكفون عنكم (٣) . فهل يكون إخراج زياد من سلالة العرب الفاتحين من صنع خصوم زياد وابنه عبيد الله ، بداعم الحقد على قاتل حجر بن عدي وسافت دم الحسين بن علي . إن بعضهم لا يستبعد هذا الأمر ، ويرى أن من غير المعقول أن يولي معاوية العراقيين أحد الموالي في عصر أثارت فيه الفتوحات الإسلامية شعور الاعتزاز بالجنس والمصبية القومية في نفوس العرب الفاتحين ، ويلاحظ أيضاً أن معاوري زياد كانوا يعاملونه دائمًا على أنه عربي أصيل ، وهم أجدر بالثقة من مؤرخي العصر العباسي (٤) . ونحن نتساءل : إن صح أن زياداً عربي النسب ، وأن عبيداً أباًه كان تقريباً خالص النسبة ، ففيما كان حرص زياد إذن على الانساب إلى بني أمية من هذا السبيل غير المشرف ، سبيل الاستلحاق . وهل كان يؤثر أن يكون ابن أبي سفيان لغية على أن يكون أباً لرشدة من عربي أصيل ، منها يمكن لهذا العربي حقير الشأن . إن صح هذا فما أبهظ الثمن الذي أداه زياد لابتزاع نسبة القرشي هذا . ثم أليس من المحتمل أن تكون غلة معاوية من استلحاقه بنسبة تكفيه من تولي إماراة البصرة ، تجنباً لسخط العرب المتعصبين لقوميتهم والذين كانوا في ذلك العهد قد بدأوا ينظرون إلى الموالي بعين الاحتقار والتعالي ويأبون أن يتولى أمورهم واللابيت إلى العنصر العربي المتفوق . فإذا طرحت الروايات القائلة بأن زياداً هو ابن عبيد وأخذنا بالرواية التي تجعله أباً غير شرعي لأبي سفيان فإن زياداً يندو حيثئذ

(١) الطبرى ٢٥٩/٣ وابن أبي الحديد .

(٢) الطبرى ٢١٦/٤ .

(٣) فهرست ابن الدجج ص ٨٩ .

(٤) لامنس ص ٤١ .

عريضاً فرشياً . على أن جميع الدلائل تشير إلى أن استلحاق معاوية زياداً لم يكن إلا إجراء سياسياً محضاً قصد به اجتذاب هذا السياسي الحنفي إلى صف الحزب الأموي ، وتمكنه من ولية العراق . وسنعود إلى هذا الأمر حين نتحدث عن استلحاق معاوية زياداً .

وكذلك نجد الفموض والاضطراب يكتئفان أخبار أخوي زياد لأمه : نافع وأبي بكرة ، أكفا ولدي الحارث بن كلدة من جاريته سمية ، على ما تذكره أكثر المصادر (١) ، أم أن الحارث بن كلدة كان عقيماً لا يولد له فهـ منها منسوـانـ إـلـيـهـ وـلـيـسـاـ ولـدـيـهـ (٢) ، وهـلـ كـانـ اـسـمـ أـبـيـ بـكـرـةـ نـقـيـعـاـ أوـ مـسـرـوـحـاـ (٣) . من الثابت أن أبي بكرة كان عبداً قبل مقدم الرسول لحصار الطائف ، سواء أكان عبداً لأبيه الحارث ، أم كان ابنـاـ لـعـبـدـ حـبـشـيـ اسمـهـ مـسـرـوـحـ كان زوجـاـ لـسـمـيـةـ قبل عـبـيدـ . ولـمـ حـاـصـرـ الرـسـوـلـ الطـائـفـ وـوـعـدـ مـنـ يـنـضـمـ إـلـيـهـ مـعـيـدـ بـالـعـتـقـ كان أبو بكرة في عـدـادـ هـؤـلـاءـ العـبـيدـ فـأـعـنـقـهـ الرـسـوـلـ ، وـحـرـصـ هوـ مـنـذـ ذـلـكـ الـحـينـ عـلـىـ أنـ يـجـعـلـ نـفـسـهـ مـوـلـيـ رـسـوـلـ اللهـ عـلـيـهـ السـلـامـ (٤) ، وـبـقـيـ نـافـعـ إـلـىـ جـانـبـ الحـارـثـ فـكـافـاهـ هـذـاـ بـأـنـ أـقـرـ بـهـ اـبـنـاـ لـهـ . وـيـذـكـرـ اـبـنـ سـعـدـ أـنـ زـيـادـاـ لـمـ تـولـيـ الـبـصـرـةـ أـقـطـعـ أـبـنـاءـ أـبـيـ بـكـرـةـ وـوـلـاـهـ الـوـلـاـتـ فـصـارـوـاـ إـلـىـ دـنـيـاـ عـظـيمـةـ وـادـعـوـاـ أـنـهـمـ مـنـ الـعـرـبـ وـأـنـهـمـ مـنـ وـلـدـ نـقـيـعـ بـنـ الـحـارـثـ التـقـيـ (٥) . وـهـكـذـاـ أـصـبـعـ فـيـهاـ بـعـدـ حـالـ هـؤـلـاءـ الإـخـوـةـ الـلـلـاـثـةـ مـاـ يـدـعـوـ إـلـىـ الـعـجـبـ ، لـاـفـرـاقـ نـسـبـهـمـ مـعـ اـنـتـهـاـمـ إـلـىـ أـمـ وـاحـدـةـ ، مـاـ حـمـلـ أـحـدـ الشـعـرـاءـ عـلـىـ أـنـ يـقـولـ فـيـهـمـ هـذـهـ الـأـيـاتـ :

إـنـ زـيـادـاـ وـنـافـعـاـ وـأـبـاـ بـكـرـةـ عـنـدـيـ مـنـ أـعـجـبـ الـعـجـبـ

(١) العقد الفريد ٥/٤ وأنساب الأشراف ٤٨٩/١ . وابن حساكر ٤٠٩/٥ .

(٢) المعارف ص ١٥ .

(٣) طبقات ابن سعد ٧ ق ٨/١ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) المصدر السابق .

إن رجالاً ثلاثة خلقوا من رحم أئمَّة مخالفين للنسب
ذا فرشي فيها يقول وذا مولى وذاك ابن عمِّه عربي^(١)

★ ★

على الرغم من أننا لا نكاد نعرف شيئاً ذا غباء عن نشأة زياد في الطائف ،
بومعنا أن نلأ بعض هذا الفراغ من طريق المجهوه إلى الامتناع والفرض . تذكر
بعض الروايات أن زياداً أدرك النبي ﷺ ولم يره وأنه أسلم في عهد أبي بكر^(٢) .
وفي عهد عمر نجده يبرز فجأة إذ يكلفه الخليفة بعهدة في اليمن ويتيح له توفيقه
في هذه المهمة إظهار كفاءته الإدارية وموهبه الخطابية . ونجده كذلك يرافق
الجيوش الفازية في الشرق ويقول فيها أعمال الكتابة والحساب . وهذا كلُّه يحملنا
على الافتراض بأن موهب زياد الفذة قد ظهرت في وقت مبكر وأناحت له أن
يصطدمع ، وهو في ميمة الصبا ، بمهام لاتساق إلا بالرجال الحنكيين ، كما ينبغي لنا
أن نفترض أنه تلقى ، وهو بالطائف ، لوناً من التعليم لم يكن متاحاً إلا للقلائل في
ذلك الحين . وقد تكون بيئة الطائف الحضرية هي التي هيأت له التزود بهذه المعرف ،
أو قد يكون انتهاكه إلى أسرة الحارث بن كلدة الطبيب المتفق هو ما أعاذه على
الإمام بالحساب والكتابة . ولا يبعد أن عبيداً الرومي كان على معرفة بهذه العلوم
وقد لقنه زياداً . ومما يكفي من أمر فإن زياداً قد لقي من العناية في تعليمه وتأديبه
ما لم يكن يلقاه إلا الأقلون في عصره ، بضاف إلى ذلك ما كان يتحلى به من
ذكاء وفطنة وعزيمة أثاحت له أن يشق الطريق بسرعة أمام طموحه المبكر . وثمة
رواية تذكر أن عمر سأله زياداً عن الفرائض والسنن والقرآن فوجده عالماً بكل ذلك^(٣) .
على أن أخبار زياد فيها بعد لا تنبئ بأنه كان واسع الاطلاع على الثقافة الدينية . وابن سعد

(١) سروج الذهب ٥٥/٢ .

(٢) ابن عساكر ٤٠٦/٥ .

(٣) المصدر السابق ٤٠٦/٥ .

يشير إلى معرفته بالكتابية ولكنه ينص على أنه لم يكن من القراء ولا الفقهاء^(١). وكان عمر نفسه أستاذًا غير مباشر لزياد وقد ظهر تأثره به جلياً سواء في منهجه السياسي أو في أحکامه^(٢).



(١) ابن سعد ٧/٧ وابن عساكر ٤٠٦/٥ .

(٢) انظر مثلاً في ابن عساكر ٥/٤٠٦ خبر قضاة زياد في قضية عرضت له بقضاء أخذة عن عمر .

زياد في ظل ولاة البصرة

بدأ اتصال زياد بالحياة العامة منذ غادر مسقط رأسه الطائف ، في عهد عمر ، يستقر في البصرة مع طلائع الفاتحين العرب الذين استوطنوها ، وذلك أن قائد عمر في فتوح الأبلة ، عتبة بن غزوان ، كان متزوجاً من أزدة بنت الحارث بن كلدة . فلما قدم البصرة عاملها عليها ، عام ١٤ للهجرة على الأرجح ، قدم معه أنساؤه نافع وأبو بكرة وزياد^(١) . وجاء في بعض الأخبار أن عتبة لما فتح الأبلة أصاب غنائم كثيرة ، ولم يكن في المسلمين أحد يكتب ويحسب غير زياد فولي قسم ذلك المغنم ، وجعل له كل يوم درهمان ، وهو يومئذ غلام في رأسه ذئبة^(٢) . وقد أقطع عمر بن الخطاب أبي بكرة وأخاه نافعاً أرضاً بالبصرة ، وكانت أول دار بهميت بالبصرة دار نافع بن الحارث وأول مولود بها عبد الرحمن بن أبي بكرة^(٣) . ومنذ ذلك الحين استقر أبناء سمية بالبصرة وتکثر أبناؤهم وعظم شأنهم . وقد هبأت زياد معرفته بالكتابة والحساب أن يرافق جيوش المسلمين في فتوحاتها في الشرق ، وكان هو الذي يكتب للناس ويدونهم . ولما ظفر العرب في واقعة جلواء^(٤) بعث سعد بن أبي وقاص بالحساب مع زياد ، وأظهر الفتي في أدائه مهمته وفي وصف ما حققه المسلمون من فتوح براعة لفتت إليه نظر عمر فكلفه بأن يقوم في الناس خطيباً يخبرهم بأمر الفتح ، فقام في الناس فذكير ما أصـابوا وما قاموا به من الاتساع في الفتوح ، وظهرت في ذلك الموقف بوأكـير موهبته الخطابية التي انتزعت إعجاب عمر فدعاه بالخطيب المقصـع ، وعلق زياد على كلام عمر بقوله : «إن جندنا

(١) فتوح البلدان للبلاذري ص ٣٥١ .

(٢) الطبرى ٩٥/٣ وفتوح البلدان ص ٣٥١ وفي رواية الطبرى أن زياداً كان يومئذ ابن أربع عشرة سنة .

(٣) فتوح البلدان ص ٣٥٦ .

أطلقوا بالفعل لساننا (١) . ومن المرجح أنه في هذه المناسبة أقر أبو سفيان بأبوته زriad حين رأى إعجاب الناس ببلاغته ، وما منه من ادعائه علانية إلا خوفه من عمر (٢) . على أن همة روايات أخرى تسوق خبر اعتراف أبي سفيان بأبوته زriad على نحو آخر ، فهي تذكر أن عمر أوفد زriad إلى اليمن لإصلاح فساد ظهر فيها ، فلما عاد دخل على عمر خطبة لم يسمع بعندها حسناً ، فقال عمر وابن العاص : « الله در هذا الغلام لو كان أبوه قرشياً لسوق العرب بمصاه . » وحينئذ يقر أبو سفيان بأنه هو الذي وضعه في رحم أمه سمية (٣) . وفي رواية أخرى نجد أبو سفيان يقر بأن زriad ابنه ثم ينشد الآيات التالية ، مخاطباً علي بن أبي طالب :

أَمَا وَاللهُ لَوْلَا خَوْفُ شَخْصٍ يَرَانِي يَا عَلَيِّ مِنَ الْأَعْدَادِ
لَا ظَهَرَ أَمْرُهُ صَخْرُ بْنُ حَرْبٍ وَلَمْ يَخْفِ الْمَقَالَةُ فِي زِيَادٍ
وَقَدْ طَالَتْ بِحَامِلِيِّ ثَقِيفاً وَتَرْكِيَّ فِيهِمْ غَرْ الفَوَادِ (٤)
وَنَحْنُ لَا نَدْرِي مَتَى أَوْفَدَ عَمَرَ زِيَاداً إِلَى الْيَمَنِ وَلَا السَّبِيلُ الَّذِي دَعَاهُ لَأَنْ يَنْوِطُ
بِهِ هَذِهِ الْمَهْمَةِ الشَّاقَةِ وَهُوَ بَعْدَ فَتِي صَغِيرِ السَّنِ .

وبسبب إتقان زriad الحساب والكتابة ، اتصل بجميع ولاة البصرة الذين تعاقبوا عليها منذ عهد عمر حتى زمن معاوية . اتصل أولاً بوطنه المغيره بن شعبه الثقي وكتب له (٥) . ولما اتهم المغيره بارتكاب الفاحشة مع إحدى النساء وشهد عليه أبو

(١) الطبرى ١٣٦/٣ .

(٢) العقد الفريد ٥/٥ .

(٣) ابن عساكر ٤١٠/٥ .

(٤) ابن أبي الحديد ٤/٦٧ .

(٥) في ترتيب ولاة البصرة الذين كتب لهم زriad خلاف في المصادر التي تحدثت عن ذلك . فابن عبد ربه يذكر (العقد الفريد ٤/١٦٧) أنه كتب المغيره ثم لعبد الله بن عامر ثم لعبد الله بن عباس ثم لأبي موسى الأشعري . وابن عساكر يذكر (٤/٤٠٦) أنه كتب لأبي موسى ثم لعبد الله بن عامر ثم للمغيره ثم لابن عباس . وكلامها مخططي . لأن ترتيب هؤلاء الولاية كان كالتالي : المغيره ثم أبو موسى ثم عبد الله بن عامر ثم عبد الله بن عباس (انظر الطبرى مثلاً في سنوات ١٧٠ هـ حتى ٤٠٥ هـ) .

بكرة وأخوه نافع ورجل ثالث ، امتنع زياد من الشهادة على المغيرة ، وقد حفظ له المغيرة هذه اليد وجزي صنيعه بمثله حين أمره معاوية بصادرة أموال زياد . على أن موقف زياد هذا من حادثة المغيرة قد عرض أخيه للجلد وسخط عليه أبو بكرة منذ ذلك الحين وأقسم لا يكلمه أبداً ^(١) .

أنفذ زياد المغيرة من الرجم ولكن عمر لم يقه في منصبه بل عزله وولى مكانه على البصرة أبي مومي الأشعري (عام ١٦هـ ^(٢)) . فاتصل به زياد وكتب له وما لبث أن أصبحت له منزلة كبيرة عنده . وقد جاء في بعض الأخبار أن رجلاً من عترة كان ساخطاً على أبي موسى فتجاء إلى عمر بشكوه ، وكان مما أخذه عليه أنه فوض أمره إلى زياد ، وحين بُسأله عمر أبي موسى عمما دعاه إلى ذلك يجيب : « وجدت له نيلاً ورأياً فأسندة إليه عملي ^(٣) » . وتحدثنا الأخبار أيضاً أن أبي موسى وجه زياداً إلى عمر ليُرفع إليه حسابه فلما رأى ذكائه أمره بعدم الرجوع إلى أبي موسى فقال زياد : يا أمير المؤمنين ، أعن خيانة صرفتي أم عن تقصير . فقال : لا عن واحدة منها ، ولكني أكره أن أحمل فضل عقلك على الرعية ^(٤) . ويبدو أن مهارة زياد في الحساب وذكائه كانا هما سبب إعفائه من عمله ، لأن عمر الخريص الخذر قد تخوف أن يضع أموال المسلمين في يد فتى ذكي أربك كزياد .

وفي عهد عثمان كتب زياد لعبد الله بن عامر بن كريز الذي ولّي البصرة بعد أبي موسى (عام ٢٩هـ على الأرجح ^(٥)) وامتناع بفطنته وذكائه أن يحظى عنه ، فكان والياً على الديوان وبيت المال ، وكان ابن عامر يستخلفه على البصرة إذا شخص عنها ^(٦) . ثم وقع ما أفسد الأمر بينهما ، فقد كان زياد أشار على ابن

(١) انظر تفصيل الخبر في فتوح البلدان ص ٣٥٢ . وأنساب الأشراف ٤٩٠/١ .

(٢) فتوح البلدان ص ٣٥٤ .

(٣) الطبرى ٢٠٩/٣ وابن عساكر ٤٠٦/٥ .

(٤) المقد الفريد ١٦٢/٤ .

(٥) الطبرى ٣١٩/٣ .

(٦) فتوح البلدان ص ٣٦٥

عامر بمحفر نهر الأبلة حتى يبلغ به البصرة ، ولكن ابن عامر تباطأ في الأمر ، ثم مضى إلى خرامسان واستخلف زياداً ، فمحفر زياد النهر . فلما عاد ابن عامر غضب على زياد لظنه أنه فعل ما فعل حرصاً على أن يطير صيته في الناس ، ومنذ ذلك الحين تباعد ما بين الرجلين ، وظلت الجفوة قائمة بعد ذلك أبداً طوبلاً بين آل زياد وآل ابن عامر ^(١).

وفي عام ٣٥ للمigration يقتل الخليفة عثمان ويتبواً على الخلافة ، وقد غدا زياد حينئذ رجلاً فاضحاً اجتمع فيه خلال كثيرة ترغبه فيه أرباب السلطان . وتحدثنا إحدى الروايات أن زياداً وقف موقف المحابيد يوم معركة الجمل ، فلم يكن معه كثرة أهل البصرة الذين انضموا إلى عائشة في قتال علي ، بل اعتزل الفريقين ولزم بيت أخيه نافع . ولما تم الأمر لعلي وبابيه القوم سأل عبد الرحمن ابن أبي بكرة عن عمده « المترbus المتقادع » ، فاعتذر له عنه بعرضه الذي منه من أن يأتيه مبايعاً ^(٢) . وتضيف الرواية السابقة فتجعل عليهما يأتي بنفسه ليعود زياداً ، ولا يلبث أن يعرض عليه ولادة البصرة ، ولكنه يشير على علي أن يولي رجلاً من أهل بيته ليطمئن إليه الناس وينقادوا إليه ، ووعده بأن يده برأيه ومشورته . وسواء صحت هذه الرواية أو لم تصح فإن الذي تم فعلاً هو تولي ابن عباس البصرة وتولي زياد الخراج وبيت المال . وكان زياد يقوم بمهمة المشير الفاسد له ، على معرفة ابن عباس من الفطنة وثاقب الرأي ، وكان يختلفه على عمله إذا شخص عن البصرة . ومع ذلك لم يسلم زياد ، حين كان يقوم بعمله في البصرة خليفة لابن عباس ، من مؤاخذة الإمام الصارم علي ، لهنات بلغته عنه ^(٣) .

وقد تجلت عبرية زياد السياسية في هذه الحقبة ووضحت منذ ذلك الحين الخطوط العريضة في خططه السياسية التي انتهجاها بعد ، حين أصبح والياً على فارس أولاً ، ثم حين أصبح والياً لماوية على العراق والشرق . ويفظ علينا على خطوط سياسته هذه أمران حدثاً إبان ولادة ابن عباس على البصرة .

(١) المصدر السابق .

(٢) الطبرى ٣/٤٦٥ وابن عساكر ٤٠٨/٥ .

(٣) ابن أبي الحديد ٤/٧٣ .

أولها : أن فتنة كانت بين الناس بالبصرة فلم يدر ابن عباس كيف يطفئها واستشار زياداً في الأمر فقال له : « إن كنت تعلم أذك على الحق وأن من خالفك على الباطل أشرت عليك بما ينبغي ، وإن كنت لا تدرك أشرت عليك بما ينبغي لك . » فقال له أفي على الحق وهم على الباطل ، فقال زياد : اضرب من عصاك من أطاعك ، ومن ترك أمرك فما ذه أعز الاسلام أن تخرب عنقه وأصلاح له ، فاضرب عنقه ^(١) . ولما ولي زياد البصرة فيها بعد وملك هذه الخطة عينها علم ابن عباس حينئذ أن زياداً محضه النصح حين أشار عليه بهذا الرأي .

والامر الثاني الذي يظهرنا على أسلوب زياد السياسي هو موقفه إبان فتنة ابن الحضرمي . وفي عام ٣٨ هـ خرج ابن عباس إلى الكوفة واستخلف زياداً على البصرة فأراد معاوية انتهاز الفرصة ليفسد البصرة على علي ، وقد عرفت البصرة بعنانيتها ، فوجه إليها رجلاً يعرف بابن الحضرمي ، فلما قدمها التف حوله بنو تميم وكثير من أهل البصرة . وخشى زياد عاقبة الأمر فرأى أن خير ما يفعله هو الإيقاع بـين قبائل البصرة لئلا تجتمع عليه ، وقد أفاد من الخصومة الطبيعية التي كانت بين قبائل البصرة ، فلما أولا إلى ربيعة طالباً حمايتها فلما آتى منها تلکؤاً في نصرته لـما إلى الأزد فأجاره زعيمها صبرة بن شيهان وحـماه . ثم أخذ زياد يخوف الأزد غدر بـني تميم ويزعم لهم أن هذه القبيلة تحـداهم وتفاخـرـهم بقوتها وشرفـها ، حتى أفلـحـ في الإيقـاعـ بـينـ القـبـيلـيـنـ وفيـ إـنـارـةـ الأـزـدـ عـلـىـ تمـيمـ ،ـ وـكـانـ يـقـولـ بـعـدـ ذـلـكـ :ـ «ـ مـاـ كـدـتـ مـكـيـدةـ قـطـ كـنـتـ إـلـىـ الـفـضـيـحةـ بـهـاـ أـقـرـبـ مـنـ لـلـفـضـيـحةـ يـوـمـئـذـ لـمـاـ غـلـبـنـيـ مـنـ الـضـحـكـ ^(٢)ـ .ـ ثـمـ يـرـسـلـ عـلـىـ أـحـدـ أـشـرـافـ بـنـيـ تمـيمـ لـيـخـذـلـ قـوـمـهـ عـنـ نـصـرـةـ اـبـنـ الحـضـرـمـيـ فـلـاـ يـفـلـحـ وـيـنـتـهيـ أـمـرـهـ بـالـقـتـلـ ،ـ وـحـيـنـئـذـ توـشكـ الـحـرـبـ أـنـ تـقـعـ بـيـنـ الـحـيـنـ لـوـلـاـ أـنـ تـقـيمـاـ بـادـرـتـ بـعـادـنـةـ الـأـزـدـ وـوـعـدـتـهـ أـلـاـ تـتـعـرـضـ لـجـارـهـ زـيـادـ ،ـ ثـمـ لـاـ يـلـمـثـ

(١) ابن عساكر ٤٠٨/٥ .

(٢) الطبرى ٤/٨٤ .

أمر تيم أن يتفرق حين يوفد على إلينهم بارية بن قدامة التميمي الذي يفلح في استئلة جل قومه ثم يحيط بالبيت الذي لجأ إليه ابن الحضرمي ومن يلوذ به ويضع فيه النار ويقضي بذلك على هذه الفتنة ويعود زياد إلى دار الإمارة^(١). وقد برهنت هذه الحادثة على كفاءة زياد السياسية ومهاراته في التغلب على الصعاب التي تهترض سبله ، كما أنها كشفت عن خطائه السياسية التي تقوم على التفريق بين القوم وضرب الناس بعضهم البعض ، وهي سياسة ظل يلتزمها بنجاح طوال مدة ولايته .



زياد السياسي المحنك

ولا يكاد ينقضي قليل وقت بعد فتنة ابن الحضرمي حتى تناح الفرصة أمام زياد لإظهار كفاءته السياسية الفذة ، ولقد كانت هذه الفتنة اختباراً لمهاراته في التصرف إبان الأحداث وامتحاناً لرباطة جأشه ومتانة أعصابه ، فلما اضطربت الأمور في فارس وكerman واحتتج إلى رجل صلب يقر النظام في المناطق الثائرة اتجهت الأنظار كلها إلى زياد الأريب الحول القلب ، وأشار ابن عباس وجارية بن قدامة على علي باقتدار زياد لهذه المهمة ؛ ووصفه جارية « بالرجل الصليب الرأي » العالم بالسياسة، الكافي لا ولی . (١) . ولم يكن على ليجعل كفاءة زياد السياسية ، وقد رأيناه قبل ذلك يعرض عليه ولاية البصرة ، فاقتدبه للنهوض بهذا الأمر وولاه فارس وكerman . وهكذا كان على زياد أن يستهل عهده أول ولاية له استهلاكاً شاقاً ، ولم تأنه الولاية منقادة تحرر أذياها ، بل كان عليه أن ينتزعها بالقوة انتزاعاً ، وكذلك كان شأنه حين ولی البصرة فيها بعد ، فقد أثأها وهي غوج بالفتن والاضطراب بسوء أرجاءها .

توجه زياد إلى فارس (عام ٣٩٥هـ) وهي مرجل يغلي ، فقد خلعت طاعة علي وأمتنع أهلها من أداء الخراج وغلب أهل كل ناحية على ما يليهم وطردوا عمائهم . وما هو إلا وقت قصير حتى عاد المهدوء والاستقرار بفضل زياد إلى هذا الإقليم الثائر ، وانقادت الأعاجم لهذا الأولى الجديد انقياد العمل الوديع . وهنا أيضاً لجأ زياد إلى الخطة السياسية البارعة السقي تفتقت عنها عبرريته وانتهجها طوال عهود ولايته . ذكر الطبراني أن زياداً لما قدم فارس « بعث إلى رؤسائها فوعده من نصره ومناه ، وخوف قوماً وتوعدهم ، وضرب بعضهم ببعض ، ودلّ ببعضهم على

عورة بعض ، وهربت طائفه ، وأقامت طائفه ، وقتل بعضهم ببعض ، وصفت له فارس فلم يلق فيها جماً ولا حرباً ، وفعل مثل ذلك بكرمان (١) . . . ، فكان زباد إذن يعتمد على الجملة أكثر من اعتماده على السيف ، ولم يكن يلتجأ إلى سياسة البطاش والشدة إلا حين لا يجد مناصاً منها ، ولم يكن يمهد إلى سفك الدماء إذا رأى في وسعه إدراك مأربه من طريق آخر ، وهذا ما جعله مختلف عن خلفه الحجاج الذي كان لا يعرف سياسة أخرى غير سياسة البطاش وسفك الدماء . ولا يبعد أن يكون زباد قد استعان أول الأمر بالقوة لإخضاع الشائرتين ، فيما تذكر بعض الروايات (٢) . على أنه من المحقق أن خطة زباد السياسية كانت تقوم على الركائز التي وضحتها آنفاً ، آلة ذلك ما روی عن رجل من أهل اصطخر إذ قال : « أدركت زباداً وهو أمير على فارس وهي تضرم فاراً ، فلم يزل بالمداراة حتى عادوا إلى ما كانوا عليه من الطاعة والاستقامة » ، لم يقف موقفاً للحرب ، وكان أهل فارس يقولون : ما رأينا مسيرة أشبه بمسيرة كسرى أنسو شروان من سيرة هذا العربي في الابن والمداراة والعلم بها يأتي (٣) .

إن نجاح زباد في إخضاع فارس وكرمان وفي إقرار النظام في هذه البقاع الشائرة كان خليقاً أن يلفت إليه نظر السياسي الذاهية معاوية فيسمى في اجتماعه إلى صفة ، ولكن ما هي الوسيلة التي لجأ إليها لتحقيق هذه الغاية . هنا يخطر معاوية أن يستغفِل ما سبق أن أقر به أبوه ، بحضور من علي بن أبي طالب ، من أبوته لزباد . ماذا لو أرسَل إلى زباد يستميله إليه ويدعوه أخيه لرضاء له ؟ إن هذا لن يكلّفه شيئاً في واقع الأمر ؛ وإن انضمام سياسي ضليع مثل زباد إلى آل أبي سفيان يعتبر مفعلاً عظيماً . وهكذا يوجه معاوية كتائباً إلى زباد يقول فيه : « أما بعد فإن العرش الذي ربيت فيه معلوم عندما ، فلا تدع كما أن تأوي إليه كما تأوي الطيور إلى أو كارها . ولو لا شيء ، والله أعلم به ، لقلت قال العبد الصالح :

(١) الطبرى ٤/٤٠٥ .

(٢) الطبرى ٤/٤٠٥ .

(٣) المصدر السابق .

فَلَنَا قِيمُهُمْ بِجُنُودٍ لَا قَبْلَ لَهُمْ بِهَا ، وَلَا خُرُجُهُمْ مِنْهَا أَذْلَةٌ وَهُمْ صَاغِرُونَ . ، ثُمَّ أَثْبَتَ فِي ذِيلِ الْكِتَابِ ، فِيهَا يَذَكُّرُونَ ، أُبَيَاً نَّا مِنْهَا قَوْلَهُ :

الله در زیاد آیا رجل
تشق آباک وقد حقت مقالته
اذا نخطب الناس والوالی لنا عمر
فاذخر بوالدك الأدئی ووالدنا
إن ابن حرب له في قومه خطر^(۱)

وكان في تقدير معاوية أن هذا الكتاب، وفيه ما فيه من ترغيب وترهيب، سيمؤتي أكله في حمل زیاد على الانضمام إليه والتخلص عن علي. ولكن زیاداً لم يكن من صفاته الفدر ولا الجبن، فما هو أن أتاه كتاب معاوية حتى وقف يخطب وبرد رداً عنيفاً على دا بن آكلة الأكباد، مظهراً الاستهانة به والاستخفاف بوعيده، ويتحصل الخبر بعملي فيشفق أن يفلح معاوية في التغريب بزیاد واجتنابه إليه فيكتب إليه كتاباً يقول فيه : « أما بعد ، فقد وليتك الذي وليتك وأنا لا أزال له أهلاً ، وإنه قد كانت من أبي سفيان فلتة في أيام عمر من أمني الباطل وكذب النفس ، لم تستوجب بها ميراثاً ولم تستحق بها نسباً ، وإن معاوية كالشيطان الرجيم يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ، فاحذره ثم احذره ثم احذره والسلام^(۲) . » والذى يلفت النظر في هذا الكتاب إفرار علي بما ادعاه أبو سفيان من أبوته لزیاد ، ولم يفت ذلك زیاداً ، وهو الحريص على نباءة الذكر ورفعة الشأن ، فلما قرأ الكتاب علق عليه بقوله : « شهد بها رب الكعبة » ، وكأنما سره أن يشهد له علي ، خصم بي أمية الألد ، بالانساب إلى أبي سفيان، فهي شهادة لها قيمة . ويحدثنا ابن أبي الحميد أنها لم تزل في نفسه حتى ادعاه معاوية^(۳) .



(۱) ابن عساكر ٤/٥١٠ وابن أبي الحديد ٤/٦٧ وبين الروايتين بعض الاختلاف .

(۲) ابن أبي الحديد ٤/٦٦ وابن عساكر ٥/٥١٠ . وفي روایات الكتاب بعض الاختلاف .

(۳) شرح ابن أبي الحديد ٤/٦٦ .

لم يفلح معاوية إذن في ضم زياد إليه وإثارته على علي ، وكان رد زياد عنيفاً على معاوية ، وكان مطهيناً إلى عجز معاوية عن الوصول إليه ودونه « ابن عم رسول الله في مائة ألف من المهاجرين والأنصار » ، ولكن مقتل علي (٤٠ هـ) أوقع زياداً في مأزق لم يكن يتوقعه ، وزاد في سوء الموقف تسليم الحسن الأمر لمعاوية ودخوله في طاعته ، ولم ينشأ زياد أنت يظهر الخضوع لمعاوية وقد تحذّاه من قبل ، وخشى غدر معاوية به فأثر الاعتصام بقلعته التي حصنها في فارس ، وذكر ابن أبي الحديد والطبراني أن معاوية كتب إلى زياد، بعد مقتل علي ، يهدده وقد خاف امتناعه عليه ، فرد عليه زياد بكتاب عنيف يشتمه فيه ويتحذّاه ثم خطب خطبة نال فيها من معاوية وتهديده وأظهر عدم الاكتتراث بوعيه ودونه « ابن بنت رسول الله - أبي الحسن - في مائة ألف من المهاجرين والأنصار (١) » ، والأرجح عندنا أن معاوية لم يكتب زياداً إلا بعد أن صالحه الحسن وامتنع زياد من الدخول في طاعته . وزياد أحذر من أن يتورط ، وقد قتل على ، في شتم معاوية وتهديده وتعریض نفسه لاستخاته وانتقامه ، وإن في خطبته التي زعم أنه قالها حين كتب معاوية إليه يهدده بعد مقتل علي ، وكذلك في كتابه الذي زعموا أنه أرسله إليه ، من الصنعة والتکاف والمباینة لأسلوب زياد ما يجعلنا نستبعد فسبيتها إليه ، ونرجح أنها من افتعال بعض رجال الشيعة في العصر العباسي (٢) .

والذي يبدو أدنى إلى الواقع التاريخي أن معاوية لما رأى امتناع زياد عليه بعد أن صالحه الحسن ودخل في طاعته صائر ولاة على كتب إليه يدعوه إلى الدخول في طاعته . وكان معاوية يتخوف أن يؤلب عليه زياد أنصار الشيعة ويبايع لرجل من أهل البيت فيفسد عليه أمره ، ولا سيما أن بيده أموال فارس . والمحاولة الأولى التي قام بها معاوية لمواجهة الخطر الذي كان يهدده من جهة زياد هي مطالبتها بوصفه الخليفة الشرعي ، بما كان في بيده من أموال فارس . وقد رأى معاوية أن

(١) الطبراني ١٢٩/٤ وابن أبي الحديد ٦٨/٤ .

(٢) انظر خطبة زياد هذه وكتابه إلى معاوية في ابن أبي الحديد ٦٧/٤ .

وجود هذه الأموال في حوزة زياد يمكنه من تأليب القوم عليه وحشد الجنود لقتاله وكان جواب زياد أن ما عنده من مال قد أنفقه في وجهه وقد استودع قوماً جانباً منه احتياطاً للنوازل وأدى سائره إلى علي . فلما أتى الكتاب معاوية طمع في استدرج زياد للقدوم عليه فكتب إليه يدعوه أن يأتيه ليتحقق من صحة ما ذكره بشأن الأموال فإن كان الأمر على ما ذكره كان في وسعه أن يعود إلى مأمه . ولكن زياداً لم يؤخذ بهذه الخديعة وظل متتصماً بقلعته في فارس^(١) .

أخفقت محاولة معاوية هذه في استدرج زياد للخروج من معقله فلجأ حينئذ إلى وسيلة أخرى خيل إليه أنها ستكون أنجح في كسر شوكة زياد وحمله على الدخول في طاعته . كان زياد حين توجه إلى فارس قد ترك وراءه في البصرة جانباً من أمرته الكبيرة ، فوجه معاوية قائد الصارم بسر بن أبي أرطاة إلى البصرة وأمره برج بعض أبناء زياد في السجن وأن يتوعد زياداً بقتلهم إن لم يأت أمير المؤمنين . ويحدقنا الطبراني أن بسراً جبس عبد الرحمن وعبد الله وعباداً بنى زياد وكتب إلى زياد يتوعده بقتلهم إن لم يقدم على أمير المؤمنين ، ولكن زياداً يرفض مررة أخرى أن يقدم على الخليفة ويكتب إلى بسر أنه ليس بارحاً مكانه حتى يحكم الله بيته وبين معاوية ، فإن قتل من في بيته من أولاده فالمصير إلى الله تعالى . ويهتم بسر بإنفاذ وعيده لولا أن أباً بكرة ، على ما كان بيته وبين أخيه زياد بسبب حادثة المغيرة ، يسارع إلى معاوية ويستصدر منه أمراً بإطلاق سراح بنى زياد^(٢) .

ولما أُعْيَت معاوية السبل استندت المغيرة بن شعبة وصارحه بما يساوره من هم وقلق انتم زيد عليه وإيمانه بالدخول في طاعته ، واستشاره فيها بفعله . وتذكر الأخبار أن المغيرة تطوع بالمضي إلى زياد في معقله لإقناعه بالدخول في طاعة الخليفة . وقد وفق المغيرة في مهمته واستطاع إقناع زياد بالتخلي عن موقف المنارد العاصي فصح عزمه على مهاجمة معاوية والقدوم عليه .

(١) الطبراني ١٢٨/٤ .

(٢) المصدر السابق .

وهذا يحق لنا أن نتساءل : كيف تسنى المغيرة إقناع زياد بهذه السهولة مع
الخفاق معاوية في حاولاته المتعددة لإدراك هذه الغاية . من المحقق أن المغيرة قد
عرض على زياد ما أغراه بالتخلي عن موقف المتمرد والدخول في طاعة معاوية .
ولا يبعد أن يكون معاوية قد وعده باستلهافه بنسبه أو لوح له بالإمارة . يؤيد هذا
الاحتمال ما جاء في شرح ابن أبي الحميد من أن المغيرة أشار على معاوية بأن يكتب
إلى زياد يلطفه ويعده فإنه « رجل يحب الشرف والذكر وصعود المنابر » . وقد عمل
معاوية بشورة المغيرة فأرسل إليه كتاباً رقيق العبارة أظهر فيه أنه يريد أن يصل
روحه وأن يأخذ يد أخيه زياد ^(١) . على أنه لم يقدم عليه إلا بعد أن استوفق
لنفسه بعد من معاوية يومته فيه وبماهده بعدم الفدر به ^(٢) . وقد خطب زياد
قبل سيره إلى الشام خطبة موجزة بلغة بين فيها الدافع إلى دخوله في طاعة
معاوية وهو إيقاره العافية لهم وتحنيهم هذه المذابح التي مازالت قائمة بين المسلمين
منذ مقتل عثمان ^(٣) . ثم قدم على معاوية (عام ٤٢ هـ) ، فصالحه ولم يشتد
في محاسبته على ما بيده من الأموال وأكتفى بأخذ ما حمله إليه زياد دون مناقشة .
وليس عجياً أن يتناهى معاوية بشأن هذه الأموال إذ أن مطالبه زياداً بها لم تكن
إلا ذريعة لحمله على مفاوضته ومساومته ، وما كان معاوية ليكترث باهتار المغيرة
وزياد على اقسام بيت مال فارس دونه ، إن صح ما ذكره وهو وزن ^(٤) ، فقد كان
كل ما يهمه ويقض مضجعه آئشة هو إدخال زياد في طاعته ليأمن جانبه ، وقد
تحقق له ما أراد ، وتم بذلك الصلح بين رجلين لم ينجبا عصر بني أمية نظيرًا
لهم في الدهاء وحسن التدبير والخبرة بسياسة الناس .

استقر زياد منصرفه من لقاء معاوية ، في مدينة الكوفة التي كان على ولايتها

(١) ابن أبي الحميد ٤/٦٨ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) انظر هذه الخطبة في شرح ابن أبي الحميد ٤/٦٨ .

(٤) وهو وزن : الدولة العربية وسقوطها ، ص ١٠٠ .

يومئذ صديقه المغيرة بن شعبة^(١) . وكان هذا يكرم وفاته ويعظمه ويأمر زوجته
بألا تستر عن أبي المغيرة . وكان زياد يحسن استغلال كننيته هذه في التقرب من
زوج المغيرة الحسناء الحديدة ، وقد تزوجها فيها بعد اثر وفاة بعلها . وكان معاوية
لم يزل يتخفى أمر زياد فأمر المغيرة بأن يلزمها وجماعة من رؤوس الشيعة في الكوفة
بحضور الصلاة معه^(٢) .

ومن المؤكد أن زياداً كان موضع مراقبة دقيقة إبان إقامته في الكوفة ، ليعرف
مدى ولائه للخلفية ، ولا ريب أن زياداً الأريب الفطن كان أحذر من أن يتورط
في توثيق صلاته بالشيعة ، أصدقاء الأمس ، وذوي النفوذ القوي في الكوفة ، حتى
إذا نحقق معاوية من ولائه له صحت نيته على توليه البصرة ، ولكنه رأى أن يهدى
لذلك باستلحاق زياد بنسبه ، إما وفاء منه بوعده كان منه لزياد ، يوم كان متocom
بفارس ، وضماناً لإخلاصه وولائه له ، وإما ليمحو وضاعة نسبه ويجعله أهلاً
للamarة .

وقد اتفق معاوية بإخراج مسرحية الاستلحاق لمبدو في نظر القوم إقراراً لحقيقة
التاريخية ووضعاً للأمور في نصابها . وتم هذا الأمر عام ٤٤ للمigration حسب
رواية الطبرى^(٣) . وفي المصادر التاريخية روايات متعددة لهذه الحادثة ، وخلاصتها
نقلنا عن رواية المدائى ، أن معاوية جمع الناس وصعد المنبر وأجلس زياداً بين يديه
ثم دعا الشهود ليشهدوا بما عندهم . فقام جماعة من الناس فشهدوا أنهم سمعوا أبا
سفيان قبل موته يقر بأبوته لزياد . ثم قام أبو مریم السلوی ، وهو الشاهد الرئيسي
في هذه الحادثة وقد زعموا أنه كان خماراً في الجاهلية ، فأخذ يروي قصة قدوم

(١) الطبرى ٤/١٣٧ . وليس صحيحاً ما جاء في ابن أبي الحديد : (٤/٦٨) من أن معاوية أفر
زياداً على ولابة فارس فإن أول ولادة لزياد في زمن معاوية كانت على البصرة عام ٤٥ .

(٢) الطبرى ٤/١٣٧ .

(٣) الطبرى ٤/١٦٣ وكذا في شرح النهج ٤/٧٠ وجاء في مرسوج الذهب (٢/٥٤)
أن معاوية استلحق زياداً عام ٤٠ هـ وهذا لا يستقيم لأن الاستلحاق تم بعد دخول زياد
في طاعة معاوية عام ٤٢ هـ .

أبي سفيان عليه في الطائف ، أيام الجاهلية ، وتكليفه إياه بأن يتمس له بعثاً من بعثاً الطائف فجاءه بسمية جارية الحارث بن كلدة ، فرضها على ذفرها وقدرها ، وكان زياد ثمرة هذه العلاقة الماءرة . ولكي تم الرواية فصولاً زعموا أن سمية كانت من ذوات الرايات في الجاهلية ، وأنما كانت تنزل بالوضع الذي ينزل فيه البعثاً بالطائف ، وكانت تؤدي الضريبة إلى الحارث بن كلدة^(١) ، فلا شيء كان يمنع أبي سفيان إذن من إتمانها .

ولم يزد زياد ببراعة دور من لا علم له بالأمر ولا يد له فيه ، فحين فرغ الشهود من أداء شهادتهم قام فقال : « هذا أمر لم أشهد أوله ، ولا علم لي باخره » ، وقد قال أمير المؤمنين ما بلفكم ، وشهد الشهود بما سمعتم . فالمحمد لله الذي رفع مما وضع الناس ، وحفظ مما ضيعوا . وأما عبيد فإما هو والد مبرور أو ربيب مشكور^(٢) .

ولم يمر إعلان استلحاق زياد دون تعليق بعض الورعين الذين أحنتهم أن يقضى معاوية بخلاف ما جاء في الحديث النبوى من أن الولد للفراش وللعاهر الحجر^(٣) .

وقصة الاستلحاق لا تهدو ، في ظرفاً ، أن تكون لعبة سياسية بارعة قام بها معاوية لإرضاء لزياد واصطناعاً له . أما الحقيقة التاريخية فما أسهل العبث بها في عصر كانت أقوال الناس فيه وروياتهم الشفهية تقوم مقام الوثائق التاريخية الثابتة . وهب أن أبي سفيان قد اتصل بسمية ، كما يزعمون ، فمن أين لهم أن يتحققوا من أن زياداً كان ثمرة هذا الاتصال في حين أنهم يصورون سمية بعثاً يتغاورها عشرات الرجال . وتهه أخبار تصور لنا زياداً راغباً عن هذا الأمر ، كارهاً أن يغرس عوداً في غير منبهه ، وأن المغيرة هو الذي أوحى إليه بالفكرة وحثه على وصل حبله بحبيل

(١) المقد الفريد ٤/٤ ومروج الذهب ٥٥/٤ .

(٢) المقد الفريد ٥/٥ ، والربيب هنا زوج الأم .

(٣) مروج الذهب ٥٥ . والحديث في النهاية لابن الأثير ٢٠٣/١ وفسر بأن الولد لصاحب الفراش ، الزوج أو السيد ، ولزافي الحبنة والحرمان .

معاوية . وتصور لنا رواية أخرى زياداً في صورة الورع التقى الذي يخشى أن يسخط الله بادعائه إلى غير أبيه عبيد - وقد ولد على فراشه وأشبهه - تحيقها لرغبة معاوية (١) . ولا يبعد أن يكون معاوية أو المغيرة صاحب فكرة الاستلحاق هذه والموحى بها ، وقد يكون زياد هو صاحب هذه الفكرة ، حسبما جاء في بعض الروايات (٢) . وممّا يمكن من أمر فإن زياداً كان راضياً كل الرضا عن وصل جبله بحبيل معاوية ، راغباً كل الرغبة في أن يدعوه الناس زياد بن أبي سفيان وأن يستبدل بنسبة الوضيع نسباً قرشياً عريقاً ، ولو كان ثمن ذلك أن يعلن على الملا أن وجوده كان ثمرة اتصال مشين بين أمه البغي وبين أبي سفيان .

وما ينبعنا بمحرص زياد على الانتساب إلى البيت السفياني ما جاء في بعض الأخبار من أن رجلاً جاء عبد الرحمن بن أبي بكر وسأله أن يكتب إلى زياد في حاجة له فكتب إليه ونسبه إلى غير أبي سفيان ، فقال الرجل : لا أذهب بكتابك هذا فيضربني ، فأتني عائشة فكتبت إليه : من عائشة أم المؤمنين إلى زياد بن أبي سفيان . فلما جاء بالكتاب قال له زياد : إذا كان الغد فجيئي بكتابك ، فلما أتاه في اليوم التالي جمع الناس وقال : يا غلام اقرأه ، ثم قضى حاجته (٣) .

وقد أثار استلحاق زياد موجة من السخط والاستكار ، ولا سيما في البيت الأموي ، وبسبب ذلك قال الشاعر الأموي عبد الرحمن بن الحكم آياتاً ينال فيها من معاوية وزياد ومنهما :

مغلفة من الرجل المجنون	ألا أبلغ معاوية بن حرب
وترضى أن يقال أبوك عف	أنقضب أن يقال أبوك زان
كرحم القبيل من ولد الآتان	فأشهد أن رحمة من زياد

(١) ابن عساكر ٤٠٩/٥ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) ابن سعد ٧٠/٧ وابن عساكر ٤١١/٥ .

وأشهد أنتا ولدت زياداً وصخر من سمية غير دان^(١)
ولم يمال معاوية بسخط آل بيته الذين لم يرثوا إلى انضمام هذا الدخيل إلى
أسرتهم العريقة الشرف ، بل إنه كان يظهر غضبه على من يتعرض لزياد منهم ، وقد آلى
لا يرضى عن عبد الرحمن هذا حتى يعتذر لزياد ، وقد فعل .

وكان من أشد الساخطين على زياد بسبب هذا الأمر أخوه أبو بكرة ، وقد
أقسم لا يكلم زياداً ما عاش ، ومات وهو مصارم له . وقد روى ابن أبي الحديد ،
نقلاً عن الجاحظ ، أن زياداً كتب إلى معاوية يستأذنه في الحج - وذلك إبان
ولايته على البصرة - فآذن له واستعمله على الموسم وأجازه بألف ألف درهم . فيينا
هو يتجهز إذ بلغ أخيه أبو بكرة ، وكان مصارماً له منذ لجلج في الشهادة على
المغيرة ، فدخل على زياد وفي حجره بي له يلاعبه ، فقال أبو بكرة يخاطب
الغلام : « إن أباك ركب في الإسلام عظيماً ؛ زنى أمه ، واتقى من أبيه . ولا والله
ما علمت سمية رأت أبا سفيان قط . ثم أبوك يريد أن يركب ما هو أعظم من ذلك :
يأتي الموسم غداً ويوافي أم حبيبة بنت أبي سفيان ، وهي من أمهات المؤمنين . فإن
 جاء يستأذن عليها فأذنت له ، فأعظم بها فرية على رسول الله ﷺ وآلله ومصيده ،
 وإن هي منته فأشد بها على أبيك فضيحة . » فقال زياد : « جزاك الله يا أخي
عن النصيحة خيراً ، ساخطاً كنت أو راضياً . » ثم كتب إلى معاوية
يستقبله فأقاله^(٢) .

وكذلك استقبل الأئماء النبوة بكثير من السخط ، لما ذكرناه من مناقضة هذا
العمل لحديث الرسول عليه السلام ، وكان الحسن البصري يجعل استلحاق زياد
إحدى الموبقات التي يوصم بها معاوية^(٣) . وعد معيد بن المسيب صنيع معاوية أول
قضية ردت من قضاء رسول الله علانية^(٤) . وكان جل الأئماء في العصر الأموي
إذا ذكروا زياداً تورعوا عن نسبته إلى أبي سفيان .

(١) الأغاني ١٣/٢٦٥ (دار الكتب) المجان : الكرم الحسب .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٤/٧٠ والعقد ١١/٥ .

(٣) الطبرى ٤/٢٠٨ .

(٤) ابن عساكر ٥/٤١٢ .

ولم ينج زباد وأولاده بسبب هذا الاستلتحاق من مخزية طائفه من الشعراء في طليعتهم الشاعر زيد بن مفرغ الحيري ، وكان زباد — أو ابنه عبيد الله — يقول : ما هجيت بيت قط أشد على من قول الشاعر :

فَكَرْ فِي ذَاكَ أَنْ فَكَرْتُ مُعْتَدِرَ إِلَى هَلْ نَلَتْ مَكْرَمَةً إِلَّا بِتَأْمِيرِ
عَاشَتْ سَمِيَّةً مَا عَاشَتْ وَمَا عَلِمَتْ أَنْ ابْنَهَا مِنْ قَرْاشَ فِي الْمَاهِيرِ^(١)

على أن أكثر الناس ما لبوا أن نسوا هذا الأمر وطروا صفحته وجروا منه ذلك الحين على أن ينسبوا زباداً إلى أبي سفيان . ولما أصبحت الأمور مواتية لتقليد زباد إحدى الإمارات لـ ولاه معاوية البصرة وخراسان وسجستان في عام ٤٥ هـ ثم مالبث أن جمع له الهند والبحرين وعمان^(٢) .

★ ★

لم يختبر معاوية زباداً لولاية البصرة عفوأ ، وإنما اختاره لها لأنها أصبحت آنذاك مصدر قلق الدولة ، وقد عجزت شخصية ابن هامر الضعيفة عن فرض النظام وهيبة السلطة الحاكمة على القبائل التي استوطنتها . كانت القبائل التي نزحت إليها من المناطق الأخرى تحمل معها خصوصياتها القبلية القدية وعصبياتها ، فهي لذلك في نزاع متصل . وكانت البصرة من ناحية أخرى ممسكاً للجيوش المنطلقة نحو الشرق أو القافلة من غزوتها ، فلم تكن الحال فيها مستقرة هادئة . وكان الفسق فاشياً فيها ، وقد غالب عليها السفهاء ، واحتل الأمن حتى ما يجري الناس أن يخرجوا ، إذا جن الليل ، إلا متشارسين^(٣) . فكانت الحال في هذه المدينة تستدعي وجود وال حازم قوي محظوظ فاختير لها زباد .

قدم زباد البصرة فكان أول ما صنعه أن جمع الناس في مسجدها وخطب فيهم خطبته المتراء المشهورة التي أعلن فيها خطبه التي سيجري عليها . وقد تحقق الناس

(١) العقد العريدي ٥/٥ والبيان لابن مفرغ .

(٢) الطبرى ٤/١٦٥ .

(٣) شرح ابن أبي الحديد ٤/٧٦ .

غينا بعد من صدق زياد حين وجده يلتزم بدقة وحزم تلك السياسة التي تضمنتها خطبته البراء . وكان زياد صريحاً في خطبته هذه لا يحاول أن يخدع سامييه أو يتعلّقون أو يظهر أمامهم بغير مظاهره الحقيقي ، وحين أفهم أنه سيأخذ الولي بالموى والمقيم بالطاعن والمطين بالعاشي كان جاداً فيها يقوله ، عازماً على إنفاذ هذه الخطبة ولو كان فيها جنوح عن جادة العدل المطلق وبمحافاة لروح الشرع ، وحين اعترض عليه أبو بلال أن يعاقب المرء بوزر برتكبه سواء عمل زياد لجوده إلى هذه الخطبة بقوله : « إفا لا نبلغ ما نريد فيك وفي أصحابك حق نخوض إليكم الباطل خوضاً . » (١)

وكان أول ما جأ إليه زياد لإقرار النظام وإشاعة الأمن في البصرة أنه منع الناس من مقادرة دورهم بعد المشاء الآخرة ، وقد ذكر الطبرى أنه كان يؤخر المشاء حتى يكون آخر من يصلى ، ثم يصلى ، فيأمر رجلاً فيقرأ سورة البقرة ومثلها ، يرثى القرآن ، فإذا فرغ أمهل بقدر ما يرى أن إنساناً يبلغ الخريمة ، ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج ، فيخرج ولا يرى إنساناً إلا قتله (٢) . وقد بثت تدابيره هذه الرعب في نفوس أهل البصرة ، فصار الناس يسرعون إلى دورهم بعد المشاء وربما تركوا فعالهم في المسجد خوفاً من أن يفوّتهم الوقت (٣) . ولكي ندرك مدى نجاح زياد في إقرار النظام والأمن في البصرة حسبنا أن نرجع إلى ما قاله عمر بن شبيه في وصف حكم زياد ، قال : « كان زياد أول من شد أمر السلطان وأكمل الملك لمعاوية وألزم الناس الطاعة وتقدم في العقوبة وجرد السيف وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة وخافه الناس في سلطانه خوفاً شديداً حتى أمن الناس بعضهم بعضاً ، حتى كان الشيء يسقط من الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتي صاحبه فأخذته ، وتبين المرأة فلا تغلق عليها بابها ، وساس الناس سياسة لم ير مثلها ، وهابه الناس هيبة لم يهابوها أحداً قبله ، وأدر العطاء وبنى مدينة الرزق . » (٤)

(١) البيان ٦٥/٢.

(٢) الطبرى ١٦٧/٤.

(٣) ابن أبي الحديد ٧٦/٤.

(٤) الطبرى ١٦٧/٤.

غليس من العجيب إذن أن نسمع زياداً يقول : « لو ضاع حبل بيبي وبين خراسان
أعلم من أخيه » (١) . وقد رويت قصص طريفة عن استهباب الأمان في عهد
زياد حتى باتت الإبل لاتحتاج إلى راع يتولاها ويحرسها (٢) .

والسياسة التي جرى عليها زياد في البصرة هي السياسة التي أوضحتها في خطبته
البڑاء ، والتي يظهر فيها بجلاء تأثر زياد بشخصية عمر بن الخطاب و سياساته : سياسة
اللين في غير ضعف والشدة في غير عزف . ومن الأسباب التي لجأ إليها في سياسته
جعله أشراف القبائل وزعماءها مسؤولين عن سلوك سفهائهما وملقحى الفتنة فيها ،
فاضطر هؤلاء الرعماء إلى أن يأخذوا على يد من يخل بالأمن من عشائرهم وبكتوفه
أمرهم . واستطاع زياد بفضل هذه السياسة ، وضربه الناس بعضها ببعض ، أن
يحمد فيها بعد فتنته أثارها الخوارج بالبصرة (٣) . ومن جملة التدابير التي لجأ إليها
اصطناعه أصحاب رسول الله عليه السلام وأشراف أهل البصرة ، وكان يحرص على
أن يضم مجلسه عدداً منهم ، وولي بعضهم أعماله ، كالحكم بن عمرو الغفارى ، وقد
ولاه خراسان ، وولي قضاء البصرة عمران بن الحسين الخزاعي ثم ولـى سمرة بن
جندب وجعله خليفة على البصرة إذا شخص عنها (٤) ، وكل هؤلاء من صحابة
رسول الله عليه السلام . ولا ندري أكان اختياره لأصحاب رسول الله بدافع التقوى
فحسب ، حسبما رأى بعض الباحثين (٥) ، أم أن تفكيره السياسي هو الذي أملأ
عليه هذه الخطة .

وكان من جملة الأعمال التي قام بها زياد حين ولـى البصرة توسيعه مسجدها
وقد زاد فيه زيادة كبيرة (٦) ، ولكي يفرض على الناس هيبة السلطان وجه بعض

(١) المصدر السابق .

(٢) عيون الأخبار ٨/١ .

(٣) الكامل للبرد ١٥٣/٢ .

(٤) الطبرى ١٦٩/٤ .

(٥) لاماس ص ١٠٧ .

(٦) فتوح البلدان ص ٣٥٥ .

عناته إلى المظاهر فكان ، فيها يذكرون ، أول من سير بين يديه بالحرب والعمد واتخذ حرساً خاصاً له كان يلازم المسجد^(١).

★ ★

توفي المغيرة بن شعبة عام ٥٠ هـ فسارع معاوية بضم الكوفة إلى زياد تقديراً لولائه له ولكتفاه السياسية ، فكان أول من جمع له العراقان ، وانسأط لذلك سلطانه وأظلل المشرق كله ، وأصبح الرجل الثاني بعد الخليفة . ولما ولي زياد الكوفة لم تعد البصرة مقره الدائم بل أصبح يقيم في كل من المcriين مدة شهر ، يشتو بالبصرة ويصيف بالكوفة ، وكان خليفته على البصرة إذا شخص عنها سارة ابن جندب ، وخليفته على الكوفة عمرو بن حرث^(٢).

ومنذ أن وطئت قدم زياد أرض الكوفة وجه همه إلى إقرار النظام فيها ، صنيعه بالبصرة ، وخفق صوت المعارضة لبني أمية فيها . وكان حلم المغيرة قد شجع هذا الصوت على أن يرتفع فيها من حين إلى آخر ، وكانت الكوفة مقر أشد المناصر مناوهة للحكم الأموي ، وفي طليعتهم شيعة علي ، فاتجهت نية زياد إلى القضاء على هذه المناصر الخطرة ، وكانت الخطوة التي سلكها لتحقيق هذه الغاية هي تلك التي رسمها لنفسه منذ مستهل حياته السياسية ، والتي اتضحت خطوطها البارزة في قوله لابن عباس حين استشاره : « اضرب من عصاك عن أطاعك » ، ومن ترك أمرك فإنه أعز للإسلام أن تضرب عنقه ، وأصلح له^(٣).

وقد رأى زياد أن يستهل عهده في الكوفة بخطبة يوضح فيها خطته ، شأنه بالبصرة ، ولكن أهل الكوفة الذين عودهم تساهل المغيرة وحلمه التطاول على الولاية جزوه على خطبته بوابل من الحصى ، فرأى زياد ألا مفر منأخذهم بالشدة لاستقاموا ، فأخذ على القوم أبواب المسجد وقادب من حصبه منهم بقطع يده .

(١) الطبرى ٤/٦٩.

(٢) ابن سعد ٧/٧٠.

(٣) ابن عساكر ٥/٤٠٨.

ومنذ ذلك الحين أيقن أهل الكوفة أن زياداً إذا أوعد أهلي وعيده^(١)، وأدركوا أنه من معدن آخر غير معدن سلفه المغيرة.

والاستدلال على براعة زياد في رسم الخطط السياسية الناجحة في القضاء على المعاشر الخطرة التي كانت تهدد كيان الدولة حسبنا أن ذكر التدابير التي لجأ إليها لإضعاف النفوذ القبلي في الكوفة والبصرة، وموقفه من الشيعة والخوارج فيها.

١ - كان زياد يخون تحالف قبائل الكوفة واجتماعها على مناورة الحكم الأموي فلما جاء إلى تدبير من شأنه تفتيت الوحدة القبلية من جهة ، ورمي القبائل بعضها ببعض من جهة أخرى ، إذ ألغى التقسيم القبلي السباعي الذي كان سائداً قبل في الكوفة واستبدل به تقسيماً رباعياً^(٢) . وقد توخي في تدبيره الإداري هذا أن يمزق وحدة القبائل اليمنية التي عرفت بولائها لعلي وأن يجمع القبائل المتعددة في وحدة صناعية ليشغل بعضها ببعض ويصرفها عن عدوها المشترك . فجمع تميم وهدان في ربع ، وكندة وربعة في ربع آخر ، ومذحج وأسدآ في ربع ثالث ، ثم ضم سائر قبائل الكوفة القليلة العدد في ربع واحد هو ربع أهل المدينة ، وهو يقابل خمس أهل العالية بالبصرة^(٣) . وبدلاؤ من أن يتولى زعماء القبائل رئاسة هذه الأربع ، حسبما كان شأنها من قبل ، عين من قبله نقباء لهذه الأربع كان مطمئناً إلى ولائهم له ولبني أمية^(٤) .

ولكي يأمن زياد خطر تزايد عدد الموالي في الكوفة نقل طائفة منهم إلى البصرة، وأنزل طائفة أخرى منهم بلاد الشام . وكان معاوية فيها يظهر هو الذي أوحى إليه بهذا التدبير^(٥) .

(١) الطبرى ٤/١٧٤ .

(٢) كانت الكوفة في بدء فصیرها أعشاراً ثم جعلها سعد بن أبي وقاص أسباعاً ثم جعلها زياد أرباعاً (انظر الطبرى ٣/١٥١) .

(٣) الطبرى ٥/٣٣٠ ولهوزن ١٠٣ .

(٤) انظر أسماء هؤلاء النقباء وأرباعهم في الطبرى ٤/١٩٩ .

(٥) فتوح البلدان ص ٢٨٨ .

ثم عمد زيد إلى تدبير آخر لإنقاص العناصر الخطرة من العراق نهائياً فوجه مع الريبع بن زياد حين ولاد خراسان عام ٥١ هـ - خمسة وعشرين ألفاً من أهل البصرة، ومثلهم من أهل الكوفة، فنزل هؤلاء خراسان واستقروا فيها بعثائهم، فكانوا طلائع القبائل العربية التي استوطنتها.

٢ - أما شيعة الكوفة فإنها لم يستطع أن يقضي على خطرهم باصطدام زعمائهم، صنيعه بشيعة البصرة ورئيسهم شريك بن الأعور، فرأى ألا مفر من ركوب خطوة الخزم إزاءهم وأن يهداش بطائفة من أعيانهم ورؤوسهم ليستقيم أمرهم، وكان من براعة تدبيره أنه استعان في البطاش بهم بأهل الكوفة أنفسهم، فكفى العراق بأهل العراق، منفذاً بذلك خطته السيامية التي تقوم على ضرب الناس بعضها ببعض.

كانت طائفة من شيعة الكوفة يتزعمها حجر بن عدي الكوفي قد أطمعها حلم المغيرة بن شعبة فاجترأت على شتمه وشتم بي أمية، ردأ على شتم هؤلاء عليهما، وأظهرت الاستخفاف بوالها، ولم تعبأ بهديده إياها. على أن المغيرة لم يلتجأ إلى الشدة، ابشاراً للعافية، واكتفى بقطع العطاء عن حجر وأصحابه، وكان، فيما يذكر الطبرى، يتوقع لحجر وأصحابه القتل على يد الوالي الذي سيخلفه، لأن سياسة الخليفة عودتهم الاجتراء على الولاية، وهؤلاء ليس لهم جمِيعاً مثل حلمه واحتماله^(١). وقد صح ما توقعه المغيرة فإن حجرأً توهם أن زياداً، صديق الأمس، سيفضي صنيع المغيرة، عن نطاقه على بي أمية وولاتهم، فكان يجتمع إليه شيعة علي فيظرون لعن معاوية والبراءة منه، بل إنهم اجترأوا على حصب عمرو بن حرث، خليفة زياد على الكوفة. وبلغ زياداً أمرهم فكتب إلى معاوية بخبرهم فأمره أن يشد حجرأً وأنصاره في الحديدة ويوجههم إليه. وحين أراد زياد إيقاع الأمر حال أنصار حجر دون ذلك ولجأوا إلى القوة، فكان عملهم هذا مسوعاً لمعاملتهم، حين قبض عليهم، معاملة المتمردين الثائرين على السلطة. وما ظفر بهم زياد أشهد رؤوس الأربع على حياتهم فشهدوا على ذلك، وكذلك سائر الناس، وبذلك استطاع زياد

أن يدين حجرًا بشهادة أهل الكوفة أنفسهم ، فلما جيء بهم إلى معاوية اعتمد على هذه الوثيقة فأمر بقتل حجر وسبعة من رؤوس أصحابه وجماعته ^(١) . وقد أثار مقتل حجر غير قليل من السخط على معاوية وعامله زياد ، واعتبر القتلة إحدى موبقات معاوية ^(٢) ، وحاك الشيعة حوله طائفة من الأحاديث والأمساطير . على أن زياداً حرق بعمله هذا ما كان يتواهه من فرض هيبة السلطان على أهل الكوفة ، وحملهم على لزوم الطاعة والأخلاق إلى السكينة .

ـ ـ لم تظهر في عهد معاوية ثورات خارجية ذات بال ، ويرجع كثيرون من الفضل في هدوء حركات الشراة في عهده إلى سياسة زياد في معاملتهم . وكان من روافر هذه السياسة عدم الاعجوء إلى القوة إلا إذا لم يكن مفر منها ، وكذلك عدم التعرض لمن لا يجاهره بالعداوة . وقد جاء في حديث له عن أحد رؤوس الشيعة : « لو علمت أن من ساقه قد صالح من بغضي ما هبته حتى يخرج على ^(٣) » ، وكذلك كان شأنه في معاملة الخوارج إذ كان « يقتل المعلن ، ويستصلح المسر ، ولا يجرد السيف حتى تزول التهمة ^(٤) » . وقد صور المؤرخون الساخطون على بي أمية زياداً في صورة الوالي المتعطش إلى البطش وسفك الدماء ، وهي صورة لأنجالها تحمل زياداً على حقيقته . فهو بدلًا من أن يضع السيف في الخوارج مثلاً مملكته سبيل المصادمة مع من أسر منهم العداوة . وقد روى المبرد أنه كان يبعث إلى الجماعة منهم فيقول لهم : « ما أحسب الذي يمنعكم من إتيافي إلا الرجلة - أي أنهم لا يقدرون على المثي - فيقولون : أجل ، فيحملهم ويقول : اغشوني الآن واسيروا عندي ^(٥) » ، وكان ربما يدعو الخوارج إليه فيكسوهم ويصلهم ^(٦) . وبلغه أن أحد

(١) انظر تفصيل مقتل حجر في تاريخ الطبرى ١٨٧/٤ .

(٢) الطبرى ٤/٤ . ٢٠٨ .

(٣) الطبرى ٢/٢ . ١٧٦ .

(٤) الكامل للمبرد ٢/٦٢ . ١٦٢ .

(٥) الكامل للمبرد ٢/٦٣ . ١٦٣ .

(٦) الكامل ٢/٦٢ . ١٦٢ .

أهل النجدة والأسرى رأى الخوارج فولاه بعض أعماله ، فكان هذا الخارجى يقول بعده : « ما رأيت خيراً من نزوم الطاعة والتقلب بين أظهر الجماعة(١) ». أما من جهر بالعداوة منهم وأعلن الثورة ، وهم قلة ، فقد وكل بهم زياد قبائلهم وجعلها مسؤولة عن سلوكهم فلم يك足 نفسه عناء قتالهم . وهكذا حين خرج قريب بن مرة الأزدي وزحاف الطائي بالبصرة واعتربوا الناس سارعت قبيلة الأزد إلى قتال هذين الخارجيين وقضت على حركتها ، خوفاً من زياد . وقد علق المبرد على هذه الحادثة بقوله : « فكانت القبائل إذا أحسنت بخارجية منهم شدتهم وأنت بهم زياداً » ، فكان هذا أحد ما يذكر من صحة تدبيره(٢) . ، وقد اتبع زياد طريقة خاصة لمنع النساء من الخروج عليه ، فقد ظفر بأمرأة منهم فقتلها ثم صرّاها ، فلم تخرج النساء على زياد بعده خوفاً من التعرية(٣) .

ذلك هي الخطوط الكبيرة في سياسة زياد التي اتهجها إبان ولايته على العراق . ولدى جانب ذلك قام زياد بطاقة من الاصلاحات ولكن على نطاق ضيق ، وذلك كنوع منه مسجدي البصرة والكوفة ، وإيمازه إلى أبي الأسود الدؤلي بوضع علم النحو ، حسبما تذكر إحدى الروايات(٤) . وقد لخص ابن عبد ربه ما قام به زياد من أعمال فقال : « وهو أول من عرف العرقاء ، ودعا النقباء ، ونكب المناكب ، وحصل الدواين ، ومشى بين يديه بالعمد ، ووضع الكراسي وعمل المقصورة ، ولبس الزيري ، وربع الأربع بالكوفة ، وخمس الأخماس بالبصرة ، وأعطي في يوم واحد المقاتلة والذرية من أهل البصرة وأهل الكوفة ، وبلغ بالمقاتلة من أهل الكوفة ستين ألفاً ، ومقاتلة البصرة ثمانين ألفاً ، والذرية مائة ألف وعشرين ألفاً ، وضبط زياد وابنه عبيد الله العراق بأهل العراق(٥) . ، ولا نحسب الأصمعي إلا مسرفاً على

(١) الكامل ١٦٢/٢.

(٢) المصدر السابق ١٥٣/٢ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) وفيات الأعيان ٣٣٩/١ .

(٥) المقد الفريد ٨/٥ .

زياد حين ذكر أنه «أقام تسع سنين على العراق لم يضع لبنة على لبنة ، ولم يغرس شجرة^(١) . » وفي بعض ما ذكره صاحب العقد نظر ، فأخamas البصرة مثلًا كانت معروفة قبل عهد ولاية زياد^(٢) .

أما خارج نطاق العراق فقد عرف عن زياد تدقيقه في اختيار أعماله . وكان يؤثر بأعماله من كانت لهم صحة أو من عرروا بتقاهم وصلاحهم . وقد قسم خراسان أرباعاً وولاها الحكم بن عمرو لأنّه رأى له شرفاً وصحبة من رسول الله^(٣) ، ثم اختار لها بعد وفاة الحكم الريبع بن زياد الذي قام ببعض الفتوح وكان أيضاً من عرروا بالصلاح والتقوى . وتتضاعف لنا سياسته في أعماله من الوصية التي كان يوصي بها من يوليه عملاً له فإنه كان يقول له : خذ عمدك ، وسر إلى عملك واعلم أنك مصروف رأس ممتلكك ، وأنك تصير إلى أربع خلل ، فاختر لنفسك : إنا إن وجدناك أميناً ضعيفاً استبدلنا بك لضعفك ، وسلمناك من معرضاً أماتك . وإن وجدناك قوياً خائناً استمنا بقوتك ، وأوجعنا ظهرك ، وثقلنا غرمك . وإن جمعت علينا الجرمين ، جمعنا عليك المضرتين ، وإن وجدناك أميناً قوياً ، زدنا في عملك ، ورفعنا ذرك ، وكثروا مالك ، وأوطأنا عقبك^(٤) .

في ضوء هذا المرض السريع للحياة زياد السياسي نود أن نصدر حكماً حياديًا على زياد السياسي وعلى كفاءته الإدارية ، وأن نوازن بينه وبين رجلين من أقطاب السياسة في العصر الأموي هما معاوية والحجاج ، ثم نبين منزلة زياد عند معاوية خاصة وبني أمية عامة .

لم يكن زياد سفاحاً مبيراً ولا ظالماً غشوماً كما تحاول أن تصوره بعض الأخبار ، ولا سيما تلك التي مصدرها مؤرخو العراق الناقون على بيـنـيـةـ وـعـمـالـهـ . وكان واليـاـ حازـماـ حدـيدـيـ القـبـضةـ ، ولـكـنـهـ لمـ يـكـنـ طـاغـيـةـ عـاتـيـاـ . وأخـبارـهـ التيـ أورـدـاـ

(١) تاريخ ابن عمار ٤١٤/٥ .

(٢) الطبرى ٤/١٠٩ .

(٣) الطبرى ٤/١٧٠ .

(٤) الأمالى ٢/٨٢ .

جانباً منها تدل بخلاف على أنه لم يكن يلتجأ إلى القوة والعنف إلا حين لا يكون ثمة مناص من الموجة إليها ، ولم يكن يضع السيف في موضع الندى ولا الندى في موضع السيف . وكان يعتبر إمامه في السياسة والإدارة عمر بن الخطاب ، ويتوخي أن يكون مثله حزماً وعدلاً واستقامة ، فلا غررو أن يرضى عنه أهل فارس حين وجه إليهم وأن يشهدوا سيرته بسيرة كسرى أنوروان . ولكن طبيعة العمل الذي أسند إليه كانت تلجمه إلى أن ينخطي أحياها حدود العدل المطلق والتمسك الدقيق بمباديه عمر ، والتزام الشرع التزاماً صارماً . وقد حاول مرة أن يرغم عامـله على خراسان على أن يجري في توزيع الغنائم على خلاف ما كان متبعاً منذ عهد عمر ، إرضاء لعاوية^(١) . وقد أصاب الحسن البصري في قوله : « تشبه زياد بعمر فأفرط^(٢) » . وقد وضع زياد لنفسه مبادئ سياسية واضحة قلماً كان يجيد عنها ، وأراد أن يقف الناس على سياسته هذه فكتب على جدران مجلسه ، فيما ذكرروا ، العبارات التالية : « الشدة في غير عنف ، واللين في غير ضعف . المحسن يجاذى بإحسانه ، والسيء يعاقب بأساءته . الأعطيات والأرزاق في إبانها . لا احتجاح عن طارق ليل ولا صاحب ثغر^(٣) » ، وخطبته البراء تشتمل على تحنيط واضح دقيق لهذه السياسة ، وهي بثابة البيان الوزاري الذي تقدم به الوزارات إلى المجالس النيابية في عصرنا الحاضر . على أن زياداً كان لا يكتفي بالكلام بل يقرن القول بالعمل ، سواء في وعده أو وعيده ، وقد قال فيه الشعري : « والله ما تعلقنا عليه بكذبة ، وما وعدنا خيراً ولا شراً إلا أنفقه^(٤) » .

وكان خيراً ما يشهد بكافأته السياسية أنه كفى العراق بأهل العراق ، فلم يحتاج إلى الامتناع بجيوش أهل الشأم ، صنيع الحجاج بعده . وبفضل سياساته الخازمة التي جعلت كل قبيلة مسؤولة عن سلوك أفرادها استطاع أن يقمع كل محاولة

(١) الطبرى ٤/٥٠ .

(٢) الطبرى ٤/٨٧ .

(٣) البيان ٢/٦٦ .

(٤) العقد الفريد ٥/٧ .

(٥) الطبرى ٤/١٧٥ .

لإثارة الفتن في العراق ، وقد أدت سياساته القائمة على توزيع الأعطيات في إبانها وعدم تجاهل المسؤول إلى إشاعة الرضى والشعور بالطمأنينة بين جهور العراقيين . ونحن لا نبرئه زباداً من السعي وراء مصلحته الخاصة وإنفاسه موارده ورعايته لصالح ذويه ، ولكنه مع ذلك لم يكن يغفل مصالح الرعية ولا مصلحة الدولة التي ي يعمل لها ، وخير ما يشهد بحسن سياساته قول عمر بن عبد العزيز فيه حين بلغه استصلاحه الخوارج : « قاتل الله زباداً ، جمع لهم كما تجمّع الدرة ، وحطّهم كما تحوط الأم البرة ، وأصلح العراق بأهل العراق ، وترك أهل الشام في شأهم » . وجبي العراق مائة ألف ألف وثمانية عشر ألف (١) .

ونحن لا نبرئه زباداً أيضاً من الميل إلى العنف والشدة ، وقد أباح خليفته على البصرة سمرة بن جندب أن يسلك هذه الخطوة فقتل من أهل العراق خلقاً كثيراً ، فيما يذكر الطبرى (٢) . وهو بهذه الصفة يختلف عن معاوية الذي كان أكثر ميلاً إلى التسامح والحلم . وتنظرنا الحادثة التالية على اختلاف سياسة الرجلين ، قال زباد : « ماغلبني أمير المؤمنين إلا في واحدة : طلبت رجلاً فلرجأ إليه وتحرم به . فكتب إليه : إن هذا فساد لعملي ، إذا طلبت أحداً لجأ إليك فتحرم بك . فكتب إلى : إنه لا ينبغي لنا أن نسوس الناس بسياسة واحدة فيكون مقامنا مقام رجل واحد ، ولكن تكون أنت للشدة والغلظة ، وأكون أنا المرأفة والرحمة ، فيستريح الناس فيما يعنينا (٣) . » ، وهذه الحادثة تظهرنا كذلك على أن معاوية كان أكثر حنكة سياسية من واليه المفضل . ويتجلّى بعد نظر معاوية وتفوّقه على زباد في النظر السياسي في حادثة أخرى كانت بين زباد والحسن بن علي ، وذلك أن زباداً طلب رجلاً كان في الأمان الذي سأله الحسن بن علي لأصحابه ، فكتب فيه الحسن إلى زباد : « من الحسن بن علي إلى زباد . أما بعد فقد علمت ما كنا أخذنا لأصحابنا ،

(١) الكامل للمرد ١٦٣/٢ .

(٢) الطبرى ١٧٦/٤ .

(٣) العقد الفريد ١٠/٥ .

وقد ذكر لي فلان أنك عرضت له ، فأحبب ألا تعرض له إلا بخيار . » فلما أتاه الكتاب غضب إذ قدم نفسه وعليه ولم ينسبه إلى أبي سفيان ، فكتب إليه : « من زياد بن أبي سفيان إلى الحسن . أما بعد ، فقد أتاني كتابك في فاسق يؤويه الفساق من شيعتك وشيعة أبيك ، وائم الله لأطلبنه ولو بين جلدك ولحمك . وإن أحب لحم إلى أن آكله لحم أنت منه » فكتب الحسن إلى معاوية يشكّو زياداً ، وأدرج كتاب زياد داخل كتابه . فلما قرأه معاوية غضب وكتب إلى زياد : « أما بعد ، فإن لك رأيين : أحدهما من أبي سفيان والآخر من سمية . فاما الذي من أبي سفيان فلزم وعزم . وأما الذي من سمية فكما يكون رأي مثلها . وإن الحسن ابن علي كتب إليك أنك عرضت لرجل من أصحابه ، وقد حجز ناه عنك ونظراته ، فليس لك على واحد منهم سبيل ولا عليه حكم ، وعجبت بذلك حين كتبته إلى الحسن لا تنسبه إلى أبيه ، أفالى أمره وكاته لا أم لك . فهو ابن فاطمة الزهراء ابنة رسول الله ﷺ ، فالآن حين اخترت له (١) . »

ويظهر إيمار زياد للبطش على الحلم في حادثة أخرى رواها صاحب المقد ، فتبين
منها حلم معاوية عن رجل وضع يده على كفله وهو ساجد ، وقد قتل زياد هذا
الرجل عينه لأنه اجترأ فسأله عن أبيه وهو قائم يخطب في الناس (٢) . على أن
من الإنصاف لزياد أن ذلك تمس له العذر في خطة البطش والشدة التي مار عليها
وبعده عن الحلم ، لأنّه لو مار على سياسة الحلم وحدتها في العراق لما استطاع أن
يقرر النظام في بلد ألف التمرد والثورة علىبني أمية ولاتهم ، وكان أهله بعدهون
الحلم ضعفاً ووهناً من ولاتهم فيزدادون احترازه عليهم واستخفافاً بهم .

وعلى الجملة كان زياد صاحب مدرسة في السياسة فذة برهن نجاحه فيها على جدارته بأن يمد واحداً من دهاء العرب الأربع في عصره : معاوية ، وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ، و زياد (٣) . وقد تخرج من مدرسة زياد السياسية هذه

(١) المقد الفريد ١١/٥ والبيان ٢٩٩/٢ باختلاف يسير بين الروايتين.

(٢) العقد الفريد ٤٢/١

(٣) المقعد ٧/٥ .

تميذ كان أيضاً من أبناء الطائف ومن أمعن ولادة بني أمية هو الحجاج بن يوسف التقى . وقد حاول الحجاج أن يجري في سياسة أهل العراق على خطأه أستاذه زياد ولكنه أخفق في أن يحقق التوازن بين خطة الحزم والشدة وخطأه الدين والمصانعة ، وهو ما نجح فيه زياد ، ولجأ إلى القوة وحدها فسفك الدم جزافاً وامتلاً عهده بالفتن والثورات . وقد صرحت في هذين السياسيين قول الحسن البصري : « تشبه زياد بعمر فأفرط وتشبه الحجاج بزياد فأهلك الناس »^(١) . وأجاد عباد بن زياد الموازنة بين الرجلين حين سأله عبد الملك عن أبيه وعن الحجاج فقال : « يا أمير المؤمنين إن زياداً قدم العراق وهي جمرة تشتعل ، فسل أحقادهم ، وداوی أدواهم ، وضبط أهل العراق بأهل العراق . وقدمها الحجاج فكسر الخراج ، وأفسد قلوب الناس ، ولم يضبطهم بأهل الشام فضلاً عن أهل العراق . ولو رام منها ماراًه زياد لم يفجأك إلا على قعود يوجف به »^(٢) . والحق أنه ما من فتنة ثارت في العراق أيام الحجاج إلا استعين بأهل الشام لإخمادها ، وكانت خطأة الحجاج القاعدة على العسف وسفك الدماء جزافاً وإعلاء كلمة السيف وحدها هي السبب في أكثر الثورات التي قامت في عهده .

كل ما قدمناه يفضي بنا إلى أن نعد زياداً أربع ولادة الأمويين قاطبة ، وقد عرف له معاوية مكانته هذه فلم يتردد في توسيع سلطاته ، وكان يغضب لغضبه ويرضى لرضاه ، فإذا هاجه عبد الرحمن بن الحكم لم يرض عنه معاوية حتى يعتذر له ويرضى عنه »^(٣) . وإذا قال ابن عامر منه أظهر معاوية الغضب عليه حتى يضطره إلى التماس الصفع من زياد . وكان من أوضح الدلائل على ارتفاع منزلة زياد عند معاوية أنه أرجأ الدعوة إلى بيعة زياد إلى ما بعد وفاته ، وكانت معاوية قد استشاره في هذا الأمر فأشار عليه بالتراث فيه »^(٤) . أما ما جاء في

(١) البيان ٦٦/٢ .

(٢) المقد ٥/٨ .

(٣) المقد ٥/٨ .

(٤) الطبراني ٤/٢٤٠ .

تاریخ ابن عساکر من أن زیاداً كان يفكّر في صیورۃ الامر إلیه بعد معاویة وأن معاویة عرض به في مجلسه لهذا السبب وقال إن الخلافة لا تكون لمنافق (١)، فخبر لا نعتقد بصدقته ، وهو ينافق كل المذاقنة ما نعرفه عن نفسیة زیاد وحسن تقدیره للأمور .

وتقدیر أم خدمات زیاد عین معاویة ابنه عبید الله والیاً على خراسان بعد وفاة أبيه ، ثم ولاد البصرة (عام ٥٥ھ) ثم ما لبث أن جمع له الكوفة أيضاً (٢) . وكذلك ولی عددًا من أبناء زیاد أعمالاً أخرى . وثمة رواية تزعم أن عبید الله ابن زیاد قدم على معاویة بعد وفاة أبيه فوجد منه إعراضاً ، فتكلم ابن زیاد متصرراً لأبيه ، مددداً فضائله ، فيرد عليه معاویة بكلام ينافق فيه من شأن زیاد ويعرض به ، ويتهمه بأنه قابل اصطناعه بالكفر ، وأنه ما قال إلا عائد ، ولا قام إلا قعد ، إلخ ... (٣) . وهذا الحديث ظاهر الافتعال ، وهو ينافق رأي معاویة في زیاد مذاقنته تامة . ويظهر الافتعال أيضاً في هذا الحوار الظاهر التناقض الذي قيل إنه دار في هذا المجلس بين ابن زیاد و معاویة . ونحن نميل إلى قبول ما جاء في مصادر أخرى من خبر وفوده على معاویة ، عقب وفاة أبيه ، وكان بعضهم قد أشار على زیاد حين دنت منيته باستخلاف عبید الله فأبى لاعتقاده أن عمها — معاویة — إذا رأى فيه خيراً فسيوليه . فلما توفي زیاد شخص عبید الله إلى معاویة فقال له : « ما منع أباك أن يوليك ، أما أنه لو فعل لفعلت » . فقال عبید الله : « يا أمير المؤمنين ، لا يقولونها أحد بعدي : ما منع أباه وعمه أن يكونوا استعملاء » . فرغم فيه معاویة فاستعمله على خراسان (٤) .



شاء خیال الرواۃ ، ولا سیما من خصوم زیاد وحساده ، أن يختتم حیاة زیاد

(١) ابن عساکر ٤١٧/٥ .

(٢) الطبری ٤/٤٢٢ .

(٣) العقد ٤/٤٨٣ .

(٤) عيون الأخبار ١/٢٩٢ .

خاتمة قصصية وأن يقرن سبب وفاته بتحرفات بدرت منه ، من ذلك ما روي من أنه كان جمع الناس بالكوفة ليأخذهم بالبراءة من علي ومن أبي ذلك عرضه على السيف ، فلم يلبي أن أصحابه الطاعون^(١) . وصورت روایات أخرى زياداً وقد غلب عليه الحشوم والطاعم فكتب إلى معاوية أنه قد ضبط العراق بيمينه وشماله فارغة ، فجمع له الحجاز مع العراقيين واتصلت ولايته بأهل المدينة فاجتمع الناس بمسجد رسول الله ﷺ وضجوا إلى الله ولاذوا بقبر النبي ثلاثة أيام ، فيخرجت في كفة بثرة فبحركها ثم سرت واسودت فصارت أكلة سوداء فهلك بذلك^(٢) . وتحمل روایات أخرى الناس يفزعون إلى عبد الله بن عمر ، حين بلغتهم تعریض ابن زياد لمعاوية بولاية الحجاز ، فيدعوه ابن عمر على زياد فلا يلبي أن يصييه الطاعون فيهلك^(٣) . ونحن لا يسعنا إلا أن نقف من هذه الروایات كلها موقف الشك والارتياح ، وأن نرجح افتراضها من قبل خصوم زياد وحساده الذين نفروا عليه انساع سلطانه . بل إن بعضها منسوب إلى كثير بن زياد ، وقد ذكرت هذه الروایة أن معاوية ضم إليه اليامة^(٤) . ولا يبعد أن تكون هذه الروایة وليدة المماasse بين اسرتي زياد والحجاج ، على ما يستظہر لا منس^(٥) . ونحن نشك كثيراً في أن يقدم زياد على طلب توسيع سلطانه ، مثيراً بذلك ريبة معاوية ومخاوفه ، وكانت ولاية العراقيين وما إليها خليقة بأن تلاً يديه كلتهما ، بل أن تفليس عنها ، فما حاجته إلى طلب المزيد من المتاعب والمشاغل . إن كل ما نستطيع الاطمئنان إليه هو أن زياداً أصيب بالطاعون الدملي ، وكانت الطواعن كثيرة الانتشار في بلاد العراق الوربة ، فلما ظهرت الدبيلة في أصبهان فاستشار الأطباء في أمرها فأشار عليه بعضهم بقطعها ، وأشار عليه آخرون بمحوها في الخل^(٦) .

(١) ابن عساكر ٤٢١/٥ وسروج الذهب ٦٨/٢ والطبرى ٤/٢٢٠ .

(٢) سروج الذهب ٦٨/٢ .

(٣) الطبرى ٤/٢١٥ وعقد الفريد ٥/١٢ .

(٤) الطبرى ٤/٢١٥ .

(٥) لامس ص ١٤٤ .

(٦) عيون الأخبار ٢/١١٤ .

فلم يصح عزمه على قطعها امتنشار شريحاً قاضي الكوفة فأشار عليه ألا يفعل، كراهة أن يلقى الله أحذن، وقد قطعها فراراً من قضاةه وبغضاً للاقائه، أو يعيش أحذن فيغير ولده بذلك. فأخذ زياد برأيه ولم يثبت أن مات. وتنذر بعض الأخبار أن الناس لا موا شريحاً لما أشار به على زياد فاعتذر إليهم بقوله عليه السلام إن المستشار مؤمن^(١).

أما مدة وفاته فأكثر الروايات على أنها كانت في رمضان من عام ٥٤ للهجرة^(٢)، وكانت وفاته بالكوفة فدفن بمكان قريب منها يعرف بالمؤبة. ونجد تحديداً دقيقاً ليوم وفاته في مرثية الجعد بن قيس له، ويستدل منها على أنه توفي يوم الثلاثاء لأربع مصين من شهر رمضان^(٣)، ولكن الشاعر لا يحدد مدة وفاته، فإذا أخذنا بهذه الروايات يكون زياد قد هلك وهو ابن خمس وخمسين على وجه التقرير، وقد جاء في بعض الروايات ما يؤيد هذا^(٤). أما البغوي فيذكر أن وفاته كانت عام ٤٥ هـ^(٥). على أن لا منس بؤخر سنة وفاته إلى عام ٥٦ هـ اعتماداً على نقوش عليها وقد نقش عليها اسم زياد وتاريخ سكها يرجع إلى سنوات ٤٥ و٥٥ و٥٦ للهجرة، وهو يرجع لذلك أن وفاته كانت في الرابع من رمضان ٥٦ للهجرة^(٦). وقد خلف زياد زهاء عشرين ولداً وثلاثين وعشرين بنتاً؛ ومن أولاده الذين كان لهم شأن بهذه عبید الله وسلم وعباد والمغيرة وعبد الرحمن^(٧).

وكان لوفاة زياد صدى ارتياح وشماتة لدى خصوم بني أمية والكارهين لحكمه. وقد ذكروا أن عبد الله بن عمر قال حين بلغه نبأ وفاته: «اذهب، إليك ابن

(١) الطبرى ٤/٢١٥، وسروج الذهب ٢/٦٨.

(٢) الطبرى ٤/٢١٤ وسروج الذهب ٢/٦٨ وابن عساكر ٤١٤/٥، وابن سعد ٧٠/٧ وأسد الغابة ٢/٢١٥.

(٣) الطبرى ٤/٢٢١.

(٤) سروج الذهب ٢/٦٨.

(٥) تاريخ البغوي ٢/٢٨٠.

(٦) لامنس ص ١٠٠.

(٧) المعارف ص ١٥١.

سيمة فلا الدنيا بقيت لك ، ولا الآخرة أدركت .^(١) وكذلك هجاء الفرزدق بأبيات
لطاردته إيه بسبب تعرضه للناس بهجاءه . على أن زياداً لم يعدم أصدقائه أو فياء
يأسون لوفاته ، وقد رثاه عدد من الشعراء منهم مسكن الدارمي والحمد بن قيس
وصديقه الأثير حارثة بن عبد العذاني ، ومن مرثيته هذه قوله :

أبا المغيرة ، والدنيا مفجعة ،
وإن من غرت الدنيا لمغور
قد كان عندك المعروف معرفة
وكان عندك للفكراء تفكير
إذا خلوك الإسلام ذا قدم
لو خلد الخير والإسلام وانطهر^(٢)



(١) الطبرى . ٢١٥/٤

(٢) زهر الآداب ٤/٤٥٧ والعقد ٣/٦٠٠ والخير : الكرم وشرف الأصل .

جوانب من شخصيته

كشفت لنا سياسة زياد عن جانب من صفاته الخلقية التي كان لها أثر واضح فيها أصابه من توفيق ونجاح إبان ولايته على العراق ، فقد وجدنا فيه ذلك الرجل الحازم الماضي العزم الذي لا تثنيه الصعاب عن تحقيق أغراضه ، وقد وصف زياد نفسه بهذه الصفة فقال : « ما حمدت نفسي في أمر قط عقدت نفسي فيه عقدة ضعف ، ولا لست نفسي في أمر قط عقدت فيه عقدة الخزم ، ولا حدثت نفسي بأمر قط خدئت به غيري حتى أصير إليه^(١) » .

ووجدنا فيه أيضاً رجلاً جريئاً فيها يرى أنه الحق ، صريحاً ، بعيداً عن المداورة والنفاق والكذب . وقد شهد له أصدقاؤه وأعداؤه على السواء بأنه ما وعد أهل العراق أو أوعدهم إلا أمضى وعده ووعيده^(٢) .

ووجدنا فيه كذلك مياميناً ليقاً بعيد النظر ، خيراً بتصريف الأمور والاحتيال للمازن التي يقع فيها ، ومتى يظهرنا على حسن تدبيره أيضاً قوله : « ليس العاقل الذي يحتال للأمر إذا وقع فيه ، ولكن العاقل الذي يحتال للأمر أن لا يقع فيه^(٣) » . ولهذا عده الناس واحداً من دهاء العرب الأربعة .

وإن ما أصابه زياد من نجاح في سياسته يعود كذلك إلى خبرته بنفس العربي وطبعه ، وإلى فراسته ودقة ملاحظاته ، وقد أثارت له مواهبه هذه أن يسوس كل طائفة من الناس السياسة التي تلامها .

وإلى صفاته هذه اجتمعت فيه خصال أخرى تدخل في تكوين شخصيته ، فقد

(١) ابن حساكر ٤١٦/٥ .

(٢) الطبرى ١٧٥/٤ .

(٣) ابن حساكر ٤١٧/٥ .

كان كريماً يحرص على أن تكون مائته حافلة دائمًا بالطاعمين، وقد حدثنا أنه كان لا يطعم طعاماً إلا مع العامة^(١).

وكان بارًّا بأسرته، حفياً بذوي قرباه، وصولاً لرحمه، يجود على ذويه وأقربائه بمال وبيطتهم الأرضي ويولهم الولايات. وقد ذكر البلاذري أنه أقطع كل بنت من بناته متين جريماً، وأقطع أخاه نافعاً ما مشى^(٢)، وعلى رغم الجفوة التي حكانت بينه وبين أخيه أبي بكرة قرب أولاد أخيه إليه وأقطعهم الولايات حتى صاروا إلى دنيا عظيمة^(٣). ولما اشتدت وطأة المرض على أبي بكرة ونقل أرسلي إليه زياد أنس بن مالك ليصلح ما يدهما، وكان مما قاله أنس لأبي بكرة: «اتق الله»، أبا بكرة، في زياد أخيك، فإن الحياة يكون فيها ما يكون، فاما عند فراق الدنيا فليست غرفة أحد كما لصاحبه، فوالله، ما علمت، إنه لوصول الرحمن: هذا عبد الرحمن ابنك على الأبلة، وهذا داود على مدينة الرزق، وهذا عبد الله على فارس كلها. والله ما أعلم إلا بجهدك». فلما أصر أبو بكرة على القطيعة وأقسم لا يكلمه زياد ولا يصلي عليه، خرج زياد من الكوفة فصلى عليه أنس بن مالك^(٤).

وكذلك كان زياد وفيما لأصدقائه، يدلي بجلسهم ويسامرهم وبكرتهم ولو حضرته هذه الصداقة أحياناً للمؤاخذة واللوم. وكان من أصدقائه المقربين حرثة بن بدر، وكان مولعاً بالشراب سيء السمعة، وعلى رغم ذلك لم يتخلى عنه زياد، وكان يتحمل ما يبدئ منه من هزل ومعاشرة في مجلسه، على حرص زياد على التزام الحد الصارم في حضرته^(٥). وعما يدل على رعايته لحقوق الصداقة ما يروى من أن رجلين اختصاً به فقام المدعى عليه: «أيها الأمير، إنه ليس فهو على» بخاصة ذكر أنها له منك». فقال زياد: «صدق، وسأخبرك بمنفعتها له: إن يكن الحق عليك أخذتك به، وإن يكن لك عليه حكمت عليه، ثم قضيت عنه»^(٦).

(١) المصدر السابق ٤٦٥.

(٢) فتوح البلدان ص ٣٧١.

(٣) طبقات ابن سعد ٧ ق ٨/١.

(٤) العقد الفريد ٩/٥.

(٥) العقد الفريد ٥٩/٣.

(٦) البيان ٣٠١/٢.

ليحتجم عن دوس جميع القيم الخلقية بقدمه حين تستوجب ذلك مصلحة الدولة ، شأنه حين بطش بمحجر بن عدي ، صديقه بالأمس .

وكان زياد يعرف لكل طبقة من الناس قدرها ومتانتها ، ويحرص على تقوير الأشراف وذوي الأنساب والأمناء وحملة العلم ، وكان مما أوصى به الناس قوله : « استوصوا بثلاث منكم خيراً : الشريف والعالم والشيخ ». فوالله لا يأتيني شيخ بمحدث استخف به إلا أوجعته ، ولا يأتيني علم بجاهل استخف به إلا نكثت به ، ولا يأتيني شريف بوضيع استخف به إلا خربته^(١) . » ، وما ينبع عن معرفته بأقدار الناس هذا الحوار الذي دار بينه وبين حاجبه عجلان . فقد سأله زياد : كيف تأذن للناس . فأجاب بقوله : « على البيوتات ، ثم على الأنساب ، ثم على الآداب ». قال : فمن تؤخر . قال : من لا يعبأ الله بهم . قال : ومن هم . قال : الذين يلبسون كسوة الشتاء في الصيف ، وكسوة الصيف في الشتاء^(٢) . » ، وكان زياد يحسن لـ أكرام جلسائه والحفاوة بهم ، وقد قال قبيصة بن جابر بصفه : « سمعت زياداً فما رأيت رجلاً أخصب نادياً ولا أكرم جليسًا ولا أشبه سريرة بعلانية منه^(٣) . »

وقد وصف لنا زياد بأنه كان مهيب المنظر ، يفرق الناس من لقائه والمثول بين يديه ، وروي عن بعضهم قوله : « ما رأيت زياداً كاسراً إحدى عينيه ، واضحاً إحدى رجليه على الأخرى ، يخاطب رجلاً ، إلا رحمت المخاطب^(٤) . » ، وكان مما يزيد في تميزه الناس له حرصه على التزام الجد في معالسه ، فلم يكن من يماسطون محدثهم بالمزاح والمفاكرة أو يفسحون في مجالسهم مجالاً للدعابة والتندر ، وحين غلبت النكتة على صديقه حارثة بن بدر في قضائه بين بي طفاوة وبني راسب خلا به زياد ولاته على جنوشه إلى الدعابة في مجلسه وأمره لا يعود إلى مثلها^(٥) .

(١) العقد ٤/١٣ وابن عساكر ٤١٥/٥ .

(٢) العقد الفريد ٥/١٢ .

(٣) ابن عساكر ٥/٤١٤ .

(٤) شرح النهج ٤/٧٤ ، وكان في إحدى عيني زياد انكسار .

(٥) العقد ٣/٥٩ .

زياد الخطيب المفوّه

أوتي زياد موهبة بيانية وفصاحة واستنبطت منه أحد أعلام الخطابة البارزين في عصر بيبي أمية . وأول ما تجلت موهبته هذه في أيام عمر حين قدم عليه بشيراً بفتح أفاء الله على المسلمين ، فأعجب عمر ببلاغته واقتداره على القول ودعاه بالخطيب المقصع ^(١) . على أن الخطبة التي كشفت عن موهبة زياد الخطابية الفذة إنما هي خطبته البراء التي قالها يوم قدم البصرة واليام عليها ، وقد انتزعت هذه الخطبة إعجاب البلقاء فقال ابن الأهتم لما سمعها : « أشهد أنها الأمير لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب ^(٢) . » ، وخطب زياد وأقواله ، على قلة ما انتهى إلينا منها ، تشهد له بطول الباع في مضمار البلاغة واللسان وتدعم المنزلة الروفيعة التي بوأه إياها البلقاء والقاد في الميدان الخطابي . وكان معاوية يفاخر به الخطباء في مجلسه ويدعوه كذلك بالخطيب المقصع ^(٣) . وكان الشعبي يكثر الثناء على بلاغته ، على كره الكوفيين والشيعة لزياد ، وكان يقول : « ما سمعت متكلماً على منبر فقط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً من أن يسيء إلا زياداً فإنه كلها أكثر كان أجود كلاماً ^(٤) . » كما روينا عنه قوله : « مارأيت خطيباً من زياد ^(٥) . » ، ومن شهد له بالبلاغة أيضاً عبيد الله بن الحسن ، فقد جاء في تاريخ ابن عساكر أن زياداً قال يوماً لجلسائه : من أبغض الناس عيشاً . فقالوا : الأمير وجلساؤه . فقال : ما صنعتم شيئاً . إن لأعدوا منبر هيبة ، وإن أقرعوا لجام البريد لفزعه ، ولكن

(١) ابن عساكر ٤٠٦/٥ .

(٢) البيان ٦٠/٢ .

(٣) العقد الفريد ٤٤/٥٥ .

(٤) البيان ٦٥/٢ .

(٥) ابن عساكر ٤١٤/٥ .

أبغض الناس رجل له دار لا يجري عليه كراوئها ، وله زوجة صالحة قد رضيته ، فهذا راضيان بعيشها ، إلخ الحديث ... فقال عبيد الله بن الحسن معلقاً على كلام زيد : من أراد أن يسمع كلاماً من در فليسمع هذا الكلام ^(١) ،

بيد أن زيداً ، على بلاغته ، لم يكن - فيها يجدوا - من يتذوقون الشعر ، وكان حظ خلفه الحجاج من هذا التذوق الأدبي أوفر من حظه . وهذا يفسر عدم حظوة الشعراء عنده وعدم حرصه على دعوتهم إلى مجلسه ليسمع شعرهم ، صنف الحجاج ، بل إنه كان على تقدير ذلك ربما تهدى بعض الشعراء وطاردهم لإيمانهم الناس بهجائهم ، فعله بالفرزدق ^(٢) . وكانت قلة تذوقه للشعر تحمله غير بصير بما فيه الدقيقة ، وبضروب الكناية والتلويع والغمز فيه ، ولما هجاه عبد الرحمن بن الحكم ، لازم ادعاه معاوية إليه ، وقال فيه أبياته التي سبقت الإشارة إليها ، حلف معاوية لا يرضي عنه حتى يرضي زيداً فدخل عليه وأنشد له أبياتاً يعددها فيها ومنها قوله :

لأنت زيادة في آل حرب أحب إلى من وسطى بناي
فرضي عنه واغتفر له هجاءه السابق له . فلما سمع معاوية هذه الأبيات قال :
« قبح الله زيداً ما أجهله . والله لما قلت له أخيراً حيث تقول : لأنك زيدة
إلخ ... شر من القول الأول ، ولكنك خدعته فجازت خديعتك عليه » ^(٣) .



انتهتلينا بعض عشرة خطبة لزيد ، منها خطب كاملة أو شبه كاملة ، ومنها نصف مأكولة من خطب لزيد . ومن المحقق أن خطبها كثيرة له قد فقدت ، شأن كثير من الخطاب الأموية ، ولكن شهرة زيد الخطابية تكاد تقوم على خطبة واحدة هي خطبته البارزة ، ولا نجد لزيد ، فيها بين أيدينا من خطب ، خطبها أخرى

(١) ابن عساكر ٤٦/٠ .

(٢) انظر خبر زيد مع الفرزدق في الطبراني ٧٩/٤ .

(٣) الأغاني (دار الكتب) ٢٦٥/١٣ .

جريدة أن ترفعه إلى مصاف خطباء الطائفة في عصره . ونحن قائلون كلة سريعة في هذه الخطب ، لنقف بعدها وقفه أطول عند البتاء .

١ - لزياد خطيبتان قصيرتان قالها إبان فتنة ابن الحضرمي يحرض فيها الأزد على بنى تميم الذين نصروا ابن الحضرمي ، وقد أثبتهما ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة (١) .

٢ - لما ولّى علي زياداً بلاد فارس أرسل إليه معاوية يتهدّه ويخوّفه ، فجتمع زياد الناس وقال الخطبة التالية : « العجب كل العجب من ابن آكلة الأكباد ورأس النفاق ، يخوّفي بقصده إبّاني وبيّني وبينه ابن عم رسول الله ﷺ في المهاجرتين والأنصار . أما والله لو أذن في لقائه لوجدني أعرف الناس بضرب السيف (٢) . » وثمة خطبة أخرى لزياد ذكرها حين أرسى إليه معاوية يتهدّه ابن لم يدن بالطاعة له . وهذه الخطبة تشبه في نصها — حسب رواية الطبرى — الخطبة السابقة . ولقد ربحنا قبل أن زياداً لم يقل إلا الخطبة الأولى ، وأنه ما كان ليتورط بشتم معاوية وتحديه وقد رأى الحسن يدخل في طاعة معاوية ويهادنه ، وقد روّيت هذه الخطبة في شرح ابن أبي الحديد بصورة أخرى ، وفيها من التهديد والوعيد والشتم ما يستبعد صدوره عن زياد وهو في موقفه ذاك ، ونحن أميل إلى أنها افتعلت على لسانه (٣) .

٣ - وحين عزم زياد على التوجه إلى معاوية والدخول في طاعته أراد أن يسوغ مسلكه هذا للناس فقام فقال الخطبة التالية : « أيها الناس ، ادفعوا البلاء ما اندفع عنكم ، وارجعوا إلى الله في دوام العاقبة لكم . فقد نظرت في أمور الناس منذ قتل عثمان ، وفكّرت فيهم فوجدهم كالأخلاقي ، في كل عيد يذبحون . ولقد

(١) شرح النهج ٤٤٨/١ .

(٢) تاريخ ابن عساكر ٥/١٠٤ وقد وردت هذه الخطبة في شرح نهج البلاغة (٤/٦٧) باختلاف بسيط في اللفظ آكلة الأكباد : هي هند أم معاوية ، وكانت بقرت بطن حزرة بن عبد المطلب بعد غزوة أحد وكانت كبدة ورأس النفاق إشارة إلى أبي سفيان و موقفه من رسول الله عليه السلام .

(٣) انظر نص الخطبة في كل من الطبرى ٤/١٢٩ وشرح النهج ٤/٦٨ .

أني هذان اليومان : يوم الجمل وصفين ما ينفي على مائة ألف ، كلهم يزعم أنه طالب حق ، وتاجع إمام ، وعلى بصيرة من أمره ، فإن كان الأمر هكذا ، فالقاتل والمقتول في الجنة . كلا ، ليس كذلك ولكن أشكال الأمر ، والتباس على القوم ، وإنني لخائف أن يرجع كما بدأ فكيف لامرئ بسلامة دينه . وقد نظرت في أمور الناس فوجدت أحمد الماقبتين العافية ، وسأعمل في أموركم ما تحمدون عاقبته ومغبته ، فقد حمدت طاعتك إن شاء الله (١) .

٤ - وما استلحق معاوية زياداً وشهد الشهود قام زياد في أعقابهم فقال : « هذا أمر لم أشهد أوله ، ولا علم لي باخره . وقد قال أمير المؤمنين ما بلغكم وشهد الشهود بما سمعتم . فالمحمد لله الذي رفع مما موضع الناس ، وحفظ مما ضيوا . وأما عبيد فإنا هو والد مبرور ، أو ربب مشكور (٢) . »
ونلاحظ في هذه الخطبة أن زياداً وقف موقف المتشكيك من صحة هذا الاستل Hatch ، كأنما الأمر لم يكن من تدبيره ولا عن رأيه ، وأنى له أن يوقن من صحة هذا الأمر وهو لم يشهد أوله ، ولكن أمير المؤمنين والشهود أعلم بما قالوا ، وعلى كل فإن عبيداً إن لم يكن أباً حقاً فهو زوج أمه المبرور .

٥ - ولزياد فضلاً عن هذه الخطبة التي ذكرناها خطب قصيرة ، وأجزاء من خطب قائمها في مناسبات شتى . منها خطبة قبل إثنه قائمها لما قدم البصرة بعد أن استل Hatch معاوية (٣) ، وخطبة قائمها لما ولـي الكوفة بعد المفيرة (٤) ، وخطبة أخرى قائمها بالكوفة حين قدمها واليـا عليها (٥) ، وخطبـتان قصـيرـتان قـائمـها بالـكـوفـةـ يتـهـددـ فيـ الأولىـ منهاـ حـجـراًـ وأـصـحـابـهـ (٦) ، ويـهـددـ فيـ الـثـانـيـةـ أـهـلـ الـكـوفـةـ لـنـصـرـهـ حـجـراًـ (٧) .

(١) شرح النهج ٤/٦٨ .

(٢) المقد ٥/٥ و ١١٣/٤ ورويـتـ فيـ شـرـحـ النـهجـ ٤/٦٩ـ . وـسـرـوجـ الـذـهـبـ ٢/٥ـ باختـلافـ يـسـيرـ فيـ الـأـفـاظـ .

(٣) شرح النهج ٤/٧٤ .

(٤) تاريخ الطبرـيـ ٤/١٧٤ .

(٥) الطبرـيـ ٤/١٨٩ .

(٦) الطبرـيـ ٤/١٩٠ .

(٧) الطبرـيـ ٤/١٩١ .

وله خطبة موجزة يوصى فيها بالشرف والعلم والشيخ^(١)، وجزء من خطبة يحذر فيها الناس من أن يقولوا ما يجر عليهم سخط إمامهم^(٢)، وجزء من خطبة أخرى يذكر فيها أن أكذب الناس من كذب الناس على المبر.

٦ - وقد أثر عن زياد وصيانته ، الأولى وصيانته لمن كان يوليه عملاً من أعماله ، وهي توضح بجانبها من أسلوبه السياسي ، وقد تقدم ذكرها . والثانية وصيانته حين دفت مبنية ، وقد ذكر لنا أن عبد الملك كتبها بيده وأمر الناس بحفظها وتسدير معانيها وهي : « هذا ما أوصى به زياد بن أبي سفيان » حيث أتاه من أمر الله ما ينتظر ، ومن قدرته مالا يشكرون . أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من عرف ربه وخف دينه ، وأن محمدًا عبده ورسوله . وأوصى أمير المؤمنين وجماة المسلمين بتقوى الله حق تقائه ، ولا يموتن إلا وهم مسلمون ، وأن يتعاهدوا كبير أمرهم وصغريه ، فإن الثواب في الكبير على قدره في التجميل له ، والصغر غير قليل في حاجتهم إليه وطاعتهم الله فيه . وإن الله جعل لعباده عقولاً عاقبهم بها على معصيته ، وأثابهم بها على طاعته . فالناس بين حسن نعمة الله عليه ، ومسيء بخلان الله إياه ، والله النعمة على الحسن والنجاة على المسيء . فها أحق من تحت نعمة الله عليه في نفسه ، ورأى العبرة في غيره ، بأن بعض الدنيا بحسبها الله ، فيعطي ما عليه منها ولا يتكبر بما ليس له فيها ، فإن الدنيا دار لا سبيل إلى بقائهما ، ولا بد من لقاء الله ، فأحذركم الله الذي حذركم نفسه ، وأوصيكم بتمجيل ما أخرته المجزرة حتى صاروا إلى دار ليست لهم منها أوبة ، ولا يقدرون فيها على توبة ، وأنا استخلف الله عليكم ، واستخلفه منكم^(٣).

٧ - أصابت خطبة زياد البقاء شهرة بعيدة وروتها كثير من المصادر التاريخية والأدبية^(٤) ولكننا لا نجد لها رواية واحدة في جميع هذه المصادر شأنها شأن

(١) العقد الفريد ٤/١١٣ . والبيان ٢/١٤٥ .

(٢) البيان ١/٢٥٩ .

(٣) البيان ١/٣٨٧ ، وابن عساكر ٥/٤٢٢ .

(٤) نجدها مثلاً في الطبراني ٤/١٦٥ ، وشرح النهج ٤/٧٥ ، والعقد ٤/١١٠ ، والبيان ٢/٦١ . وعيون الأخبار ١/٢٤٩ .

جمل الخطب القدمة . بل إنها وردت في بعض المصادر وقد شطرت شطرين جعل كل منها خطبة مستقلة^(١) . وقد جاء في مناسبة هذه الخطبة أنها إنما قيل لها : « البراء » خلوها من حمد الله والصلوة على نبيه . وذكر الجاحظ أن « خطباء السلف الطيب ، وأهل البيان من التابعين بإحسان ، ما زالوا يسمون الخطبة التي لم يتمداً بالتحميد ، و تستفتح بالتمجيد البراء^(٢) . » على أنس لا غيش إلى قبول هذا التعليل لإطلاق لفظ البراء على خطبة زياد ، وذلك للأسباب التالية :

(١) ليس من المقبول إطلاق لفظ يشعر بالنقض والذم على هذه الخطبة التي انتزعت إعجاب النقاد والبلفاء جهيناً . والأمر الطبيعي أن يطلق عليها ما يشعر بعلو قيمتها الفنية وعظم منزلتها الأدبية .

(ب) جرت عادة العرب على أن يطلقوا على الخطيب الممتازة أسماء تعرف بها ، تقديرًا لجودتها ودلالة على ارتفاع شأنها عندهم ، وقد ذكر الجاحظ أن من خطب العرب « المجوز » وهي خطبة لآل رقبة ، و « المدراء » وهي خطبة قيس بن خارجة ، و « الشوهاء » وهي خطبة سجбан وائل المشهورة^(٣) . وربما أوهم لفظ « الشوهاء » أن المراد به الذم ولكن الجاحظ نفسه ينص على أنها سميت كذلك لحسنها وجودتها . فكذلك نرى أن تسمية خطبة زياد من هذا القبيل ، وأن إطلاق هذا اللفظ عليها إنما هو الدلالة على جودتها وارتفاع شأنها لا للانتهاص من قدرها .

(ج) كان استهلال الخطاب بحمد الله والصلوة على نبيه شائعاً في الخطاب منذ العصر الإسلامي ، ولكنه لم يكن ملزماً التزاماً صارماً ، وثمة طائفتان من الخطاب الأموية التي انتهت إلينا لا نجد ما ينفي باستهلالها بالحمد ، كخطبة الحجاج بالكوفة مثلاً ، فإذ أنه استهلها ببيت من الشعر لم يسبقها حمد ولا تمجيد . وعليه فليس في خلو خطبة زياد من الحمد ما يدعو لإفرادها بهذه السمة المميزة . ومع ذلك فقد جاء في مناسبة الخطبة المتراء في العيادة والتبيين والمقصد وغيرها ما يدل على أن

(١) في عيون الاخبار وذيل الامالي ص ١٨٥ .

(٢) البيان ٦/٢ .

(٣) البيان ١/٤٤٨ .

هناك خلافاً في أمر خلو هذه الخطبة من الحمد ، فشدة رواية تذهب إلى أن زيادة حمد الله في مستهل خطبته وأنه قال : « الحمد لله على أفضاله واحسانه ، ونسأله المزيد من نعمه ولا كرامه ، اللهم كما زدتنا فعما فآهمنا شكرًا »^(١) .

لهذا كله ينبع إلى رفض ما قيل في سبب تسمية هذه الخطبة « بالبراء » ونرجح أنها سميت كذلك لأنها كانت في قوة أثرها في نفوس أهل البصرة كالسيف المبارز وفي كتب اللغة ما يؤيد استعمال لفظ البراء بهذه الدلالة ، فقد جاء في القاموس المحيط ما ذكره : « والبراء الماضية النافية »^(٢) ، فلا شيء يمنعنا إذن من قبول هذا التعليل .

وأجود روايات هذه الخطبة تلك التي أثبتها الجاحظ في البيان والتبيين : نقلًا عن المدائني وغيره ، وعن الجاحظ أخذها أكثر من بعده ، ونحن نثبتها هنا نقلًا عنه :

« أما بعد ، فإن الجحالة الجملاء ، والضلال العباء ، والعري الموفي بأهله على النار ، ما فيه سيفهاوكم ويشتمل عليه حلماؤكم ، من الأمور العظام ، ينبع فيها الصغير ، ولا يتجاوز عنها الكبير ، كأنكم لم تقرؤوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعدد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والمذاب الأليم لأهل معصيته في الزمان السرمدي الذي لا يزول . أنكونون كمن طرفت عينيه الدنيا ، وسدت مساميه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه ، من ترككم الضعيف يقهرون ويؤخذ ماله . ما هذه المواتير المنصوبة ، والضئيفة المساوية في النهار البصر ، والمدد غير قليل . ألم تكون منكم نهاية تدفع الغواة عن دلوج الليل وغارة النهار ، قربتم القرابة ، وباعدتم الدين . تعتذرون بغير العذر ، وتغضبون على المحتلس . كل امرىء منكم بذب عن سفيهه ، صنيع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاذًا . ما أتقم بالحملاء ، ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بهم ما يرون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الإسلام ، ثم أطريقوا وراءكم كنوسة في مكانس الريب . حرام على الطعام والشراب حتى أسوتها بالأرض هدمًا وإحرابًا .

(١) البيان ٦٢/٢ والعقد ٤/١١٠ .

(٢) مادة « بتر » في اقاموس المحيط للفيروزبادي .

إني رأيت آخر هذا الامر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : ابن في غير ضف ، وشدة في غير عنف . وإنني أقسم بالله لا أخذن الولي بالمولى ، والمقيم بالظاءن ، والمقبل بالمدبر ، والمطيم بالعاصي ، والصحيح منكم في نفسه بالسقim ، حتى يلقى الرجل منكم أخيه فيقول : أنج سعد فقد هلك سعيد ، أو تسقين لي قتاناكم .

إن كذبة المنبر بلقاء مشهورة . فإذا تعلمتكم على بكذبة فقد حلت لكم مصيبتي ، وإذا سمعتموها مني فاعتمزواها في ، وأعلموا أن عندى أمثالها . من نسب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب له . فإني يأوي وداج الليل ، فإني لا أؤتي بدماج إلا سفكت دمه . وقد أجلتكم في ذلك بقدر ما يأتي الخبر الكوفة وبرجم إليكم . وإيابي ودعوى الجاهلية ، فإني لا آخذ داعياً بها إلا قطعت لسانه . وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة : فمن غرق قوماً غرقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه ، ومن نسب بيتنا نسبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفناه فيه حيّاً ، فكفوا عن أيديكم وألسنتكم أكف عنكم بدبي ولسانى . ولا تظهر على أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه علمتكم إلا ضربت عنقه . وقد كانت بيبي وبين أقوام لاحن جملتها دبر أذني وتحت قدمي . فمن كان منكم مسيئاً فلم يترع عن إمساكه . إني والله لو علمت أن أحدكم قد قتل السر من بغضي لم أكشف له قناعاً ، ولم أهتك له ستراً حتى يبدى لي صفتته ، فإذا فعل ذلك لم أناظره . فاستأنفوا أموركم ، وارعوا على أنفسكم ، غرب مسوء بقدومنا سنسره ، ومسرور بقدومنا منسوء .

أيها الناس ، إذا أصبحنا لكم ماسة ، وعنةكم ذادة ، نسوقكم بسلطان الله الذي أعطانا ، وندود عنكم بني الله الذي خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحبتنا ، ولامكم علينا العدل والإنصاف فيما ولينا ، فاستوجبوا عدتنا وفيينا بمناصحتكم لنا ، وأعلموا أنني منها قصرت عنده فلن أقصر عن ثلاث : لست محتاجاً عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقاً بليل ، ولا حابساً عطايا ورزقاً عن إبانه ، ولا بحراً لكم بعثاً .

فادعوا الله بالصلاح لأنتمكم ، فإنهم ماساتكم المؤذبون ، وكيفكم الذي إليه تأدون ، ومق يصلاحوا تصلاحوا ، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتت ذلك غبظكم ، ويطول له حزنكم ، ولا تدركوا به حاجتكم . مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شرًّا لكم .

أسأل الله أن يعين كلامي على كل ، وإذا رأيتوني أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على أدلاله . وأيم الله إن لي فيكم لصرعي كبيرة ، فلقد حذر كل أمرىء منكم أن يكون من صرعائي ^(١) .

ويذكر الماجستير أن زياداً لما فرغ من خطبته قام إليه عبد الله بن الأهتم فقال : أشهد أيمها الأمير ، لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب . فيقول له زياد : كذبت ، ذلك نبي الله داود . وقام الأحنف بن قيس ، سيد تميم البصرة ، فقال : « أيمها الأمير » ، إنما المرء بمحده ، والحوادث بشده . وقد بلغك جدك أيمها الأمير ماتري ، وإنما الثناء بعد البلاء ، والحمد بعد المطاء . وإنما لن تشفي حق فتلي . » ، فلم يعلق الأحنف على الخطبة نفسها من حيث أسلوبها وبلاعتها وإنما علق على مضمونها .

ولكن الخارجى أبا بلال كان له رأى آخر في مضمون هذه الخطبة ، فقد علق عليها ، فيها يشبه الهمس ، بقوله : « أنسانا الله بغير ما قلت » ، قال الله : « وإبراهيم الذي وفي ، إلا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » ، وأنت تزعم أنك تأخذ البريء بالسقيم ، والمطبع بالعاصي ، والمقبول بالمدبر . وكان جواب زياد عليه أن قال : « إنما لا يبلغ مما نريد فيك وفي أصحابك - أي الخوارج - حق نخوض إياكم الباطل خوضاً ^(٢) . »

ونحن نرى أن قيمة هذه الخطبة مردها إلى أمور ثلاثة : الأول أنها استوفت عناصر الخطبة الكاملة ، فقد أحسن زياد تنسيقها وترتيب أفكارها وأحكام التسلسل في أقسامها والترابط بين أجزائها ، على نحو ماينا في فصل سابق ، وقلما نجد خطبة أموية تماطلها في حسن التقسيم وجودة الترتيب . والثاني أنها كانت خير ما قاله ولادة مصر الأموي لإبعاد خطتهم في الحكم وسياستهم التي سيسيرون عليها ، وهي بما اشتغلت عليه من مبادئ سياسية كانت صالحة لأن تكون دستوراً للسامرة والولاة في ذلك مصر . والثالث أنها بفضاحتها وروعة بيانها نموذج ممتاز لفضاحة العريمة الخامسة .

وعلى أن الحجاج كان تلميذاً في مدرسة زياد السياسية ، وعلى أنه كان أوغلا

(١) البيان ٦٢/٢ .

(٢) ٦٥/٢ .

في البيان العربي الأصيل من زياد وخطيباً من الطراز الأول ، لم يستطع أن يأتي بخطبة تضاهي خطبة زياد في الكمال الفني ، وكانت أجوه خطبه ، وهي خطبته يوم قدم الكوفة واليما عليها ، بعيدة عن حسن التنسيق والترتيب ، وليس فيها إلا تصوير لشخصية الحجاج الخجولة وتهديد بالبعاش بكل من تسول له نفسه الخروج عن طاعته .

وأظهر ما يقسم به أسلوب زياد في خطبه عامة ترتيب الأفكار وسلسلتها ووضوحها ، والغاية بالأداء الموجز المركز . ولو نظرنا في خطبته البتراة لوجدناها تشتمل على طائفة من المبادئ السياسية والمعظات الدينية والخلقية ، قد صيغت في قوالب لفظية مركزة يصلح كل منها أن يكون موضوعاً خطبة مستقلة . ولكن زيادة لا يتبع أسلوب التفصيل والتوضع وإنما أسلوب الإشارة الموجزة ، وهو يكتفي بذكر مبادئه السياسية دون أن يعني بتعليل أحدها . ولزيادة مقدرة عجيبة على أداء أفكاره بأوجز عبارة وأقل لفظ ، مع قوة التأليف ومنانة التركيب وروعه الأداء .

وأسلوبه ، إلى ذلك ، يقسم بعنف الموجة وحرارتها ، والطابع البدوي فيه أقل ظهوراً منه في أسلوب الحجاج ، وهو يحرص على أن يحمل مسامعه على تصديقه والاقتفاء بأقواله ، فربما لجأ لذلك إلى الاتكاء على أدوات التوكيد ولكنه لا يلتجأ إلى التكرار ، والأثر الإسلامي بين في خطبه ، ولا سيما في صدر خطبته الافتتاحية .

وزياد لا يستشهد بالشعر في خطبه ، على تقىض خلفه الحجاج ، وهو قليل الاحتفال بالسجع ، زاهد في تكلف الصنعة ، وربما وقع في كلامه شيء من السجع ولكنه غير مقصود لذاته ولا يظهر فيه أثر التكلف ، كقوله في البتاء : «ينبت فيها الصغير ، ولا ينحاش عنها الكبير » ، وقد يلتجأ زياد إلى الأسلوب التصويري ولكن في غير إسراف ، كقوله في البتاء : « أنتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا » ومدت مسامعه الشموات .

هذه الميزات الخطابية هي التي حملت القوم على الإعجاب بفضاحة زياد، وهي التي تدعونا لأن نضنه في عداد خطباء الطلبيعة لا في عصر بنى أمية وحده بل في عصورنا الأدبية قاطبة.

نماذج من الخطاب السياسية

في عصر بني أمية

اورڈ - خطب بني اممه دو روزہم و فوادھم و انصارھم

خطبة معاوية لما قدم المدينة عام الجماعة :

«أَمَا بَعْدُ، فَإِنِّي وَاللَّهِ مَا وَلِيهَا بِحَيَةٍ عِلْمُهَا مِنْكُمْ، وَلَا مُسْرَةٌ بِوَلَا يَتَيَّيْ،
وَلَكُنِي جَالَدْتُكُمْ بِسَيِّفِ هَذَا بِحَالَةٍ . وَلَقَدْ رَضِيَتْ لَكُمْ نَفْسِي عَلَى حَمْلِ ابْنِ أَبِي
قَحَافَةَ وَأَرْدَتْهَا عَلَى حَمْلِ عَمْرٍ، فَنَفَرْتُ مِنْ ذَلِكَ نَفَاراً شَدِيداً . وَأَرْدَتْهَا عَلَى
مِثْلِ ثَنَيَاتِ عَمَانِ فَأَبْتَطَ عَلَيْهِ، فَسَلَكْتُ بِهَا طَرِيقاً لِي وَلَكُنِي فِيهِ مَنْفَعَةٌ : مَؤَاكِلَةٌ
حَسَنَةٌ، وَمُشَارِبَةٌ جَمِيلَةٌ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُونِي خَيْرَكُمْ، فَإِنِّي خَيْرٌ لَكُمْ وَلَا يَةٌ . وَاللَّهُ
لَا أَحْمِلُ السَّيْفَ عَلَى مَنْ لَا سَيْفَ لَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ إِلَّا مَا يَسْتَشْفِي بِهِ الْقَاتِلُ
بِلِسَانِهِ، فَقَدْ جَعَلْتُ ذَلِكَ دَبْرَ أَذْنِي، وَتَحْتَ قَدْمِي . وَإِنْ لَمْ تَجِدُونِي أَقْوَمُ
بِحَقِّكُمْ كُلَّهُ، فَاقْبِلُوا مِنِّي بِعِصْبَيْهِ، فَإِنْ أَتَاكُمْ مِنِّي خَيْرٌ فَاقْبِلُوهُ، فَإِنَّ السَّيْلَ إِذَا زَادَ
عَنِّي، وَإِذَا قَلَ أَغْنَى . وَلِيَاكُمُ الْفَتْنَةُ، فَإِنَّهَا تُفْسِدُ الْمُعِيشَةَ، وَتُكَدِّرُ النَّعْمَةَ^(١) .

۲۷

لما حضرت معاوية الوفاة ، ويزيد غائب ، دعا مسلم بن عقبة المري والضحاك
ابن قيس الفهري فقال لها : أبلغها عنى يزيد وقولا له :

« يا بني ، إني كفيفُك الشد والترحال ، ووطئات لك الأمور ،

(١) المقد الفريد ٤/٨١ . ابن أبي قحافة : أبو بكر . التبيات ج ثانية : الطريق في الجبل ، أراد على مثل الأمور الشاقة التي ركبها عثمان ، وفي بعض الروايات : سنبات . ما يشنق القائل بلسانه : ما يقوله القائل ليشفى مابنفته من الحقد . دبر أذني : خلف أذني ، أي لم أعبأ به . عذني : أنتب وأرافق .

وَذَلِكَ لِكَ الْأَعْدَاءُ، وَأَنْخَضْتَ لَكَ رِقَابَ الْعَرَبِ، وَجَمِعْتَ لَكَ مَا لَمْ
يَجْمِعْهُ أَحَدٌ. فَانْظُرْ أَهْلَ الْحِجَازَ، فَإِنَّهُمْ أَصْلُكَ وَعَتْرَتَكَ، فَنَّ أَنَاكَ
مِنْهُمْ فَأَكْرِمْهُ، وَمَنْ قَعَدْ عَنْكَ فَتَعَاهَدْهُ. وَانْظُرْ أَهْلَ الْعِرَاقِ، فَإِنْ
مَسْأَلُكَ عِزْلَ عَامِلٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ فَاعْزِلْهُ عَنْهُمْ، فَإِنْ عِزْلَ عَامِلٍ وَاحِدٌ أَهُونُ
عَلَيْكَ مِنْ سَلْ مَائِةِ أَلْفِ سَيِّفٍ، ثُمَّ لَا تَدْرِي عَلَامَ أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْهُمْ. ثُمَّ
انْظُرْ أَهْلَ الشَّامِ، فَاجْعَلْهُمْ الشِّعَارَ دُونَ الدِّنَارِ، فَإِنْ رَابِكَ مِنْ عَدُوِّكَ رَبِّ
فَارِمِهِ بِهِمْ، فَإِنْ أَظْفَرَكَ اللَّهُ فَارْدُدْ أَهْلَ الشَّامِ إِلَى بَلَادِهِمْ، لَا يُقْيِمُوا فِي غَيْرِ
بَلَادِهِمْ فَيَتَأَدَّبُوا بِغَيْرِ آدَابِهِمْ.

وَإِنِّي لَسْتُ أَخَافُ عَلَيْكَ أَنْ يَنْازِعَكَ هَذَا الْأَمْرُ إِلَّا أَرْبَعَةً نَفَرٍ مِنْ
قُرْيَشٍ: الْحُسَينُ بْنُ عَلَيْ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزَّبِيرِ، وَعَبْدُ
الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ. فَإِمَّا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍ، فَرَجُلٌ قَدْ وَقَدْهُ الْوَرْعُ، وَإِذَا لَمْ
يَقِنْ أَحَدٌ غَيْرُهُ بِإِيمَانِكَ: وَإِمَّا الْحُسَينُ بْنُ عَلَيْ، فَإِنَّهُ رَجُلٌ خَفِيفٌ، وَأَرْجُو
أَنْ يَكْفِيكَهُ اللَّهُ بْنُ قَتْلَ أَبَاهُ وَخَذْلَ أَخَاهُ، وَلَا أَظْنَ أَهْلَ الْعِرَاقَ تَارِكِيهِ
حَتَّى يُخْرِجُوهُ، فَإِنْ خَرَجَ وَظَفَرَتْ بِهِ فَاصْفَحْ عَنْهُ، فَإِنْ لَهُ رَحْمًا مَاسَّةً،
وَحَقَّاً عَظِيمًا، وَقِرَابَةً مِنْ مُحَمَّدٍ صَلَواتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ. وَإِمَّا ابْنُ أَبِي
بَكْرٍ، فَإِنْ رَأَى أَصْحَابَهُ صَنَعُوا شَيْئًا صَنَعَ مُثْلَهُمْ، لَيْسَتْ لَهُ هِمَّةٌ إِلَّا فِي النِّسَاءِ
وَاللَّهُو. وَإِمَّا الَّذِي يَجْهِمُ لَكَ جَحْوَمَ الْأَسْدِ، وَيَرَاوِغُكَ مِرَاوِغَةَ الثَّعلَبِ،
فَإِذَا أَمْكَنْتَهُ فَرْصَةً وَثَبَ، فَذَلِكَ ابْنُ الزَّبِيرِ، فَإِنْ هُوَ فَعْلَهَا بِكَ فَقَدِرْتَ عَلَيْهِ

فقطّعه إِرْبَأُ لِرْبَأٍ»^(١)

٣

خطبة عبد الملك بن مروان حين قتل عمرو بن سعيد الأشدق :

«ارمُوا بأبصاركم نحو أهل المعصية، واجعلوا سلفكم لمن غَرَّ منكم عِظة، ولا تكونوا أغفالاً من حسن الاعتبار، فتنزل بكم جائحة السَّطَوَات، وتجوس خلالكم بوادر النِّقمَات، وتطأ رقابكم بشقلها العقوبة، ف يجعلكم حَمَدَا رُفَاتَهُ، وتشتمل عَلَيْكُم بطنَ الْأَرْضِ أمواتاً».

فَإِنَّمَا يَأْتِيَ مِنْ قَوْلِ قَاتِلٍ، وَرِشْقَةِ جَاهِلٍ، فَإِنَّمَا يَيْتَيْ وَيَنْسِكُ كَمْ أَسْمَعَ النَّفْوَةَ، فَأَصْحَمَ تَصْبِيمَ الْحُسَامِ الْمَطْرُورَ، وَأَصْوَلَ صَيَالَ الْخِنْقِ الْمَوْتُورَ، وَإِنَّمَا هِيَ الْمَصَافِحةُ وَالْمَكَافِحةُ، بِظُبُّاتِ السَّيُوفِ وَأَسْتَهْ الرَّمَاحِ، وَالْمَعاُودَةُ لِكُمْ بِسُوءِ الصَّبَاحِ، فَتَابَ تَائِبٌ، وَهَدَى خَائِبٌ، وَالْتَّوْبُ مَقْبُولٌ، وَالْإِحْسَانُ مَبْذُولٌ، لِمَنْ عَرَفَ رُشْدَهُ، وَأَبْصَرَ حَظْتَهُ، فَانْظُرُوا إِلَيْكُمُ الْأَنْفُسَ، وَأَقْبِلُوا عَلَى حَظْوَظَكُمْ، وَلِيَكُنْ أَهْلُ الطَّاعَةِ يَدُأُ عَلَى أَهْلِ الْجَهَلِ مِنْ سُفَهَائِكُمْ، وَاسْتَدِعُوا النِّعْمَةَ الَّتِي ابْتَدَأْتُكُمْ بِرِغْيَدِ عِيشَهَا، وَنَفِيسِ زِينَتِهَا، فَإِنَّكُمْ مِنْ ذَلِكَ بَنِ فَضِيلَتَيْنِ : عَاجِلٌ لِلْخَفْضِ وَالدَّعَةِ، وَآجِلٌ لِلْجَزَاءِ وَالْمَثُوبَةِ، عَصَمْتُكُمُ اللَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ وَفِتْنَتِهِ وَنَزْغِهِ، وَأَمْدَّكُمْ بِالْحَسْنَى مَعْوِتَهُ وَحِفْظَهُ،

(١) البيان والتبيين ١٣١/٢ . تاريخ الطبرى ٥/٢٢٢ . العقد الفريد ٤/٨٧ . عترة الرجل : هشیرته الأدنون . الشعار : التوب يلي الجسد . والدثار مايلبس فوق الشعار . وقنده : غلبه وصرعه . الرحم : القرابة . إِرْبَأُ لِرْبَأٍ : عصواً عصوا .

انهضوا - رحمة الله - إلى قبض أعطياتكم . غير مقطوعة عنكم ، ولا مكدرة عليكم .^(١)



ج

بلغت عتبة بن أبي سفيان عن أهل مصر أمر أنكرها فقام خطب فيهم فقال :

« يا حاملي الأم أوف رُكبت بين أعينِ ، إنما قلتم أظفارِي عنكم ليَلِينَ مسْيَ إِيَاكُمْ ، وسائلتك صلاحكم لكم ، إذ كان فسادُكم راجعاً عليكم . فاما إذ أتيتم بالآطعنَ على الآمراءِ ، والعتب على السلفِ والخلفاءِ ، فهو الله لا قطنٌ بظوف السياط على ظهوركم . فان حسمت مستشرئ دائركم ، وإلا فالسيفُ من ورائكم . فكم من عنة لنا قد صمت عنها آذانكم ، وزجرةٌ منها قد مجتها قلوبكم . ولست أدخل عليكم بالعقوبة ، إذا جُدتم علينا بالمعصية ، ولا مؤيِّساً لكم من المراجعة إلى الحُسْنِ ، إن صرتم إلى التي هي أبر وأتقى .^(٢) »



(١) صبح الأعشى ٢١٨/١ . لمن غبر : لمن بغي ومحى . الجائعة : الملكة اليديدة . الرفات : الطعام . النفوءة والنفقة : أول الخبر قبل أن تستثن . أصم : أقطع . المطرور : الشعوذ . ظبات وج ظبة : حد السيف . هدل : خار واسترخي . نزع الشيطان يدهم : أفسد وأغرى .

(٢) العقد الفريد ١٣٧/٤ . الكامل للبردى ٧٨٣ (ط . ليسيك) . الأمالي ٢٤٥/١ . استشرى الداء : تذكر وتقاوم . مجتها : كرهتها وعافتها . أبس منه : قحط وبش .

خطبة لعمرو بن سعيد الأشدق يهدى فيها أهل مكة :

«أَمَا بَعْدُ، مُهَشِّرَ أَهْلَ مَكَّةَ . فَإِنَّا سَكَنَاهَا غَبْطَةً، وَخَرَجْنَا عَنْهَا رَغْبَةً . وَلَذِكْ كَنَّا إِذَا رُفِعْتَ لَنَا الْلُّهُوَةُ بَعْدَ الْلُّهُوَةِ، أَخْذَنَا أَسْنَاهَا، وَنَزَّلْنَا أَعْلَاهَا . ثُمَّ شَرِحَ أَمْرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ، فَقَتَلْنَا وَقَتَلْنَا، فَوَاللَّهِ مَا نَزَّعْنَا وَلَا نُزِّعْ عَنْنَا، حَتَّىٰ شَرِبَ الدُّمُّ دَمًا، وَأَكَلَ اللَّهُمَّ لَهُمَا، وَقَرَعَ الْعَظَمُ عَظَمًا . فَوَلَىٰ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرْسَالَةِ اللَّهِ إِلَيْنَا، وَاخْتَيَارَهُ لَهُ . ثُمَّ وَلَىٰ أَبُو بَكْرَ اسْبَاقَتِهِ وَفَضْلَهِ، ثُمَّ وَلَىٰ هَمَرَ . ثُمَّ أُجَيْلَتْ قِدَاحٌ نَرْعَنْ من شُعْبِ حَوْلَ نَبْعَةً، فَفَازَ بِحَظْيِهَا أَصْلَبَهَا وَأَعْتَقَهَا، فَكَنَّا بَعْضَ قِدَاحَهَا . ثُمَّ شَرِحَ أَمْرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ، فَقَتَلْنَا وَقَتَلْنَا، فَوَاللَّهِ مَا نَرَعْنَا وَلَا نُرَعْ عَنْنَا، حَتَّىٰ شَرِبَ الدُّمُّ دَمًا، وَأَكَلَ اللَّهُمَّ لَهُمَا، وَقَرَعَ الْعَظَمُ عَظَمًا، وَعَادَ الْحَرَامُ حَلَالًا، وَاسْكَتَ كُلُّ ذِي حِسْنٍ عَنْ ضَرِبِ مُهَنْدٍ، عَرَّكَأَعْرَكَأَعْسَفَأَعْسَفًا، وَوَخْرَأَ وَنَهْسَأَ، حَتَّىٰ طَابُوا عَنْ حَقْنَا نَفْسًا، وَاللَّهِ مَا أَعْطَوْهُ عَنْ هُوَدَةٍ، وَلَا رَضُوا فِيهِ بِالْقِضَاءِ . أَصْبَحُوا يَقُولُونَ : حَقْنَا عَلَيْنَا عَلَيْهِ، فَجَزَيْنَا هَذَا بِهَذَا، وَهَذَا فِي هَذَا . يَا أَهْلَ مَكَّةَ، أَنْفُسَكُمْ أَنْفُسَكُمْ، وَسُفَهَاءَكُمْ كَمْ سُفَهَاءَكُمْ، فَانْ مَعِي سَوْطًا سَكَالًا، وَسِيفًا وَبَالًا، وَكُلُّ مَصْبُوبٍ عَلَىٰ أَهْلِهِ .»^(١)

(١) العقد الفريد ٤/١٣٣ . الْلُّهُوَةُ، بضم اللام وفتحها : العطية، والجمع لهى . شرح : من الشرج ، وهو انشقاق الفوس والعود ، أراد فرق وباعد . الْقِدَاحُ : السهم قبل أن يراش وسمهم الميسر . الشَّبَّعَجُ شعبه : الأغصان ، أراد بها أصحاب الشورى . النَّبَعُ : شجر تتخذ منه القسي والسهام . الْمَحْظَى : ذو المحظوة والفضل . النَّهَشُ : النهش يقدم الأسنان . سَوْطًا سَكَالًا : أي سوطاً ذا سكال ، من نكل به : أي صنع به شيئاً يحدرك به غيره . الْوَبَالُ : الشدة والتقل .

لَا عزم معاوية على طلب اليمعة لابنه يزيد ، دعا جماعة من أشياعه وطلب إليهم أن يخطبوا إذا اجتمع الناس ويدعوا إلى مبايعة يزيد ، فقام الصحثان بن قيس الفهري فقال :

« أصلح الله أمير المؤمنين وأمتع به . إنما قد بلونا الجماعة والألفة ، فوجدناها أحقن للدماء ، وآمن للسبيل ، وخيراً في العاقبة والآجلة . ولا خير لنا أن نترك سدى ، والأيام عوج رواجع ، والأنفس يُغدِّي عليها ويُرَاح ، والله يقول : كل يوم هو في شان . ولسنا ندرى ما يختلف به العصران . وأنت يا أمير المؤمنين ميت ، كما مات من كان قبلك من أنبياء الله وخلفائه ، نسأل الله بك المَتَاع . وقد رأينا من دعَة يزيد ابن أمير المؤمنين ، وحسن مذهبة ، وقصد سيرته ، ويُمْنَن تقديره ، مع ما قسم الله له من الحبة في المسلمين ، والشبه بأمير المؤمنين ، في عقله وسياسته وشيمته المرضية ، ما دعانا إلى الرضا به في أمورنا ، والقنوع به في الولاية علينا . فليُولِّه أمير المؤمنين ، أكرمه الله ، عهده ، وليجعله لنا ملحاً ومفرعاً بعده ، ناوي إليه إن كان كون ، فإنه ليس أحد أحق بها منه ، فاعزِّم على ذلك ، عزم الله لك في رشدك ، ووفقاً في أمورنا . »^(١)

★ ★

(١) الامامة والسياسة ١٢٤/١ . الأموي ٧٣/٢ . عيون الأخبار ٢١٠/٢ . بلونا : جربنا . عوج : من عاج أي رجم ومال . يعن التقبة : التوفيق والحظ والبركة . إن كان كون : إن حدث أمر .

٧

لما فرغ الخطيب ^{الذين دعاه معاوية من الكلام حين أراد البيعة ليزيد} قام الأحنف فقال :

« يا أمير المؤمنين ، أنت أعلمنا بيزيد في ليه ونهاره ، وسره وعلانيته ، ومدخله ومخرجه . فان كنت تعلم الله رضاً ولهذه الأمة ، فلا تشاور الناس فيه ، وإن كنت تعلم منه غير ذلك ، فلا تزوده الدنيا ، وأنت صائر إلى الآخرة ، فإنه ليس لك من الآخرة إلا ما طاب . واعلم أنه لا حجّة لك عند الله إن قدّمت بيزيد على الحسن والحسين ، وأنت تعلم من هما ، وإلى ما هما . وإنما علينا أن نقول : سمعنا وأطعنا ، غُفرانك ربنا وإليك المصير . » ^(٢)

★ ★ ★

٨

خطبة زياد البراء :

وردت في ترجمة زياد بن أبي سفيان ص ٢٤١

★ ★ ★

٩

خطبة الحجاج بالكوفة :

حدث عبد الملك بن عمير القيسي قال : بينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة ، وأهل الكوفة يومئذ ذو وحال حسنة يخرج الرجل منهم في العترة والعشرين من مواليه ، إذا أتى آت فقال : هذا الحجاج قد قدم أميراً على العراق . فإذا به قد

(٢) المصادر المذكورة في الخطبة السابقة .

دخل المسجد معتمداً بهمة قد غطّى بها أكثر وجهه ، متقدّماً سيفاً ، متتكّباً
قوسأ ، يوم المنبر . فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر فكثّر ساعة لا يتكلّم ، فقال
الناس بعضهم البعض : « فَيَعْلَمُ اللَّهُ بْنِ أَمِيرِهِ حِينَ تَسْتَعْجِلُونَ مَثْلَ هَذَا عَلَى الْمَرْأَةِ .
حتى قال عمير بن خابي البرجمي : « أَلَا أَحْصِبْهُ لَكُمْ ؟ قَالُوا : أَمْهَلْ حَتَّى نَظَرْ .
فَلَمَّا رَأَى عَيْوَنَ النَّاسِ إِلَيْهِ حَسِرَ الْمَثَانِمَ عَنْ فِيهِ وَنَهَضَ قَالَ :

أَنَا أَنْ جَلَّا وَطَلَّاعُ الشَّنَائِيَا مَتَى أَضَعُ الْعَمَامَةَ تَعْرِفُونِي
يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ ، إِنِّي لَا رَأَيْ رَؤُوسَ أَقْدَمْتُ وَحْانَ قَطَافُهَا وَإِنِّي لِصَاحِبِهِ ،
وَكَأَنِّي أَنْظَرْتُ إِلَى الدَّمَاءِ بَيْنَ الْعَمَامَةِ وَاللِّحَىِ ؛

هَذَا أَوَانُ الشَّدُّ فَأَشْتَدَّ دِي زَيْمٍ

لَيْسَ بِرَاعِي إِبْلٍ وَلَا غَمَمٍ وَلَا بَحْرٍ وَضَمَّ

قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بَعْصَلِي أَرَوَعُ خَرَاجٍ مِنَ الدَّوَىِ

مَهَاجِرٌ لَيْسَ بِأَعْرَابِي

قَدْ شَمَرْتُ عَنْ سَاقِهَا فَشُدُّوا وَجَدَّتِ الْحَرْبُ بِكُمْ فَجَدُّوا

وَالْقَوْسُ فِيهَا وَرَرَ عَرْدٌ مِثْلُ ذِرَاعِ الْبَكَرِ أَوْ أَشَدُ

لَا بُدَّ مِمَّا لَيْسَ مِنْهُ بُدٌّ

إِنِّي وَاللَّهِ يَا أَهْلَ الْمَرْأَةِ مَا يُقْعَدُ لِي بِالشَّنَائِنِ ، وَلَا يُغَمَّزُ جَانِي
كَتَغَيَّازُ التَّيْنِ ، وَلَقَدْ فَرِرْتُ عَنْ ذَكَاءِ ، وَفَدَّشْتُ عَنْ تَجْرِيَةِ ، وَإِنَّ أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ — أَطَالَ اللَّهُ بِقَاهُ — نَثَرَ كَنَاتَتَهُ بَيْنَ يَدِيهِ ، فَعِجَمَ عِيَدَانَهَا ، فَوُجِدَنِي
أَمْرَهَا عَوْدًا ، وَأَصْلَبَهَا مَكْسِرًا ، فَرَمَّا كَمْبَيِ ، لَا إِنْكِمْ طَالَمَا أَوْ ضَعْقُمْ فِي الْفَتْنَةِ ،
وَاصْنَطَعْتُمْ فِي مِرَاقِدِ الضَّلَالِ .

وَاللَّهُ لَا يُحِرِّنْكُمْ حَزْمَ السَّلَمَةِ، وَلَا يُضْرِبْكُمْ ضَرَبَ غَرَائِبِ الْأَبْلِ،
فَإِنَّكُمْ لِلْكَاهْلِ قَرِيْةٌ كَانَتْ آمِنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغْدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ،
فَكَفَرْتُ بِأَنْعَمِ اللَّهِ، فَلَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسُ الْجَمْعِ وَالْجُوفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ.
وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا لِقُولٍ إِلَّا وَفَيْتُ، وَلَا أَهْمُ إِلَّا أَمْضَيْتُ، وَلَا أَخْلُقُ إِلَّا
فَرِيتُ. وَإِنَّ الْمُهَاجِرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمْرِي بِإِعْطَائِكُمْ أَعْطِيَاتِكُمْ، وَإِنَّ أَوْجُوهَكُمُ الْمُحَارِبَةِ عَدُوَّكُم
مَعَ الْمَهْلِبِ بْنِ أَبْنِ صُفْرَةَ، وَإِنِّي أَقْسَمُ بِاللَّهِ لَا أَجِدُ رَجُلًا تَخْلَفُ بَعْدَ أَخْذِ
عَطَائِهِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ إِلَّا ضَرَبَتْ عَنْقَهُ .»^(١)

★ ★ ★

١٠

خطبة طارق بن زياد لما فتح الأندلس :

«أَيُّهَا النَّاسُ، أَيْنَ الْمَفْرُ؟ الْبَحْرُ مِنْ وَرَائِكُمْ، وَالْعُدُوُّ أَمَامَكُمْ، فَلَيْسَ
ثُمَّ وَاللَّهِ إِلَّا الصَّدَقُ وَالصَّابِرُ، فَإِنَّهَا لَا يُغْلِبَانَ، وَهَا جُنْدَانَ مَنْصُورَانَ، وَلَا
تَضُرُّ مَعْهَا قِلَّةٌ، وَلَا تَنْفَعُ مَعَ الْخُوَرَ وَالْكَسْلِ وَالْفَشَلِ وَالْاِخْتِلَافِ وَالْمُجْبَبِ
كُثْرَةً .

(١) الـكامل المبرد ٢٢٣/١ . ابن جلا : الواضح الأسر . الشنايج ثنية : الطريق في الجبل ، أراد
أنه قوي جلد على الصعب ، والبيت لسليم بن وثيل الرياحي . الشد : الارساع في السير . زيم : اسم لفرس
أو ناقة . الحطم : الذي لا يبقى من السير شيئاً . الوضم : خشبة المزار يقطع عليها العم . المصلي : الشديد .
الأروع : الذكي . الدوي : الصحراء . وخرج من الدوي : أراد أنه قادر على الخروج من المأزرق الصعبة .
الشنانج شن : القرية اليابسة . فر الدابة : كشف عن أسنانها ليعرف سنه . عجم العود : مضغه ليعرف
صلابته . أمرها : أفواها . أوضضتم : أسرعتم . السلمة : شجر كثير الشوك . أخلق : أقدر .
غريت : قطعت .

أَيُّهَا النَّاسُ، مَا فَعَلْتُ مِنْ شَيْءٍ فَاقْفَلُوا مِثْلَهُ : إِنْ حَمَلْتُ فَاحْمِلُوا وَإِنْ
وَقَتَ فَقَبِّلُوا ، ثُمَّ كَوَافِرُوا كَهْيَةً رَجُلٌ وَاحِدٌ فِي الْقَتَالِ . أَلَا وَإِنِّي عَامِدٌ إِلَى
طَاغِيهِمْ ، بِحِدْثٍ لَا أَتَهِيْهُ حَتَّى أَخَالِطَهُ أَوْ أُقْتَلَ دُونَهُ ، فَإِنْ قُتِلْتَ فَلَا تَهْنُوا وَلَا
وَلَا تَحْزِنُوا ، وَلَا تَنَازِعُوا فَتَقْشَلُوا وَتَذَهَّبَ رِيحُكُمْ ، وَتَوَلُّوا الدُّبُرُ
لَعْدُوكُمْ ، فَتَبَدَّدُوا بَنْ قَتِيلٍ وَأَسْيَرٍ . وَإِلَيْكُمْ كَمَا يَا كُمْ أَنْ تَرْضَوْا بِالدُّنْيَا ، وَلَا تَعْطُوْمَا
بِأَيْدِيكُمْ ، وَارْغَبُوا فِيمَا عُجِلَ لَكُمْ مِنَ الْكَرَامَةِ ، وَالرَّاحَةِ مِنَ الْمَهْنَةِ وَالذَّلَّةِ ،
وَمَا قَدْ أَجْحَلَ لَكُمْ مِنْ نُوَابِ الشَّهَادَةِ ، فَإِنَّكُمْ إِنْ تُفْلِتُوا - وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَمُعِيدٌ مَعَكُمْ -
تَبُوُوا بِالْخَسْرَانِ الْمُبِينِ ، وَسُوءِ الْحَدِيثِ غَدَّاً بَيْنَ مَنْ عَرَفْتُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ،
وَهَذَا حَامِلٌ حَتَّى أَغْشَاهُ ، فَاحْمِلُوا بِحَمْلِي . »^(١)

★ ★ ★

١١

خطبة خالد بن عبد الله القسّري عَمَّة يَدْعُو إِلَى الطَّاعَةِ :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّكُمْ بِأَعْظَمِ بَلَادِ اللَّهِ حُرْمَةَ ، وَهِيَ الَّتِي اخْتَارَ اللَّهُ مِنَ
الْبُلْدَانِ فَوْضَعَ بِهَا يَيْتَهُ ، ثُمَّ كَتَبَ عَلَى عِبَادِهِ حِجَّةَ مِنْ اسْتِطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا .
أَيُّهَا النَّاسُ ، فَعَلِيكُمْ بِالطَّاعَةِ ، وَلِزُومِ الْجَمَاعَةِ ، وَإِلَيْكُمُ وَالشَّهَادَاتِ ، فَإِنِّي وَاللَّهِ
مَا أُوْتَ بِأَحَدٍ يَطْعَنُ عَلَى إِمَامِهِ إِلَّا صَلَبَتْهُ فِي الْحَرَمَ . إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الْخَلَافَةَ
مِنْهُ بِالْمَوْضِعِ الَّذِي جَعَلَهَا ، فَسَلَّمُوا وَأَطِيعُوا ، وَلَا تَقْوُلُوا كَيْتَ وَكَيْتَ ،
إِنَّهُ لَا رَأْيَ فِيمَا كَتَبَ بِهِ الْخَلِيفَةُ أَوْ رَأَهُ إِلَّا إِمْضَاؤُهُ .

(١) الْإِمَامَةُ وَالسِّيَاسَةُ لَابْنِ قَتِيبةِ ٢/٧٣ . الْفَيْلُ : الْجَبَنُ وَالضَّعْفُ . لَا تَهْنُوا : لَا تَضَعُوا . لَا تَعْطُوا
بِأَيْدِيكُمْ : لَا تَسْتَلِمُوا . إِنْ تَعْلُوا : إِنْ تَغْلِبُوا وَتَهْزِمُوا .

واعلموا أنه بلغني أن قوماً من أهل الخلاف يقدموُن عليكم، ويقيمون في بلادكم، فايّاً كم أن تُنْزِلوا أحداً ممّن تعلمون أنه زائف عن الجماعة، فاني لا أجد أحداً منهم في منزل أحدٍ منكم إلا هدمت منزله. فانظرُوا مَنْ تُنْزَلُونَ في منازلِكم، وعليكم بالجماعة والطاعة، فان الفرقَةَ هو البلاء العظيم. »^(١)

★ ★ ★

ثانياً - خطبة الزبيرية

١٣

خطبة عبد الله بن الزبير لما بلغه قتل أخيه مصعب :

«الحمد لله له الخلق والأمر، والدنيا والآخرة، يُؤْتَى الْمُلْكُ مَنْ يشاء، ويتَرَزَعُ الْمُلْكُ مَنْ يشاء، ويُعزَّ مَنْ يشاء، ويُذَلَّ مَنْ يشاء.

أما بعد، فإنه لم يُعزَ الله من كان الباطل معه، وإن كان معه الأئمَّ طُرُّم، ولم يُذَلَّ من كان الحق معه، وإن كان مفرداً ضعيفاً. ألا وإنه أتانا خبر من العراق، بلد الفَدَر والشِّقَاق، فأحزننا وسرّنا. أتانا أن مصعباً قُتل رحمة الله عليه ومحنة، فاما الذي أحزننا من ذلك، فان لفراق الحَمَّام لذلة ولوحة يجدها حميمه عند المصيبة، ثم يرعوي من بعد ذو الرأي والدين إلى جميل الصبر، وكريم العزاء. وأما الذي سرنا منه فاننا قد علمنا أن قتيلاً شهادة له، وأنه عز وجل جاعل لنا وله في ذلك ذخيرة إن شاء الله تعالى.

(١) تاريخ الطبرى ٨٠/٨.

أسلمه الطعام ، الصُّلُمُ الْآذَانُ ، أهلُ الْعَرَاقِ ، إِسْلَامُ النَّعَمَ الْخَطَّمَةُ ،
وَبَاعُوهُ بِأَقْلَمٍ مِّنَ الشَّمْنِ الَّذِي كَانُوا يَأْخُذُونَ مِنْهُ . فَازَ يُقْتَلُ . فَقَدْ قُتِلَ أَبُوهُ
وَعَمِهِ وَأَخْوَهُ ، وَكَانُوا الْخَيَارُ الصَّالِحَيْنِ . إِنَّا وَاللَّهِ لَا نَحْمُوتُ حَتْفَ آنافِنَا ،
وَلَكِنْ قَعْصَابَ الرَّماحِ ، وَمَوْنَاتَ تَحْتَ ظِلَالِ السَّيْوَفِ ، وَلَيْسَ كَمَا يَحْمُوتُ بَنُو صَرْوَانِ ،
وَاللَّهِ مَا قُتِلَ مِنْهُمْ رَجُلٌ فِي زَحْفٍ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٌ قَطُّ . أَلَا وَإِنَّا الدُّنْيَا
عَارِيَّةٌ مِّنَ الْمَلَكِ الْقَهَّارِ الَّذِي لَا يَزُولُ سُلْطَانُهُ ، وَلَا يَبْيَدُ مُلْكَهُ ، فَإِنْ تُقْبَلِ
الدُّنْيَا عَلَيْهِ لَمْ آخُذْهَا أَخْذَ الْأَشِرِ الْبَاطِرِ ، وَإِنْ تَدْبَرْ عَنِّي لَمْ أُبَلِّكْ عَلَيْهَا بُكَاءَ
الْخَرْقِ الْمَهِينِ ، أَقُولُ هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ . »^(٩)

★ ★ ★

١٣

خطبة مصعب بن الزبير لما بعثه أخوه دايمًا على البصرة :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (طَسِيمٌ . تَلَكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ، تَلَوْ عَلَيْكِ
مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . إِنَّ فَرْعَوْنَ عَلَى الْأَرْضِ
وَجَعَلَ أَهْلَهَا شَيْئًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ ، يُذْبَحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيُسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ
أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) — وَأَشَارَ يَدَهُ نَحْوَ الشَّامِ — وَنَرِيدُ أَنْ نَمُنْ عَلَى الَّذِينَ

(١) الأغاني ١٦٦/١٧ . العقد الفريد ٤/٩٠ . تاريخ الطبرى ٧/١٩٠ . يرجع إلى صوابه . صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . المخطمة : من خطم البعير إذا جعل على أنه الخطام ليقتاد به . أبوه وعمه وأخوه : أبوه الزبير وقتل منصرفة من وقعة الجمل ، قتل عمرو بن جرموز . وأخوه المنذر وقتل يوم الحرة ، وعمه عبد الرحمن بن العوام وقد استشهد يوم البرموك . مات ختف أنه : أبي على فراشه من غير قتل . قعضاً بالرماح : طعنَا بالرماح . العارية : ما يتقاوله الناس ويتعاونونه . الخرق : الأحق .

استُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلُهُمْ أُمَّةً وَنَجْعَلُهُمُ الْوَارِثَيْنَ) – وَأَشَارَ يَدِهِ نَحْوَ
الْمَجَازِ – (وَنُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فَرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجِنْوَدَهَا
مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ) – وَأَشَارَ يَدِهِ نَحْوَ الْعَرَاقِ ^(١).

★ ★

تالاً - خطب الخوارج

١٤

خطبة لصالح بن مسرح الصفري

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ،
ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدَلُونَ ، اللَّهُمَّ إِنَّا لَا نَعْدِلُ بِكَ ، وَلَا نَحْفِدُ إِلَّا إِلَيْكَ ،
وَلَا نَبْعُدُ إِلَّا إِلَيْكَ ، لَكَ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، وَمِنْكَ النَّفْعُ وَالضَّرُّ ، وَإِلَيْكَ
الْمَصِيرُ ، وَنَشْهُدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُكَ الَّذِي اصْطَفَيْتَهُ ، وَرَسُولُكَ الَّذِي اخْتَرْتَهُ
وَارْتَضَيْتَهُ ، لِتَبْلِغَ رِسَالَاتَكَ ، وَنَصِيحَةَ عِبَادِكَ ، وَنَشْهُدُ أَنَّهُ قدْ بَلَّغَ الرِّسَالَةَ ،
وَنَصَحَ لِلْأُمَّةِ ، وَدَعَا إِلَى الْحَقِّ ، وَقَامَ بِالْقِسْطِ ، وَنَصَرَ الدِّينَ ، وَجَاهَدَ
الْمُشْرِكِينَ ، حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ عَزَّلَّهُ عَزَّلَّهُ .

أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَالزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا ، وَالرُّغْبَةِ فِي الْآخِرَةِ ، وَكَثْرَةِ ذِكْرِ الْمَوْتِ ،
وَفِرَاقِ الْفَاسِقِينَ ، وَحُبِّ الْمُؤْمِنِينَ . فَإِنَّ الزُّهْدَةَ فِي الدُّنْيَا تُرْغِيبُ الْعَبْدَ فِيمَا عَنْدَ اللَّهِ ،
وَتُفْرِغُ بِدَنَهُ لِطَاعَةِ اللَّهِ ، وَإِنَّ كَثْرَةَ ذِكْرِ الْمَوْتِ تُخْيِفُ الْعَبْدَ مِنْ رَبِّهِ ، حَتَّى

(١) العقد الفريد ٤/١٣٥ . يستحبى : ببقيهم أحياه .

يُجَارُ إِلَيْهِ ، وَيُسْتَكِينَ لَهُ . وَإِنَّ فِرَاقَ الْفَاسِقِينَ حَقٌّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ : « وَلَا تُصْلِحُ عَلَى أَخْدِ مِنْهُمْ مَا تَأْبِدُ ، وَلَا تَقُولُ عَلَى قَبْرِهِ ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَا أَوْهُمْ فَاسِقُونَ ، وَإِنْ حُبَّ الْمُؤْمِنِينَ لَلَّسَبَبُ الدِّيْنِ يُسْنَالُ بِهِ كَرَامَةُ اللَّهِ وَرَحْمَتَهُ وَجَنَاحَتَهُ ، جَعَلْنَا اللَّهُ وَإِلَيْا كُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ الصَّابِرِينَ .

أَلَا إِنَّ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنفُسِهِمْ ، فَعَلَّمَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَزَكَاهُمْ وَظَهَرَهُمْ ، وَفَقَّهَهُمْ فِي دِينِهِمْ ، وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفًا رَحِيمًا ، حَتَّىٰ قَبْضَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، صَلَواتُ اللَّهِ عَلَيْهِ . ثُمَّ وَلَيَ الْأَمْرُ مِنْ بَعْدِهِ التَّقِيُّ الصِّدِيقُ ، عَلَى الرِّضَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَاقْتُدِي بِهِدِيهِ ، وَاسْتَنِ بُسْنَتِهِ ، حَتَّىٰ لَحْقَ بِاللَّهِ ، رَحْمَهُ اللَّهُ ، وَاسْتَخْلَفَ عُمَرَ ، فَوَلَاهُ اللَّهُ أَمْرُ هَذِهِ الرَّعْيَةِ ، فَعَمِلَ بِكِتَابِ اللَّهِ ، وَأَحْيَا سُنَّةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَمْ يُحْنِقْ فِي الْحَقِّ عَلَى جِرَّتِهِ ، وَلَمْ يَخْفِ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَا يُؤْمِنُ ، حَتَّىٰ لَحْقَ بِهِ ، رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ .

وَوَلَيَ مِنْ بَعْدِهِ عُمَانَ ، فَاسْتَأْتَرَ بِالْفَيْءِ ، وَعَطَّلَ الْمَحْدُودَ ، وَجَارَ فِي الْحَكْمِ ، وَاسْتَدَلَ الْمُؤْمِنَ ، وَعَزَّزَ الْمُجْرَمَ ، فَسَارَ إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ فَقَتَلُوهُ ، فَبَرِىَ اللَّهُ مِنْهُ وَرَسُولُهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ .

وَوَلَيَ أَمْرَ النَّاسِ مِنْ بَعْدِهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَلَمْ يَنْشَبْ أَنْ حَكْمُهُ فِي أَمْرِ اللَّهِ الرَّجَالَ ، وَشَكَّ فِي أَهْلِ الضَّلَالِ ، وَرَكِنَ وَأَدْهَنَ ، فَنَحْنُ مِنْ عَلِيٍّ وَأَشْيَاعِهِ بَرَاءُ .

فَتَيَسِّرْ وَا؛ رَحْمَكُمُ اللَّهُ، بِجَهَادِ هَذِهِ الْأَحزَابِ الْمُتَحْزِبَةِ، وَأَئْمَةِ الضَّلَالِ
الظَّلَمَةِ، وَلِلْخَرْوَجِ مِنْ دَارِ الْفَنَاءِ، إِلَى دَارِ الْبَقَاءِ، وَاللَّاحِقِ بِاخْرَانَا الْمُؤْمِنِينَ
الْمُؤْفَنِينَ الَّذِينَ باعُوا الدِّينَ بِالآخِرَةِ، وَأَنْفَقُوا أَمْوَالَهُمُ التَّامَّاً وَصُنُوانَ اللَّهِ فِي
الْعَاقِبَةِ، وَلَا تَحْزَعُوهَا مِنَ الْقَتْلِ فِي اللَّهِ فَإِنَّ الْقَتْلَ أَيْسَرُ مِنَ الْمَوْتِ، وَالْمَوْتُ
نَازِلٌ بِكُمْ، غَيْرَ مَا تَرْجُمُ الظُّنُونُ، فَفَرَقْ يَيْنِكُمْ وَبَيْنَ آبَائِكُمْ وَأَبْنَائِكُمْ وَحَلَائِكُمْ
وَدُنْيَاكُمْ، وَإِنْ اشْتَدَّ لَذِكْرُ هُكْمِ وَجْزُ عُكْمِكُمْ . أَلَا فَيَبْعُدُوا اللَّهُ أَنْفَسَكُمْ
طَائِعِينَ وَأَمْوَالِكُمْ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ آمِنِينَ، وَتَعَانِقُوا الْحُورُ الْعَيْنَ، جَعَلْنَا اللَّهُ
وَإِيمَانَكُمْ مِنَ الشَاكِرِينَ الْمَاكِرِينَ، الَّذِينَ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدَلُونَ .^(١)

★ ★

١٥

من خطبة أبي حمزة المخارجي بـكهة وقد بلغه أن أهلاها يتبرون أصحابه بـحداثة سنهم :
 « يَا أَهْلَ مَكَّةَ ، تُعِيرُونِي بِأَصْحَابِي ، تَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ شَبَابٌ ، وَهُلْ كَانَ
 أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا شَبَابًا . نِعْمَ الشَّبَابُ مُكْتَهِلِينَ ، عَمِيقَةٌ عَنِ
 الشَّرِّ أَعْيُنُهُمْ ، بَطِيقَةٌ عَنِ الْبَاطِلِ أَرْجُلُهُمْ . قَدْ نَظَرَ اللَّهُ عَيْنَاهُمْ فِي آنَاءِ الْلَّيْلِ
 مُنْتَهِيَّ أَصْلَابُهُمْ بِمَثَانِي الْقُرْآنِ . إِذَا مَرَّ أَحَدُهُمْ بِآيَةٍ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ بَكَى
 شَوْقًا إِلَيْهَا ، وَإِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا ذِكْرُ النَّارِ شَهِقَ شَهِقَةً كَأَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ
 فِي أَذْنِيهِ . قَدْ وَصَلُوا كَلَالَ لِيَلِهِمْ بِكَلَالِ نَهَارِهِمْ ، أَنْضَاءُ عِبَادَةٍ ، قَدْ أَكَلَتْ

(١) تاريخ الطبراني ٢١٧/٧ . حدد اليه : خف وأسرع . جأر اليه : رفع صوته بالدعاء . الجرة : ما يخرج جه البعير ليجتره ، والاختناق : لصوق البطن بالصلب ، والمراد أنه لا ينطوي على الحقد انطواه البطن على الجرة . أدهن : غش .

الْأَرْضُ جِبَاهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَرَكَبَهُمْ مُصْفَرَةُ الْوَاثِئِمْ ، نَاحِلَةُ أَجْسَامِهِمْ ، مِنْ كُثْرَةِ الصِّيَامِ ، وَطُولُ الْقِيَامِ ، مُسْتَقْلُونَ لِذَلِكَ فِي جَنَبِ اللَّهِ ، مُوْفَونَ بِعِهْدِ اللَّهِ ، مُسْتَجْزَوْنَ لِوَعْدِ اللَّهِ .

إِذَا رَأَوْا سَهَامَ الْمَدُوْرَ قَدْ قُوَّتْ ، وَرَمَاهُهُ قَدْ أَشْرَعْتَ ، وَسِيَوْفَهُ قَدْ اسْتُضَيْتَ ، وَبِرْقَتِ الْكَتِيَّبَةُ وَرَعَدَتْ بِصَوْاعِقِ الْمَوْتِ ، اسْتَهَانُوا بِوَعِيدِ الْكَتِيَّبَةِ لِوَعْدِ اللَّهِ ، فَضَى الشَّابُّ مِنْهُمْ قَدْ مَا حَتَّى تَخْتَلَفُ رِجْلَاهُ عَلَى عُنْقِ فَرْسِهِ ، قَدْ رُمِّلَتْ مَحَاسِنُ وَجْهِهِ بِالدَّمَاءِ ، وَعُفَرَ جَيْدِهِ بِالثَّرَى ، وَأَسْرَعَ إِلَيْهِ سَبَاعُ الْأَرْضِ ، وَانْحَطَتْ عَلَيْهِ طَيرُ السَّهَامِ . فَكَمْ مِنْ مُقْلَةٍ فِي مِنْقَارِ طَائِرٍ ، طَالَمَا بَكَى صَاحِبُهَا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَكَمْ مِنْ كَفِّ بَانَتْ عَنْ مِعْصَمِهَا ، طَالَمَا اعْتَمَدَ عَلَيْهَا صَاحِبُهَا فِي سَجْوَدَهِ ، وَكَمْ مِنْ خَدِّ عَتِيقِهِ ، وَجَبَينِ رَقِيقِهِ ، قَدْ فُلِقَ بِعَمَدِ الْجَدِيدِ .

رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى تِلْكَ الْأَبْدَانِ ، وَأَدْخِلْ أَرْوَاحَهَا فِي الْجَنَانِ . النَّاسُ مِنْا وَنَحْنُ مِنْهُمْ ، إِلَّا عَابِدَ وَثَنَ ، أَوْ كَفِرَةً أَهْلَ الْكِتَابِ ، أَوْ إِمَاماً جَائِراً ، أَوْ شَادِّاً عَلَى عَضْدِهِ .^(١)

★ ★

(١) العقد الفريد ٤/١٤٤ . الاناء ج آني : الساعة من الليل . مذاقي القرآن : سورة . الكلال : التعب . أنفاس ج نقو : المهزول ، وأنفاسه : أهزله . فوق السهم : جمل له فوقها ، وهو موضع الوتر من السهم ، أي أعدده الرمي . قدما : متقدما شبعاعا . رملت : لطخت . بانت : انفصلت . العتيق : الجميل النبيل .

رابعاً : خطب السيدة

١٦

خطبة للحسين بن عليٍّ قالها حين أقبل يربد الكوفة فوجده أهلها قد تقضوا
عهدهم وانقضوا عنه ؛ حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

«أيها الناس ، إنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : مَنْ رَأَى مُسْلِطَانًا جَاهِرًا مُسْتَحْلِلًا
لِحِرَامِ اللَّهِ ، نَا كُنَّا لِعَهْدِ اللَّهِ ، مُخَالِفًا لِسُنْنَةِ رَسُولِ اللَّهِ ، يَعْمَلُ فِي عِبَادِ اللَّهِ بِالْأَنْمَامِ
وَالْعُذْدَوَانِ ، فَلَمْ يُغِيرْ عَلَيْهِ بِفَعْلٍ وَلَا قَوْلٍ ، كَانَ حَقًا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ
مُدْخَلَهُ . أَلَا وَإِنْ هُؤُلَاءِ قَدْ لَزَمُوا طَاعَةَ الشَّيْطَانِ ، وَتَرَكُوا طَاعَةَ الرَّحْمَنِ ،
وَأَظْهَرُوا الْفَسَادَ ، وَعَطَلُوا الْحُدُودَ ، وَاسْتَأْتَرُوا بِالْفَيْءِ ، وَأَحْلَلُوا حَرَامَ اللَّهِ ،
وَحَرَمُوا حَلَالَهُ . وَأَنَا أَحْقَ مِنْ غَيْرِهِ ، قَدْ أَنْتُنِي كُتُبُكُمْ ، وَقَدْ مَتَ عَلَيَّ
رَسُولُكُمْ يَدِيَعْتُكُمْ ، أَنْكُمْ لَا تُسْلِمُونِي وَلَا تَخْذُلُونِي . فَإِنْ تَعْمَمْ عَلَيَّ بِيَعْتَكُمْ
تُصِيبُوا رُشْدَكُمْ ، فَأَنَا الْحُسَينُ بْنُ عَلَيٍّ ، وَابْنُ فَاطِمَةَ بَنْتِ رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، نَفْسِي مَعَ أَنْفُسِكُمْ ، وَأَهْلِي مَعَ أَهْلِيَكُمْ . فَلَكُمْ فِي أَسْوَةِ . وَإِنْ لَمْ
تَفْعُلُوا وَنَقْضُوكُمْ عَهْدَكُمْ ، وَخَلْعُتُمْ بِيَعْتِي مِنْ أَعْنَاقِكُمْ ، فَلَعْمَرِي مَا هِيَ لَكُمْ
بُنُكُرٌ ، لَقَدْ فَعَلْتُمُوهَا بِأَبِي وَابْنِ عَمِّي مُسْلِمٍ ، وَالْمَغْرُورُ مِنْ أَغْتَرْ بِكُمْ ،
فَحَظَّكُمْ أَخْطَأَمُ ، وَنَصِيبُكُمْ ضَيْعَمُ ، وَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ،
وَسِيْغَنِي اللَّهُ عَنْكُمْ ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ . ۱۱ »

★ ★

(١) تاريخ الطبراني ٤٠٣/٥ (دار المعارف) . يشير عليه : يظهر إنسكاره لعمله . الفيء والحراج .

١٧

خطبة سليمان بن صبرَد يدعُو التوابين إلى التأثر بقتل الحسين :

«أُثني على الله خيراً، وأحمد آلاءه وبلاده، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسوله. أما بعد، فاني والله خائف ألا يكون آخرنا إلى هذا الدهر ، الذي نكدرت فيه المعيشة ، وعظمت فيه الرزية ، وشمل فيه الجور أولي الفضل من هذه الشيعة ، لما هو خير . إنما كنا نعد أعناقنا إلى قدوم آل بيئنا ، ونمنيهم النصر ، ونخشىهم على القدوم . فلما قدموه ونَيَّنا وعَجَزَنا ، وأدهنا وتربيصنا ، وانتظرنا ما يكون ، حتى قُتل فينا ولدُ بيئنا وسُلالته وعصارته وبضعة من لمه ودمه ، إذ جعل يستصرخ فلا يُصرخ ، ويُسأله النصف فلا يُعطاه ، اتَّخذوا الفاسقون غرضاً للنبيل ، ودريةً للرماد ، حتى أقصدوه ، وعدوا عليه فسلبوه .

ألا انهمضوا فقد سخط ربكم ، ولا ترجعوا إلى الحالات والأبناء حتى يرضي الله . والله ما أظنه راضياً دون أن تُناجزوا من قتلها أو تُبَيِروا . ألا لا تهابوا الموت ، فوالله ما هابه أمرٌ قط إلا ذل . كونوا كالأخوات من بني إسرائيل إذ قال لهم بيئهم : «إذْكُمْ ظلمْتُمْ أَنفُسَكُمْ باتخاذِكُمُ العِجلَةَ فتوبُوا إِلَى بارئِكُمْ فاقتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذلِكُمْ خيرٌ لَكُمْ عِنْدَ بارئِكُمْ .» فما فعل القوم جثوا على الرُّكُب والله ، ومدوا الأعنق ، ورضوا بالقضاء ، حتى حين علموا أنه لا يُنجيهم من عظيم الذَّنب إلا الصبر على القتل . فكيف بكم لو قددُعِيتُم إلى مثلِ ما دُعِيَ القومُ إليه ؟ اشحدوا السيوف ، وركبوا

الأشنة، «وأَعْدِدُوا لَهُم مَا أَسْتَطْعُمُ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْجَيْلِ»، حتى
تُدْعَوا وَتُسْتَنْفَرُوا. «^(١)

☆ ☆ ☆

14

خطبة أبيزيد بن أنس الأنصاري بحريض أصحاب المختار الثقفي على القتال :

«يَا مُعْشَرَ الشِّعْنَةِ، قَدْ كُنْتُمْ تُقْتَلُونَ وَتُقْطَعَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ،
وَتُسْمَلُ أَعْيُنُكُمْ، وَتُرْفَعُونَ عَلَى جُذُوعِ النَّخْلِ، فِي حُبٍّ أَهْلَ بَيْتِ
نَبِيِّكُمْ، وَأَنْتُمْ مُقْيِمُونَ فِي يَوْنَكُمْ وَطَاعَةً عَدُوكُمْ. فَإِنَّا نَظَنُّكُمْ بِهُؤُلَاءِ
الْقَوْمِ إِنْ ظَهَرُوا عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ؛ إِذْنَ اللَّهِ لَا يَسْدَعُونَ مِنْكُمْ عَيْنًا نَظَرٍ،
وَلَيَقْتُلُنَّكُمْ صَبِرًا، وَلَتَرَوْنَ مِنْهُمْ فِي أَوْلَادِكُمْ وَأَزْواجِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ
مَا الْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْهُ. وَاللَّهُ لَا يُنْجِي كُمْ مِنْهُ إِلَّا الصَّدَقُ وَالصَّبَرُ وَالظَّفَنُ
الصَّائبُ فِي أَعْيُنِهِمْ، وَالضَّربُ الدُّرَالُكُ عَلَى هَامِهِمْ، فَتَيَسَّرُوا لِلشَّدَّةِ،
وَتَهَيَّئُوا لِلْحَمْلَةِ، فَإِذَا حَرَكْتُ رَايَتِي مِنْ تِينَ فَاحْمِلُوا.»^(٢)

Three small black stars arranged horizontally.

(٢) جهزة خطب العرب ٤٧ : سهل عينيه : ففأهنا . ظهروا عليكم : انتصروا عليكم . قتله حبراً : هو أن يحبسه ويرميه حتى يموت . الضرب الدرالك : المتابع .

خامساً : خطب سائر الناهضين لبني أمية

١٩

خطبة لامر بن وائلة الكندي يحرّض فيها أهل العراق على مبايعة عبد الرحمن بن الأشمت وخلع الحجاج :

«أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ الْحِجَاجَ وَاللَّهِ مَا يَرَى بِكُمْ إِلَّا مَا رَأَى الْقَائِلُ الْأُولَى إِذْ قَالَ لِأَخِيهِ : احْمِلْ عَبْدَكَ عَلَى الْفَرْسِ ، فَإِنْ هَلَكَ هَلَكَ ، وَإِنْ نَجَا فَلَكَ . إِنَّ الْحِجَاجَ وَاللَّهِ مَا يُبَالِي أَنْ يُخَاطِرَ بِكُمْ ، فَيُقْتَحِمُكُمْ بِلَادًا كَثِيرَةَ الْهُوَبِ وَالْأَصْوَبِ . فَإِنْ ظَفَرْتُمْ فَغَنِمْتُمْ أَكْلَ الْبَلَادِ ، وَحَازَ الْمَالِ ، وَكَانَ ذَلِكَ زِيادةً فِي سُلْطَانِهِ . وَإِنْ ظَفَرْتُمْ عَدُوكُمْ كُنْتُمْ أَنْتُمُ الْأَعْدَاءَ الْبُغَضَاءُ الَّذِينَ لَا يُبَالِي عَنَتُهُمْ ، وَلَا يُبْقِي عَلَيْهِمْ . اخْلُمُوا عَدُوَّ اللَّهِ الْحِجَاجَ ، وَبَايِعُوا عَبْدَ الرَّحْمَنَ ، فَإِنِّي أَشْهِدُكُمْ أَنِّي أَوْلَى خَالِعٍ .»^(١)

★ ★

٣٠

خطبة ليزيد بن المطلب يحرّض فيها أصحابه على قتال أهل الشام :

«أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي أَسْمَعَ قَوْلَ الرَّاعِي ، قَدْ جَاءَ الْعَبَاسُ ، قَدْ جَاءَ مَسْلِمَةُ ، قَدْ جَاءَ أَهْلَ الشَّامِ . وَمَا أَهْلُ الشَّامِ إِلَّا تَسْعَةُ أَسْيَافٍ ، مِنْهَا سَبْعَةٌ مَعِي ، وَاثْنَانٌ عَلَيَّ . وَمَا مَسَامَةٌ إِلَّا جَرَادَةٌ صَفَرَاءُ . وَأَمَّا الْعَبَاسُ فَنَسْطَوْسُ بْنُ

(١) جهرة خطب العرب ٢/٣٢٣ . الهوب ج لهب : المهاوة بين الجبلين . اللصب : الشعب في الجبل . العنت : الهملاك والمشقة .

نسطوس . أتاكم في برايرة وصقالبة وجرامة وأقباط وأنباط وأخلاق . إنما أقبل إليكم الفلاحون والأوباش كأشلاء اللجم ، والله ما لفوا قط حدآ كحدكم ، ولا حديدآ كحديدكم . أعيروني سواعدكم ساعة من نهار تصيفون بها خراطيمهم . فانها هي غدوة أو روحه ، حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين . »^(١)



(١) البيان والتبيين ١/٢٩٢ . المقد الفريد ٤/١٢٧ . مسلمة : هو مسلمة بن عبد الملك ، والعباس هو العباس بن الوليد ، وقد بعضها يزيد بن عبد الملك في جوش أهل الشام لقتال ابن المطلب . نسطوس بن نسطوس : أراد أن أمه رومية . الجرامقة : قوم من العجم تزلاوا الموصل في الاسلام . الجراجة : قوم من العجم تزلاوا بلاد الشام . أشلاء اللجم : حدائق اللجام بلا سيور . الحديد : السلاح . تصيفون : تضربون . الخراطيم : الأنوف .

الفهرس

المقدمة

القسم الأول

العوامل المؤثرة في الخطابة السياسية في العصر الأموي

- ١ - الأحداث السياسية وأثرها في الخطابة الأموية :
بواحد انشقاق المسلمين - أبرز الأحداث الداخلية زمن بنى أمية وأثرها في الخطابة : ثورة ابن الزبير - ثورات الشيعة - ثورات الخوارج - ثورة ابن الأشعث - ثورة ابن المطلب - الصراع بين بنى أمية على الحكم - الدعوة العباسية .
الحروب القبلية - الفتوح الخارجية .
- ٢ - المؤثرات الدينية :
اختلاف المسلمين بسبب الخلافة - الفرق الدينية والكلامية : الخوارج - الشيعة - المرجئة .
- ٣ - المؤثرات الاجتماعية :
البيئة الحضرية والبيئة البدوية - امتصاص العرب بالأمم الأخرى - العصبيات والمفاحمات .

القسم الثاني

الخطابة السياسية في عصر بنى أمية

- ١ - ازدهار الخطابة السياسية في عصر بنى أمية ودواعيه

٢ - موضوعها وأقسامها

٣ - خصائصها

٩١ أولاً - الخطاب السياسية الخالصة : خطاب الامويين وأنصارهم - خطاب
الخوارج - خطاب الشيعة - خطاب ملائكة المذاهب ابني أمية .

١١٥ ثانياً : المناظرات السياسية

١٢١ ثالثاً : المشاورات السياسية .

١٢٤ رابعاً : الخطاب الحريمة

١٢٨ خامساً : الوصايا السياسية والحربيّة .

١٣١ الخصائص الفنية للخطابة السياسية

التابع البدوي - التنسيق - الإيجاز - الأسلوب العاطفي - التمثيل بالشعر -
السجع والتوازن - الأثر الإسلامي - أسلوب التمثيل والموازنة -
الأسلوب التصويري - حرارة الأسلوب وعنه .

١٤٤ منزلة الخطابة السياسية في عصر بنى أمية .

١٤٧ الصنعة والأداء في الخطابة الأموية :

الصنعة في الخطابة الأموية ومظاهرها - الأداء الخطابي .

القسم الثالث

أعلام الخطابة السياسية في عصر بنى أمية

١٧١ ١ - مشاهير الخطباء والأسر ذات الشهرة الخطابية :
كثرة الخطباء في هذا العصر وسميتها - أشهر الخطباء السياسيين في هذا
العصر - الأسر التي اشتهرت بالخطابة في هذا العصر .

٢ - زيد بن أبيه :

فاتحة أمره - زيد في ظل ولاية البصرة - زيد السياسي المحنك - جوانب
من شخصيته - زيد الخطيب المفوّه .

القسم الرابع
نماذج من الخطاب السياسية في العصر الاموي

٢٤٦



٦٠٠ ق . س